

الشعري بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
بالقاهرة

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

أُلفت الأستاذ

عبدالحليم الجندى

١٤٨٦

الكتاب الثانى والثلاثون
١١٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في هذا الكتاب صورته لا سره ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما عنه
من ألوان حاول أن أرسم بها شخصية الامام الأعظم لأهل الاسلام

وإذا كان من الرجال من يعبر نداه حذاً صحيحاً في تاريخ السيرة تنوي
آثاره حصاره كاملاً ، أو كان الرجل انسجع الرأي وحده جحماً لحد
فلس كهذا الامام مصداقاً لهذا الكلام

فالي الحل الذي يلف يسه وسره ينج عن الرجل احرا اسجاع ،
هذا المتل العالي للحرية والسجاعة والكبح .

ان أنصارنا في أعقاب هذه احرب نج أن تسج الى السبل والى
الماضي معاً ، لأن الماضي مركز السبل الذي يحفظ نوارنا ، فلا نضل على
المجهول الا وفي آئدينا قدر كاف من المعلوم . و لا يرد حصاص العر الا اذا
نهلنا من مصادرها واربونا . وإذا كنا الى السور لم نعرف من كورنا
الزاحره الا حصاب ، فنرجع ابصر كراب ابي سريحا ذاكرين أن العالج
لا يسورد من الخارج اذا تحققت المدعة ذاتها من القوى الدائبة للجسم
الحى

لعل للسردين مقالة ابجاجة في سيرة بالمحيط الأطلسي لسننعيث من
بحارة سفينة قرب شواطئ البراريل . ثرغ مهب الماء العذب فصاحوا في

طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط « ألقوا دلوكم حيث أستم » فأعاد المسعبتون طلب الماء ، وكان الجواب دائما .. « ألقوا دلوكم حيث أستم » حتى اذا ألقوا الدلاء عادب بالماء عذبا فراتا لذة للشاريين ، اد كابوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون

للق الدلاء حيث نحن ، فما أُرخر الأعماق عدنا بالكور .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها الا عند الحلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الاسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الاسلام من ردة المرتدين فكانت يده في حروب الردة أبدى وأجدى من كل غزوه غزاها .

واذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقفه السين التي أدهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ المانون منه أنه صدر في عهده ، فكف نأى حنفة وهو أكر مستنبط للقوانين في الاسلام والامام الأعظم للأئمة وللمشترعين ، في كل نصة من بضاب قلبه هداية ، بالعلم وبالمدوه ، الى شجاعة نفس ، وكفاح منصل ، جلب للناس عمله في ساية الحصار الاسلامية وحياطها بما أشاعه في كيان الفقه من عناصر الحلول ، وكشف لهم العوارق بين العمل الموفوب لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المصل لأبطال العلم والرأى ، فنجلى لهم مبلغ ما يصرون من الحمال ويصسون من الحير في الحياة الدنيا اذا ارينب لهم بمصباح الفقيه

ولما تعارض المكر والسلطان ، أو الفقه والخليفة ، كان كلمة الفكر هي العليا

آلا ان لنا في الامام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيا في الضحايا ، ونحن في مصرق الطرق . فلنقصد بهداه ، ولأخذ من حصارتنا بالسبب الأول لجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . وانتعظ بما اتعط به أصحاب

الحضاره العربيه الى اوشكت أن تعلن افلاسها في الحرين الأخيرتين لحلوها
من عنصر الروح .

لتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .
لقد اعز الاسلام بأسبابه ، عندما اسنمك أبناؤه بآدابه ، فلما
صيعوها بعباده الذاب والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .
وحسب الفارئء هذا المثل للرجل العظيم الذي أجرينا ذكره على
الصفحات التالية .

الباب في الأدب

الرجل

« أفلوا أيها الفيلق المبارك ، ما شات الأيام
التي لم يفرط عنها عقد الرمان بعد ، أفلوا
كالعجر الضالع واملأوا آفاق الوري بالسور »

لتربية

أقل السند في تودة وورانة ، طويل الهامة ، معدل السب عظيم
الهامة ، حسن الطلعه واللحنه ، تعلوه سمره ، في وجهه أثر من السجود ،
لا يلبس اذا مشى يمنه أو سره ، يصوع المسك من أردانه على الحرب وعلى
البعد حتى ليشيع الأرح اذا حرح من داره فعرف أنه القادم اليك قبل أن
تراه .

فادا طالعك ودنا منك رأي رجلا لباسا عليه بره فاخره تباهى بدو
صاحبها في قماشها وطرارها ، كأن فماتحجر لنفسه أحسن مالدیه ، فاحمع
دوق المشرى ودوق البائع على ذلك الوحه المشرق ، تعلوه فلسوه طوياله
سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعائة درهم ، في زمن كانت فيه ثمانه أرطال
سم بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ،
ولحم العم سنون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم بل الكبش
بدرهم .. ١

ومن جبة سجاب الى حة ثعلب يصلى فيها ، الى حبة فك « نوع من
جراة الثعلب التركى » في زمن لم يك يلبس الهك فيه الا الأقال والدهافين
والسرواب ، اذا ألبس فيه أو فما فله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس
أو من على تناكله ابن عباس . ابن عم البى ، وناث أمر المؤمنين على ،
والحد الأعلى لهرون الرشيد .

هذا السيد الذى يسم مطهره عن المعام الرفع ، يبتك محره عن مقام
في قمة الملأ الأعلى من المحلصين ، مجلس هو الوفار بعينه ، وفؤاد جسور هو
انشجاعة في عنفوانها ، وحنان ثابت لا يطش لدى الفارعه ، اذا سمع اللعو
أعرض عنه ، هيونا لا ينكلم الا جوابا ، حتى اذا دعب الى الحديث دواعه
افرب شماء عن ثسن ناتنتن ثم ابتقى السع سلسلا من سلسل ، كأن ملكا
من الملائكة يوحى اليه ١ مصرب المتل في وفائه ونداءه ، وسطه واباسه ،
وحديه على أعدائه وأولائه . لا تلهه تجاره ولا سع عن ذكر الله فما عد
الله خير من السع والتجارة ، رزقه ربه رزفا حسا فجعله كله رلى لله
وعربى ، فنب الله ذؤاده واسحلصه لنفسه ، فجعله للناس آية في الدنيا وفى
الدين

فمن ذلك الذى هو كل ذلك .. ؟

انه العماد بن ثابت المكى بأبى حيفة . الذى يبين عقله من مطلقه ومشيه ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر تردد عباراته الى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة فردد أصداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى سيب المقدس وفى اليب الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالصنطا . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظام ولا يصطعه الحلفاء ولا الأمراء ، فادا ذهب الى المسجد أحصل الحضور اليه يلمسون وقع الدر من فيه ، يطالعهم كل آد بجلائل العلم الذى يحى له الأفداد من العلماء ولو أتج للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا - بعد رسول الله وبضعة من صحبه - هو أحلد الرجال فى تاريخ الاسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والاشارة فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الاسلامية حصاره يحصل فى كلمة يسره المبى كبره المعنى هى : « أرجح الافوال من مذهب أبى حنفة » الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان ، وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى الجار وفى الملك ، وفى الصرفاء وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء يسموان باسمه فى معارج العلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمر وطغيان الحليفة وطغيان العقائد وطغيان العصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفس . ويشىء مدرسة الرأى فى الاسلام لتكون أم الفقه الاسلامى ومبعه على مر الدهور .

كان فى طوالا فه سمره محدره اله من وسط آسيا من أصلاب أحداه فى الأفغان - فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بى تيم ، فهو باسمه سمرى ملك من الملوك فى العراق « العماد بن المنذر » وهو بمولده مولى من الموالى ، لم ينلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وانما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحصل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة

كأنود مسعر ، وكان أمير العراق في طفوله العمان الجحاح بن يوسف
النفثي ، رحلا ما يرال اسمه يحري في الاريح العربي مما يحري به اسم
برون في الاريح العربي ، فالعمان لم يسلح في نواكر حاته لله واحده ولا
بهر دون أن تضطك مسامعه ، فأحدث هذا الطاعون الناشه براسه في أعناق
حريه وعثرتة يذبح أبناءهم ويسحق ساءهم في العراق عامه والكوفة
حاصه - وحمل الطاعنه في عقه دم العلماء فيما حصل من دماء الشهداء فلم
يردد أن نزل في سنة ٩٥ شهيدا « مات . ما على طهر الأرض رحل الا
ويجتاح الى عليه » هو سعد ابن حبر ومن بعد ذلك عام في سنة ٩٦ مات
أساد العراق ابراهيم الجعفي محمدا عن عبوه

ولما وقع الفى الموهوب كان الجحاح حار الأرض فد قصه انه
حار النساء فرحل الى الدار الآخره محظا في الدار الفاسه أحدث

لاحب على الحدب الناسء محائل الحاه وتعارفها الناس حتى بلغ
حديثها فاصى الكوفة ورعم محدثها في عصره الامام السعفي فلما مر به
يوما دعاه فاثلا الى من تحلف ؟ قال « أحلف الى السوق » وسى له
أساده في السوق قال السعفي « لم أع الا حلاف الى السوق بل عس
الاحلاف الى العلماء » قال « انى قلل الاحلاف اليهم » قال السعفي
« علمك بالنظر في العلم ، ومحالسه العلماء ، فاني أرى هك يهظه وحركه » .
ووقع في قلبه من قوله وترك الاحلاف الى السوق وأحد في العلم مد
حديثه الناكه

بدأ السعان بدرس علم الكلام وهو علم الوجود ، والجدال في
العقائد والأمور الديسه كافه كالأساء وما يحب أن يكونوا عليه . والحر
والاحسار . وان شئت فصل انه علم السريح المكري للسائل المسئلة
لأنكارها أو اقرارها بالدليل العقلي

وكان العراق اقلنا مسوقا بدفع كل شىء فيه الى شئون الحواطر .
وفي الطبعه السريه اتجاه عريرى للدفاع عن النفس بدفعها الى التوره على
العسف ، مواجهه ان استطاع ، ومن حواله اذا هي لم استطع ، فتمرع

شخصها من الحسنة في اتجاهات يظهر ندى الرأي أنها لا تبسب إلى
الحرب المسوية على 'الطغيان' . لكنها في 'نوافع كفروع البهر' ، تتلافى حسب
المحرى العريض يحصل المفكره التأثير كما يحصل الرورق النار

ولقد يظهر من ذلك أن الافعال على الحدال اسما هو في الواقع مثال
على اتصال ، افعال المفكر بطبيعته ، المرون بفضله ، لم يسسه هيرات احسن
ولم يقص في الخلافات العصبية أو المدهية ولم يقارن الرلقى بأن تدارب
السلطان ، واسا برله الى معارك العلم واسقام على طريقه طبله حياه في بلد
كاتب السياسة فيه هي الحزب القومي يضعه كل كوفي .

وسرى من بعد أن هذا العلم الأول حين راح في كهونه يصدع
برأيه في سحائه دورها تنجاءه السوف

قالوا رأى العمان في حدائنه من الصحابه تسابه رجال وامراه وفيل
خمسة وامراه وفيل حمسه وامراتن — منهم أس بن مالك — وانه سيع منه
حدث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث « الدال على الحر كفاعله »
وحدث أن الله تعالى يحب اعاته اللهمان وقالوا انه لم يسع من الصحابه
أحدا ، واسا تمحصب حدائنه لدراسه « الكلام » .

لم يدع قصص الفوه العمان على حاله بل دفعه الى الأسفار في سبل
العلم ، فكان يرحل بن البصره والكوفه حتى بلغ في « الكلام » مبلغا سار
اليه فيه بالبنان أو كما قال « كب أعضب حدلا في الكلام » ، وأصحاب
الأهواء في البصره كثر ، فدخلها سفا وعشرين مره وربما أقبت بها سه أو
أكثر أو أقل طما أن علم الكلام أحل العلوم « لكن ما ركب فيه من عمل
عملي كان حصفا أن نغير مجراه وأن يهديه الى طريقه المتلى وللشهادين
أغلوطاب تنجاني مع الفصد والبصمة ، وحلبى سته أن بصرف الى ما سيع
الناس تنجر المسكلمين الى الفهاء أو كما قال « فلما مضى مده من عسرى
تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم يصبوا محادلس وحاضوا
في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناطروا عليه فركب الكلام
واشعلت بالفه ورأت المسعلن بالكلام لس سماهم سماء الصالحين
قاسية فلو بهم غلطة أفئدتهم .. »

كان فى ذوانه يخار من كل شىء أحسه . وما دام قد تحرر الدرس فقد كان عليه أن يخار المدرس . وليس ادن الا الحلقة المجاوره لأبها أكبر الحلق ، وأسادها أكبر الأساتذه : أبو اسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأتعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال « تعلم العلم » قال « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك اللاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى العداة فخطيء الحفاظ ويصوب هو ، ويسكت اللاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوما من مجلسه فقال حماد لجاره « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فما بعد « كنت أكثر السؤال فربما ترم منى . ويهول يا أبا حنيفة قد انفخ جيبى وضاق صدرى . » .

لم يلبث الا قليلا حتى أحس حماد أنه يرحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بازائه . وطفقا يجلسان لنفسهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات واللاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحطى من الشيخ بكل راخر من الرعاية ، فصحب مداركه وعلا اسمه وتوصب بيهما العرى حتى أن ابن حماد لبسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة الى أى الأشياء كان أتوى ؟ وكان للسائل طفل ولد فوقع أن يكون أقرب الناس الى قلب الجد هو الحميد . لكنه أحابه : الى أبى حنيفة ولو أمكسى أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت اللميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظا من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فصح الله عليه . فحرج يوما بالعشى تزارعه بصفه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسجد وأوى الى ركن بعد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى فلم يكذب يدخل حتى رأى أساده كواسطة العقد فى حلقة ، فهاحه الذكر ولم تطب نفسه أن ترك ذلك الا ماد

ولست على انوصوء . فَنُ هُ تسمي كى الرجل سألُ با حنقه فقال . سر
واسطر عسونه التفعى ، فاداً حنست ذلك فسم وصل وسار الرجل فتصادفه
الماء فوصاً .

وهكذا لم يحز للرجل أن يسم ما دام يعلب على الظن وحوود الماء ، وفي
الوقت سعة ، طلباً للكمال بالظهاره الأصلية .
وهى أول فنوى خالف فيها أساده .

اكملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ بضجه العلى ، واسوى في
سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى سسطع أن يؤدى رساله وهائب له
السواء كل الظروف .

ففى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد الى بارئها واحسم الناس الى
ابنه اسماعيل ، وكان أغلب علم اسماعيل فى التاريخ والأدب فلم يلق الناس
عنده كبر غناء فأخذ المجلس موسى بن كتر وكانوا يحسبونه وان لم يكن فارها
فى اللهه لأنه لى المتباح الكبار ، تم خرج حاحا فجلس الناس الى أبى بكر
الهسلى فأبى فسألوا أنا برده فأبى ، وحلى بن المجلس ومن أبى حنقه .
فوجدوا عنده ما لم يحدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب فاداً وعلمنا بارعا
فلرموه وبركوا سواء .

وحاء اسماعيل بن حماد نفسه واحوانه وحلسوا من العمان مجلس
العمان معهم من قبل من حماد ، ولم يزل الناس يحسبون الله حتى تخرج
على يده من تخرج من البلامذ واستحكم أمره واحاج الولاه الله وذكره
الحطاء وجعل الأمر يرداد علوا وغدت حلفه أعظم حلفه بالمسجد وأوسعها
فى الجواب وانصرف وجوه الناس اليه وأكرمه الحكام والأشراف ، فموى
ذلك بالعلم الواسع والجدة وأسعدته المفادير . وكثر حساده

وظلت فى نفسه ذكريات حماد بردها متشدا ننداه على الناس وحدوا
عنده وتقواه لله حتى ليقول « أبى لأعود لحساد مع أبوى » . بل انه ليخلد
ذكره فى نفسه وفى داره فسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها
فيسمى ابنه حماد ولده باسم اسماعيل كما كان لحامد ولد اسمه اسماعيل .

ذلك حماد أساده في الفقه ، وثبوت في الفكر . وأولئك آداء حب-
المكريون :

كان حماد تلميذا لعليه الأساديين حري اسمه في السريخ على أنه راويه
ابراهيم الجعفي وناهيك براهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما يعي
إليه « هلك الرجل . انه نسا في أهل سب فقه فأخذ فتمهم ، ثم حالسا فأخذ
صهو حدثا الى فقه أهل سب فس كان مثله .. » وقال . دفعهم أفعه
الناس . قبل ومن الحسن « الحسن البصري » قال « أفعه من الحسن ومن
أهل البصرة ومن أهل الكوفة وأهل الحجاز » فلقد كان في الواقع حلقة
الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين - أخذ عن حاله علفسه بن مس
الذي كان الصحابة بسفوه والدي قال عنه ابن عباس اد ما .. « ما
رباني العلم » كما أخذ عن ابن أخي علفمة الأسود بن يزيد الجعفي وهدان
الجعفيان أحذا عن أسناد الكوفة الأكر عبد الله بن مسعود ، سادس سنة
تسلوا وأخذ المهاجرين الى الحثه والمدنه ، وفريق أبي بكر وعثمان وعمر
وعلى ، وصاحب السى الذي قال فيه « من سره أن يقرأ القرآن عضا كما نزل
فلمراه قراءة ابن أم عبد » والذي كان أحا في الفكر والرأى لعسر بن
الخطاب .

قال عنه أبو موسى الأشعري « لا تسألوني ما دام هذا الحرف فكم » .
ولما أرسله الى أهل الكوفة بع الههم يقول . « اني بعث اليكم عمار
ابن ياسر أمرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من الجناء من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقدوا برأيها ،
وأطعوا واسمعوا قولهما ، وقد آتاكم بعد الله على نفسي » وقد نعتار
ومساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر ١ ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لعلفمه
الناس وفيامه على سن المال

وسى الوزير المعلم بنه بجوار سب الله . حث فضي أبو حسنه فيما بعد
أحفل أيام حياته ، وحري في خلده وفي مهاجه نهج هذا المسلم السادس أو
المعلم الأول للكوفة ، اذا أصبح لنا أن سننصر هذا التعبير العربي عن أرسطو

.. وبهذا تسبين صلة أبي حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما شأ
الإسلام .

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف قصوره له في إحدى
حوامع الكلم قال . « . قال تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عس
كان علمي به أنه شديد الدب عن المحارم شديد الورع أن يطق في دين الله
تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين
أيديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذارا ولا
ثرثارا .. ان سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، والا قاس مسغنا عن
الناس ، لا يميل إلى طمع ، ولا يذكر الناس إلا بحير .. » قال الرشيد : هذه
أحلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها

كاتب قره عنه في الصلاة طول الليل ينعبد وينهجد ويصلي ويكفي
ويدعو ربه قائلا : « رب ارحمني يوم يبعث عبادك ، وقني عذابك ، واغفر
دنوبي يوم يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم
القرآن في رمضان سبعين حنمة ، ختمة في ياص النهار وخنمة في سواد الليل ،
ولطالما داعب في الناس أحاديث تقواه ، فقل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة
أو ركعتين في الليل ، وفيل أنه كان يصلي العشاء والعجر بوضوء واحد أربعين
عاما .

سئل عنه جار له شيعي فقال . « لا يسعى حلا في إياه أن أقول فيه
الحق أنه لجاري منذ أربعين سنة ما بنى وبنيه إلا حائط ، ما كان يصبح كل
ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كبر » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمي الوتد ، روى مسعر بن كدام أنه أتاه
في مسجده سنة أشهر ، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .

كان إذا أراد أن يصلي من الليل ترين حتى يسرح لحسه ، مؤثرا أن
يسجد لله وهو في زيته ، ولو كان مستخفيا في الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم نلسه في بعض الأحيان
اذ يزرع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام ، ثم ينطر ويعوم إلى الصلاة

فمیل له انما یلبس الباس هذا اللباس اذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا فی مجمع عظیم فقال النزیر لله عز وجل أولى من النزیر للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احمل به أعظم احمال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السحاء اذ هو لم یعلمه من الکتاب الا فاتحة الکتاب فقال له : « لا تستحق ما علمت ولدی . لو کان معاً أكثر من ذلك لدفعناه الیک تعظیماً للفرآن » .

کان جم الوفاء لجیرته وعشرته یسهر اللیل شواک بذكر الله وفی جوار داره اسکاف بحی اللیل منتشیا بلذات الشراب یعمل طول النهار حتی اذا جن اللیل حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها فادا دارب رأسه علا حسه ورن جرسه ، یسهر الشاعر :

أضاعونی وأی فتی أضاعوا لیوم کرهة وسداد ثمر
کأنی لم أکس فیهم وسیطا ولم تک نسی فی آل عمرو
أحرر فی المجمع کل یوم فیما لله مظلمی وصبری

وداب مساء فقد الجار المنعبد جاره المرید وفیل له ان العسس اقادوه الی السجن منذ لیل ، فصلى صلاه الصجر من العد ودعا بسواده وفلسوته الطویلة فلبسهما ورك بغلته وفصد الی دار الأمر — عیسی بن موسی — یسأله المغفرة للحر اللصق . فأكرم الأمر مشواه وأطلق سراح کل من أخذه الشرط من تلك اللیلة الی ذلك الیوم . وفعل الرجلان راجعین ، هو الی داره والأسکاف الی جواره ، قال لصاحبه وهو يحاوره : یا فتی : هل أضعناک ؟ فأجاب قائلاً : بل حفظت ورعک جزاک الله حیرا

کان ذلك الصنیع لفقة بارعة تاب بعدها الفتی عن شرابه ولزم الحلقة حتی صار فقیها من فقهاء الکوفة .

فلا تساءل کف چشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة فی طلب العفو عن سکر . فالجواب فی السؤال : انه رجل الفقه الذی لا یتحرك فی قوال من الجس ، أو فی مقامع من حدید ، لأنه صاحب الفقه الحی والطبع الأریحی

أبدي لا يصنع حازه فهدى نسا كات ترتع في الفساد وحسبك هذه
السباه لحفل بها عن البدايه

وفدينا صنع مثله سعد بن أبي وقاص فاتح العراق في صنع شريف من
أصماغ العراق يوم القادسيه ، يوم شرب أبو مححق الصحابي الحمر فحبسه
سعد وجيء به ليقام عليه الحد فلما ألقى الجمعان ناح نفسه كواح
احمائهم .

كفى حرنا أن تطرد الحيل بالفنا وأترك مسدودا على وتامنا
فقال لامرأه سعد أطلقي والى - والله - ان سلسي الله أن أرجع حتى
أصنع رحلي في المد ففعل السبيده عهدده وحلب ففعل
فوثب على اللقاء ، فرس الأمر ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فمهر
انحس ، وحلب ل الفائد ، حتى خالوه ملكا من الملائكة المسومين أبراه الله
لنصره ديه ففعل سعد سبله وآلى ألا يسم عليه الحد من أجل بلاء يدي
فيه الونة الكاملة بسلامه نفسه في سبل الله .

وكان لمسة مباركة تاب من بعدها أبو مححق عن النحر ففعل للأمبر
« كب أشربها اد نعام على الحد وأظهر منها فاما اد يرحس - أهديتني
بأسقاط الحد - فوالله لا أشربها أبدا »

كان أبو حنيفة اذا جمع المال تساهب كفه في نهره . ذلك قلما
سد حله ، وتلك امرأة داب خصاصة وهذا فقه في أسوأ حال . ان مال
أبي حنيفة ان لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال . واذا أنتى أبو حنيفة
على عماله نفقة فليصدق بشلها واذا اكسى نونا حديدا فليكس سبل نسه
الشيوخ والعلماء .

أصاب رجلا من الأغنياء فادحة أثقله فجعل سجد حتى غرق في
ومسه الصر وشكك له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أحدث النساء
وسدر الأبناء فمس كنده من دالك كند وخرج على عزم السؤال . وهتند
الى مجلس أبي حنيفة حت جلس ملنا نفسه الحاجة ويقعده الجناء ثم
انقص المجلس عن أهله وتعرفوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما
أحتى ، وعاد الى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ في وجهه أشياء تحرى دلائلها

من حسنة . فسه حتى دخل الرجل داره ، ولما حل الليل جعل أبو حسنة في كسبه حسنة آلاف درهم ودق الباب وقال « أنها الرجل وصعب عندنا شئنا هو لك » . ورجع مسرعا لثلا يرى دل الأحد في وجهه . وأحد الرجل الصرفة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة دمي — فلقد كان الذمبون يألعون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعصاب — ولكن روحه أهاب به « حل عقدتها لعل الله يحل عقدا » . فلما حلها قرأ كلمة أبي حسنة « هذا المقدار جاء به أبو حبة الك من وجه حلال فليمرع بالك »

وحسن ابراهيم بن عسبه — أحو سفيان بن عسبه القصة — على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يحضروا له اكنانا فلما صدروا إلى أبي حسنة أمر برد ما أخذوه من الناس ووصى عن المدين ديه .

جاءه رجل فقال ان على لعان مائة درهم وأنا مصق فسله يصرعني . وؤخرني بها فكلهم أبو حبة صاحب المال فذل صاحب المال هي له أبرته منها ، قال الذي عليه الدين : لا حاجه لي فيها قال أبو حسنة « لسب الحاجة لك ، وانما الحاجة لي قضيب » .

تلك صدقات ونفحات في المناسبات . لكن العطاء كان يجري جرد الزمان في كل الأيام ، اد يأمر ولده حمادا بأن يسري في كل يوم بعشرة دراهم خزا يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يحلف الى ناه ، وكاد يجري على الكثر من أصحابه حراة في كل شهر عدا ما كان يواسهم به في عامة الأيام .

وتناهي به الجرد عن المادد ، فكان يخرج عن كل ماله للسورس . لا يحاف عليه ، ولا سمي لداره ولا لأهله الا قدر نفصهم والباقى كله طعام للناس والمعير . وفي ذلك قول « ما ملك أكثر من أربعة آلاف درهم مد أكثر من أربعين سه الا أحرجه وانما أمسكها لنول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فمادونها بعه ، ولولا أبى أحاف أن ألحأ الى هؤلاء ما ترك منها درهما واحدا »

وسرى كيف كان تراؤه عريضا لرى كيف كان سحاؤه عحسا . لنرى كيف كان ادباره عن الدسا مصدرا للوه في داته وأبرا لها في نفس

الوقت ، كالقوى تولد القوى فمولد منها ، وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاء له السماء .

ثم انك لترى الأريحية كلها اد يهدى اليه : أهدى اليه مديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهما . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث الى المهدى متاعا مرتفعا كثر القيمة .

وأهدى اليه يوما ألف نعل ففرقها على اخوانه ، ورؤى بعد ذلك بومين يشتري لولده نعلا ... فلما سئل فى ذلك قال « ان مذهبى فى الهدايا تفويهما بالعة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفها ، وتفريق الهدية بين اخوانى . لما قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أهدى الى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، واخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم ... وأرى قول الهدية كما قال الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف » ولما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقل الهدية ويحب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى « وادا حيتم بتحية فحيوا بأحسن منها » ولقوله تعالى « ولا تتسوا الفضل بكم » .

وأهدى اليه مره فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى اليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت اليك . قال « لا تقل هذا فان القليل للسابق ، ألم تسمع الى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال : من صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا له تكافؤا فادعوه به فافئوه عليه .. » .

بلى . فليسعد الطق ان لم تسعد الحال .. ١

رأى على أحد جلسائه سنجابا فلما هم بالحروج دال له ناولى سدا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صاحبه معه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأسناذ بالسجباب . لكن الأسناذ سأله عن الحسن فأجاب سبحانه الله أبغى لك ١ هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأسناذ ان بغنه منى بقيمته والا فلا حاجة لى فى الهبة ، فان بغنه منى نفسه كان أعجب الى وأفعل

ذلك لأنى محتاج اليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور
واشراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرا بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته
حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل الى الظفر
بحملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم والصبر . كان فى المسجد
فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه . وقام الى داره فنبهه الرجل
يشتم ويصيح حتى اذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً
« هذه دارى أريد الدخول فان كنت تسنتم باقى كلامك فأتته حتى لا يبقى
شئ مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاسحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى
حل . قال . أنب فى حل .

وقديما كان فتى مهين يسلق بركليس بالسنة حداد على ملا من الناس
فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقي اليه بالا حتى أوب الشمس الى الغروب
فسار الى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليس بعث
خادما يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته الى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كعص الأمهات وبعض العشيرة
تكاد تعشى عندها فى ساء الكوكب الذى يغمر الدنيا ضاؤه ١ لا تثق بالتسا
الا اذا جاءتوا وارده من الخارج .. ١

حلف يمينا واسنفسه فأفناها ، فلم ترض عما أفنى فناها ، وأبى الا
أن يفتها ررعة الفاص « الواعظ » فلم يضق درعا ، وحملها الى دار زرعه ،
وهناك قال لها صاحب الدار : أفنبك ومعك فقيه الكوفة .. ١ ولو انكشف
أمامه لوح المسجل لقال فمه الدنيا

وأسر أبو حنيفة لزراعة أفنها مكذا ، فأفناها .

بل كان يحملها الى دار عمر بن در على ما كان بين الدارين من بعد
الشقه « ثلاثة أمال » لصلبا النراويح خلفه ولستمعوا الى وعظ هذا الراهد
الحليل . ولدعوا الله كما يدعو « أتعذبا يارب وفى حوفنا الوحيد . ١
لا أراك تفعل » وهو دعاء يوائم قاعده أبى حنيفة فى الايمان كما سترى

بعد أن رفته تنص من هذا القلب الكبير ١ وني دار كملك الدار شمع
في أحوائها الرهاده والسيل والامان . وأي دوق كذلك الذي سلس على
هذا النحو رضا السده الى حبله وأرصعه وقدمه هديه فاحره للوحود
ولما أوجعه الساط وهو في فيه المجد . معنى بالسكال الذي نصه
عليه ملوك الأرض لم يكد نفتح فاه بالكلام الى حاره الا لقول عن أمه
« والله ما أوجعني الساط قدر ما ألمسي دموعها » وقالت له أمه ما حير
علم يصعك هذا الصاع

قال بأماه ايهم يريدوني على الدنيا ، واني أريد الآخرة واني أحمار
عدايتهم على عذاب الله .

قال دأبعه الأدب الذي في فرسا « نوسونه » في رثاء عيسى بن
الحري « كويده » « ألا بعدا لأولئك الأبطال الذين لا أساسه فهم ا ايهم
قد ، راما واعجابا ككل ما هو حارق للطبعة لكن فلو ما لست
معهم

في أي سلك من الرجال يسلك هذا السد الرفيع الطرار ؟ لو كان في
الاسلام أرسماطاب وطيناب لكان مكانه في الدروه العليا من الطبقة العليا
حلما وحلما . سنا ويطفا صلة بالساس وصله بالله

كل أولئك ثم هذا سسه الأدبي الذي يسونه الى الساهين من
أصحاب السى ، فهم ادن أحهد الأساع والأساع أنفسهم لخلقوا له سنا
غير أساب الموالى ، وربوا له من مساب العرور أنه سليل الملوك وأن
اسسه أو معاه ورد في النوراه ، وأن السى عليه الصلاه والسلام قد بشر
بقدمه ؟

اما تفاصيل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسيه كأسان
المتشط وكالسدن يتشد بعضه بعضا ، وهم سواء في الحج ، وفي الصلاه وفي
الركاه ، وفي الجنایات ، عن وعن وسن سن ، والجروح فصا

سوى البنى بن نصه وبن مولاه ريد ، وأمر أسامه بن ريد على
الحش وهو حدب ، وفي الحش أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص

وعمرهم فلما نوبح لأبي بكر فل الحش كلف أبو بكر حلقه اليوم أسامة
في عمر حلقه العد ، ليأذن له في الحلف ففعل . وظل عمر ياديه كلما لعه .
السلام عليك أيها الأمر وهول « انى لا أدعوك الا به لأر السى صلى الله
عليه وسلم مات وأب على أمر »

ولما شرع عمر سحلف قال لو كان سانم موالى حديمه حيا لولسه .
في تلك الأمه السى لا تعرف شربها ومتروفا فهض الموالى بأفدح الأعاء
في الحرب والساسه وفي العلم والفقه .

وفي عهد الحلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر
ويدكر معه مولاه عكرمه وظل عكرمه رفقا حتى مات ابن عباس فباعه ولده
على بأربعة آلاف دينار فقال لعلى « بع علم أسك بأربعة آلاف دينار »
فاسفعل على من بعه واعفه .

وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاه باع : وأس بن مالك
لا يكاد يذكر الا ومعه مولاه بن سبرس ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر الا ومعه
مولاه عبد الرحمن بن هرمز .

بل كانت دوله الفقه للموالى في بعض الأمصار ، كالنصره جب كان
على رأسهم الحسن البصرى ، وفي مكه كان مجاهد بن حمر . وعطاء بن أبى
رباع ، وطاووس بن كستان وكترون من الموالى

وفي سون الفجار هذه علا صوب السودان فولى الفسا بصر برید بن
أبى حبس بأمر عمر بن عبد العزير ، وكان برید مولى للأرد أنوه من دقله ،
وهو الذى تعلم عليه امام مصر العظم اللب بن سعد .

ثم من هم الموالى ؟ الموالى هم القوم المسنون الى سوب العرب بعقد
ولاء ، ومنهم الأرفاء ومنهم عبر الأرفاء ، وكانوا في الاعلى الاعم من أهل
البلاد المصوحه كنصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن
سلكوهم نحو الفصح ، لكنهم تركوهم أحرارا ، وحرب كلمة
الموالى في اطلاقها على أن تشمل من لسوا عربا من أهل هذه
البلادان لأنهم كانوا يسلمون على أئدى المسلمين ، فس أسلم على يد مسلم

كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا موانئهم ، ولم يك بدعا أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المنوحة : فيقال أن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة — أبناء عباس وعمر وعمر والزبير — قد اسقل إلى الموالي إذ كان الموالي أهل حضارة رفيعة لم يمسحها الغزو ، لأنه لم يك غروا بربريا ، وإنما كان غزوا فكريا ، فشح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المنوحة ، فأنزل رحمته عليهم في شريعته اليهم وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تبارا من التفتح الذهبي أخرج للأمم ما أخرج من الآيات وكان الفقه أول ما أحرحت لأنه في الواقع هو الدين نفسه ، أو المدر الأوفى من الدين وتلافى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المعروضة دينهم فيما ، ولعنهم فصحي ، وقدم الموالي من جانبهم أسباب حصارا فخره ، وأصول تفكير عميقة ، واشتاع الشريك أن أبد الدهر ، فاردو حيا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الإسلامية على الانحاض تضافرت القوى عند السليح لنحرح أنواعا قوية جديدة الطراز .

وإذا كان ثمة وقائع تشر إلى البصرة بس العرب والموالي فقد صار حديثنا في التاريخ بعد أن توح الازدواج بالاندماج .
سأل هشام بن عبد الملك جليسه في فاتحة القرن الثاني : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة قال « عطاء بن أبي رباح » .

قال : مولى أم عربي . قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال « يحيى بن أبي كثير »

قال : مولى أم عربي ؟ قال . مولى !

قال . فمن فقيه أهل الشام ؟ قال « مكحول » .

قال مولى أم عربى ؟ قال . مولى !
 قال . فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال « ميمون بن مهران » .
 قال مولى أم عربى ؟ قال : مولى ؟
 قال . فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال « الصحاك بن مزاحم » .
 قال . مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
 قال . فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال « الحسن وأبن سيرين »
 قال « موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !
 قال . فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال « ابراهيم السجعي » .
 قال . مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى !
 قال كاذب نفسى تحرج ولا تقول واحد عربى ! .

قال ذلك هشام وقد طلع على فله التعصب لأعراقه ، لكن الحليمة
 الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الاسلام قال غيره . فلما
 سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنهوا أن تكون الفتيا للموالى صاح
 فيهم .. (مادبى ان كائب الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأتم لا تسمون ؟)
 والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قل لأهله (لا يحشى الناس
 بالأعمال وتحشونى بالأسباب » ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

وقف رحلان مولى وعربى على مجلس لبى العنبر . والعربى على
 حمار والمولى على ناقة وكان المولى يهراً ويكنب ، والعربى لا يقرأ ولا
 يكتب . فلما سلما على الصوم فاموا فسلموا على المولى ثم عادوا الى العربى ،
 فقصر يده عنهم وقال لا ولا كرامه ! بدأتم بالصعر قبل الكسر ، وبالمولى
 قبل العربى فأسكنوا ، فابرى واحد منهم فقال له بدأنا بالكاتب قبل
 الأُمى وبالمهاجر قبل الأعراى وبراك الراحلة قبل راك الحمار

هدان روحا هشام وعمر ، وهذا الحواب الأحمر هو الطر الذى
 يظر به الاسلام الى عنصرى كبانه قد أطلق الله به فنى سى العصر

كان الموالى هم الذين حملت مآكبهم عمد الدولة العباسية حتى اسمرت
 بها الأسباب والأولى ترحموا ، وألقوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلاقح

الفرس ، واليونان ، والسطيين ، والكلدانيين . والأثوريين ، والبابليين ،
والروم ، واليهود ، وعمرهم ، فصرخوا الحصاره الجديده حصاره اسلامه
جامعه .

وفي العهد العباسي كان مصحره للرحل أن يكون من الموالى ، كان عساره
ابن حمره بعد الصوب في بلاط المهدي فدخل عليه يوما فأعطيه فقال رحال
من العرش من هذا الذي أعطيه الاعطاء كله قال عساره بن حمره
مولاي فسعها عساره فرجع يقول ياأمر المؤمنين جعلني كعص حازنك
وفرأشك ، أفلا قلت عساره بن حمره بن مسون مولى عبد الله بن عباس
ليعرف الناس مكاني ؟

وهؤلاء طائفه من العراه والملوك كافور - الأسود الرنجي كما يقول
المسي - وأبو المسك - كما يناديه أيضا - كان (الملك الأساد) كما سماه
المسي كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى
عبد العزيز بن مروان هذان الموليان اللذان بقصران دون مجدهما كل محد
الساده هما اللذان سحا الاسابه حصاره الأندلس فوصلا السرق بالعرب
وحمعا طرفي التاريخ قدمه وحدثه ، ولو طال بنا السرد لمررت أسماء الموالى
على أنها رس أعلام التاريخ الاسلامي وحروف الهجاء في آيات وفجاره

بل هؤلاء هو تم الله بن بعلبه موالى أبي حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن
بأنهم موالى ذلك الذي سعدت به الدنيا فوضعهم في التاريخ حب بوسع
فلا سل ادن عن ثابت والد العمان ولا عن حده روطي فكلاهما فجار
ولدهما اديقال ابهما موليان ، وهماهما فجار هذه الأمة الاسلاميه على الزمان . بل
قل لتاب ولروطي ولكل من حاول أن بعض من سبهما مقالته المنسى لجدته
ولو لم تكوني سب أكرم والد فان أباك الضحيم كوكب لي أما

ان هذه التريفة لساهاى بطائفه من أسع علسائها برعب بحومهم أو وفدت
أصولهم من خارج بلاد العرب ولئن ساع ذلك السوع في الساسه أو في
القاده أو في الص . فانه في القعه ، وللهوله الأولى ، سوفف الطر ، وبخاصه

في فجر الاسلام ، فهي الفقه بصوص القرآن والأحاديث والسنة . فكيف
تسجل الفقه الوافده من بعد خصائص الأمة العربية في سهولة وسرعة
فمحفظ كتابها وتذكر أسرار لعبها حتى تبر الحلق من بينها .

هؤلاء الموالى الدين أسلفا المماله فهم . وهذا الملب من سعد كان أهل
سه يمولون من الفرس من أصهار ، وهذا ابن حبل أصله من مرو ،
والطري من آمل بطرسا ، وابن جريح رومي الملب ورسعه الرأي فارس
الأصل ، والشعبى علامه النابغ كان أمه من سبي حلولا . والحسن البصري
كان أبوه من سبي ميسان ولو عبدا الى الحصر لسل الكثره العالبه من
أئمه الفقه والعلم ، ولكنا نضمر على بعض الأمتال ان الله بهما قد
سعدت بالموالى ملما سعدت بأربابها هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه
« اسدئب الكتابه بعد الحميد واسهب بابن العبد » كان من الموالى ، وهذا
سويه نضع قواعد الحوا والكسائى وارب علماء البصره ، وبلند الهراء
كان دليسا كسهار ، وابن مسكويه وابن سبأ والقارائى كانوا موالى أحبيهم .
ومن فلهم كان ابن المقفع سبب القلة الى العربيه . . وهو أول من أثار
بتجميع الفقه وما رال تجمع القوانين الشرعيه الى اليوم أمه رحل القابون .

رل الوحى في شبه الجزيره كالعرب ، وسال من فمعه الى الوديان
الاسلاميه طرا حب فراراه ، واحتل السبل فى فضايله تلك المدينه الرابعه
لاتفقه الحدود ولا السدود فشرف فمرب بطاح آسيا . وعرب لصب فى
المحيط الأطلسى بدأ العراق بهضة الله بالبصره واكسب فيه بهضة الفقه
بالكوفه ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ، والأزهر الأعز ، فأبى الجامع
العظيم على حصاره الاسلام ألف عام ليؤدها البنا فى القرن الرابع عتير والى
كل القرون .

ان هذا الدين من كلما أوعل الداخل فيه اشمله فصوص النور ،
فحلب ليه قواعد المجمع ، ونظم الأسرة والأهليه والاحلاق العامه والركاه .
والصلة البوميه المعبدة بالله باسم الصلاه ، والمؤتمر السنوى العام الى حوار
بب الله الحرام والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعة فى كل مكان ،

وحرمان البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ،
ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص
الاسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكلما تغلغل فيه اخلطت كفاياته
بأصول الدين فاستحالت عجبا .

وبهذا تمثلت الشريعة الاسلامية الملل والنحل الشى فصارت أمة واحدة
هى الاسلام ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى . ، وانما الفضل بالنفوى .

ولئن كانت النعرة العربية ، قد استبدت بهشام بن عبد الملك فانما
جاهلية دمها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « يا أيها الناس ان الله قد أذهب
عكم حمية الجاهلية ، وتعاضمها بآبائها ، فالناس رحلان برقى كريم على الله ،
وفاسق شقى هين على الله والناس بو آدم .. » ولقد فاب أمر المؤمنين أن
المؤمنس موال وعرب وأن الاسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها وأن
نبوع البوابغ من أفان الدولة وانما هو أفر النحايا للدين الجديد فى مطلع
سعدده وفاتحة عهدده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيره العرب قد سبق فاحتفظ بكل شىء ، ولم تبى للناس
من دونها شىئا .

فاته أنها أخرج محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها
هو ولو انه ليس لها وانما هو للدا جمعا .

لقد اعتر الاسلام بأهل البلاد المفتوحة وتألف فى سماواته حضارة
دمشق وبغداد والقاهره والقبروان وقرطبة والقسططبية وأمثالها ، لكن مركز
الثقل كان دائما فى وسط الجزيرة وحيثما كان المسلمون ولوا وحوهم شطره
منهلين الى صاحب البيت العتيق بمكة مصلين على صاحب القبر الشريف
بالمدينة .

الباب الثاني

التاجر

« لا تتساور من ليس في بيته

دقيق فانه موله العقل »

(الشافعي)

كان أبو حنيفة حرارا سعي الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف . وهدى
كان سي الله ادريس أول من حافظ الكتاب ، وكان الصديق أبو بكر فرارا ،
وكسرو من حله الصحابه كانوا نجارا •

ومن ألف وأربعائه عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في السحاره
وقول « أريد التراء ولكي لا أريده من الظلم » ، ويبيع الريب في مصر
لسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة ألف عام كان اسبورا بتسع
العدسات •

كان أبو حنيفة تاحرا صاعه الفكر ، ومفكرا يعمل في التجارة ، ومن
تم كان توفيقه التحاري ، الذي احدث البانباؤه مع الساريخ • ومرد
فتعا الى دراهم داب شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر
الحدث بسو عن الاعلان ، وهي درائع تكفي احداها للحاج فكيف اذا
احسب لدى رجل كله لافه ، وأنافه ، استطاع أن يجعل من المال أداء لشر
الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشعله حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يحدوا
في الأرض مراعي وسعة تحسبهم أن سعوا لدى الأمراء أو الاعساء مؤثرين
أن تلقوا بأنفسهم في معرك الحياه بالخروج الى السوق العام ، في حسيب
الميدان ، أو في عرص الحصم ، بالكدح والدأب واللعب

بهذا حل أبو حنيفة العمده التي نارائها المفكرون حزني ملسين . عمدة
الفكر الذي عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذي يرسل رحلة الحياه
الدنيا جوعان تعسا تهذر المسعه مراناه ، يمدح فكره ألمعه ولودعه ولكنه
لا يستطيع أن يحيل هذه الصم الهائله الى تن بحس دراهم معدوده !
وسرائي له يري السعاه ويعجز عن الدبومه والدلف اليه فتجالت عليه
مركبات النقص ، ويصق به المسالك المسادحه ، فسوء بالحياء ملسا بآب
به الحياه ويخرج منها محروما مقرا غله في الررق

وفي حالها كان فقيه الكوفه من أكبر تجار السكوفه ، فلم تأن من
يجلسون الى الأرض ويرفعون أكف الصراعه الى السماء فان السماء لا تمطر
دهبا ولا فضة ، أو يمدونها الى الأمراء فان مال الأمير نس نغس العائم ،

أو يرفعون أن تهبط حطوطهم العواتر دون أن يركضوا تلك الحطوط في حله
من الحطبات نروا ملح ما تكبو أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن العراب أعر نفسه وأدل واهه حين قسم إبراهيم بن الأعلب
بن الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأعلب عليهم بعضائه
فقال أسد « لا عليه أسا أحدا بعض حصوها والله سأثله عسا بهى . . . » ولم
يكر أسد لقولها إلا وهو العاصي العامل في الصروان ، والقاتح الغاري الذي
مات على رأس الحش في حصاره لسرافوسه بصلبه سنة ٢١٣

عرف أبو حبيبة أنه كلما بعد الفقه عن الحاجة قرب الصوى من الله ،
وكنما آتساء الحال عن الحل أدناه إلى الحق وإذا لم يكن الفقه أدناه
للمنعاء بداول الدنيا كلها من أنامله

وتدرك السافى ذلك من بعده نصف فرد فقال « لا تشاور من لس
في سه دس فانه موله العمل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى النساء والصراء دمراس كان
من الرهبة المصيبة ، والببل المؤدى ، في حياه يجب أن يعمل فيها المرء لديه
كأنه يعيش أبدا ، وفي أمة يقول رسولها ان أفضل الكسب (بيع مبرور وعمل
الرجل بده) و (لأن يأخذ أحدكم حمله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها
فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

و (نعم المال الصالح للرجل الصالح) كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد - امام مصر - ذا تراء عريض يصح الدناير في
المالودح فس أكل من صحبه أكثر ناله دناير أكثر ١٠٠ وكان صاحبها لمالك
ابن أنس امام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه (حدثني من أوصى به من
أهل العلم) ومع ذلك كتب إليه في ترب يقول (بلغني أنك تأكل الرقاق
وتلبس الرقاق وتسي في الأسواق) .

وأدرك صفا السل لدع الصرته الموجهه اليها من شمس الصحراء
فاسعدان اللت عليها بالله ، يدفع عن نفسه مدمه لس الرقائق أو أكل الرقاق ،

فكتب اليه يقول (ول تعالى فل من حرم ربه الله الى أخرج لعساده والطيات من الرزق) •

وعاش الليت في جاهه وماله كأصحاب السيجان فلم يسع ذلك أن يهول عنه الشافعي انه (أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به) •

كانت الكوفة عاصمه العراق ، وكان العراق أثمن جوهره في الباح ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أي شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء وال عمران ، تصل به من الشرق والشمال حضارتان عريضان هما حضارة الفرس وحضاره الروم ، ثم تلافت الحضارتان فيه مع حضاره الدين الجديد . كما تلاقى رجال من كل رأى يحاهدون في سبل العلويين وفي سبل الأمويين وفي سبل ابن الزبير وفي سبل بني العباس ، وفي سبل الأمة . أو في سبل أنفسهم ، فأى جيشان بعاصر الحماة ، ونوازع النماء ، وأسباب القوة ، كآب تجشيه هذه الكوره ، وأى مضطرب للمضى المشف والتاجر الحصيف ثمة ، وبخاصة اذا كان ينعى الجاح بمعناه الاساسي لا المالى ، وبمعناه الذى أرادته الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما يسح من النقد ، بل همه وكبر ماله أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه •

بدأ أبو حبيبه حياته في التجارة بطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أسناد يعلمه التجاره سماه للإمام الشعبى يوم وجهه للدرس الناس كما مر لنا ، وهى ظاهره تترأى لك في حياه أى حبيفة في غير موضع مردها الى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فسدرع بالدرس والعلم حتى سما هو عملى محض ، حتى اذا كان في ريعان حياته قدم اليه رجل تاجر فقال له (أراك تتجر ، التجارة اذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تعلم ولا تكتب) ولئن كان ما عناه هو العلم العام ، ان الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ولعل العائدة النى يعدها التاجر بالعلم العام خير وأفى في العمل التجارى

وهكذا دخل الى السوق مدخلا كريما فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ، اخبر لدكانه مكانا من أبرر أمكة الكوفة في دار ليسب هينه على التاريخ ، هي دار عمرو بن حريث — الصحابي — يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجد في حياه العراق ، وحيث يكون للأماكن شأن .

ففى سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة الى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليتهم ، ومالوا الى ابن الأشعث وسبغ اليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث وفى سنة ١٢١ خرج زيد بن على وخرج أهل الكوفة معه فجرب المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث ، فهى لا مزية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك .. وحيث سوق الحرير .

وانك لتصور مظاهر الدوق فى ترتيب دكانه مما كان عليه فى حاصنه شأنه حسن هيئة ، وبره وتفكر وتعبر ، بل انك لكاد بعد هذه القرون والمسافات تتسم العطر يتأرجح من أردانه ورواياه دكانه ، وتصور الساء اد أقبلن أو أدبرن ، بأعاب أو مشريات ، يعصض من أنصارهن ولا يبدن زينتهن . يدلن الى الدكان كأنما يعدن الى الدرس ، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان فى المحراب

كان صاحب هذا الدكان يقول (« من وصف خف امرأة صغيره أو كسره فعد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا » ويقول : « اذا قام المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » وكان رحمه الله اذا مشى فى الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة . قال فى وصية لأحد مريديه « .. واذا مشى فى الطريق فلا تلصق بمنة ويسره بل داوم النظر الى الأرض .. ولا تماكس بالحجاب والدوانيى .. » فساله من رجل رفع وتاخر رفع .. يدرك فبمة لفظه وخطراب نفسه فلا يحسها بانفاقها فى المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحجاب والدوانيى أم بعبر الحجاب والدوانيى .

جاء عجز الى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسننها أن يرفق بها .

قال . دوتك هذا الثوب يا أماء . .

فالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لاتسخر منى وأنا عجوز لا حيلة لى . .

قال : انه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله

الا أربعة دراهم وهذه الدراهم الناقصة ما أطلبه منك ثما للثوب الباقي .

أصف الى هذه الصورة والى آداب التجاره ، أن الحانوب لس محلا للمدارسة ، وان تولى التلاميد البيع وه بين الفسه والفسه وهكذا هب دار بن حریت حالصة للتجاره ، أما العلم ففى دائما فى مكانه لا فى السوق ، ولا فى الطريق .

فى ذلك الحانوب يحلس سسد مكيت غير عجل ، محور الحارب ، يصل الناس بصول حسن ، وصاء المحبا ، مسط الطبع ، مسون الفسه ، يصف الناس من قل أن يصف نفسه من الناس ، لايمائل ، ولا يحصف ، ولا يسكر ، ولا يسكف يقصده فط التلب فألمه ، وسر ده الرجل فحلس اله لغير قصد ولا محالسه ، فادا قام سأل عه فان كانت به وفاة وصله ، وان كان به مرض عاده ، حى يحره الى مواصله

أما صدى المعاملة والبهره من المماكسة ، فكانا كلمه السر فى دكانه ، لكأما كانت كل ألواح « الشمس محدد » مرسومه فى مخلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد الى جدر الدار ، فلى كان صاحب الدكان أسناد الاساتد فى الجدال ، ان لكل مقام مقالا . ولس هبا مقام الجدال .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الانسان ، بل انه ليمطع أنعد الاشواط فى مضمار الصفة ، فلا اعلان ، و لا شبهة اعلان ، لما قد يكون فى الاعلان من ايهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس فى ذلك العصر حدثى عهد رساله الرسول صلى الله عليه وسلم ، تأسرهم الكلمة اذا سبقت ولو فى السوق ، فكيف بها اذا حرحت من فم الاسناد ، أو من فم عره على عيه أو على سمعه وفى دكانه

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبا ، فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . . . !

قال أبوه : مه قد ملحته . . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد الى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة الى الثوب . وأظهر ما يكون استعدادا لدفع الثمن ، ولكن الشيخ في عر محاشية ولا مشافة ، بل في سماح واسجاح ، رفض أن يبيع .

وعاد المشتري أدراجه .

وفي ذلك الحانوت بضاعة لاتعرضها الحوانيب الاخرى في سوق الحزارين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة الى الكوفة ليشتري لبنته جهازا ، فسمه الساس على الجهار في دكان « الفقيه الحرار » وان الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشريا فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الاساذ ما راد على الثمن ، بعد اذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أدواته في الفقه ، كان الفكر أدواته في التجارة . كان الثمن في دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف اليه نفقات الشراء والسع مقسمة بهاس العدل والعقل ، فكما كان الفياس الأعظم في تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المصنف في ثياب الخز في دار ابن

حقا ، انك لاتستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد حاءه عن الفقه أم أن الفقه قد اتحد من الجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدرا منيفا تستطيع أن تقرره بين الجواين ، هو أن الصدق والحزامة في التجارة قد هيا

له من الجاح أسبابا مواتية للفرع لدين الله ، في روحانه المعبود ، يسقبل تلك اللمحات التي يبعثها الالهام في الكون كومضات النور • والسعيد السعيد من رآها ، وكان ملكاته محفزة تتلقاها ، كما تستطيع أن تقرر أن التجاره ربطت بين دنيا الفقه ودينا الناس في أفكاره ، فعدا فقهه فقه الحياة التي يحياها ، ورحم قلبه ضعف الاسنان ، وكان التسامح كبرى فواعده ، وتحمل مسئولية المخاطره فصدع بالرأى في مراجع موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمقول ، وامند بصره فشمل المسقبل ووضع لاحسالاته ما يحكمها من الأصول محرزاً - كما قال - من البلاء قبل نزول البلاء •

وكما أثرت في الفقه التجاره ، أحدثت الفقه في التجاره آثاره • فليس كان في الفقه العصري مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يسادل تطهيرها المعاملون كل حين ويصح معها العقد وان كان سزريها فواعد الآداب ، ان الأسناذ كان يدرك أن دكانه فتح لبنهم مكارم الأخلاق •

بعث بمناع الى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجاره وأعلمه أن في ثوب منه عيبا فسه للناس ، فباع حفص الماع وصى أن يبن واسوفى ثوبا كاملا لثوب غير كامل - وقل ان الثمن كان ثلاثين ألفا أو خمسة وثلاثين ألفا - فأبى أبو حنيفة الا أن يبعث لشريكه بكلفه أن يبعث عن المشري ، ولكنه لم يهتد الى الرحل فأبى أبو حنيفة الا فصلا من شريكه وتاركا •

بل رفض أن يضيف الثمن الى حر ماله وتصدق به كاملا •

ذلك مثله لانصاف المشري من نفسه ، وهذا مثله اذ يصف من نفسه البائع • جاءه رجل بتوب يبيعه قال بكم ، قال بكذا • قال انه سيق أكثر من ذلك ولم يرل زريده حتى استمره بثماننة آلاف ١١ بل حاءته امرأة ثوب خز يبيعه بمائة فقال لها هو خير من مائة • بكم تقولين ؟ فزاد مائة ، مائه ، حتى قال أربعمائة قال هو خير من ذلك ، قال تهراً بي ؟ قال هاتني رجلا • فحاء برجل فاستمره بخسمائة درهم •

وصدق المراه أنه لم يحددها سخريا • وصدق كذلك أنه لم يملك يريه الاحسان لها وانما نعم الله به النائع والمشرى

فهو يصف المشتري منه • والبائع له ، ويصف من لا يبيع له ولا يشتري منه ، كل أولئك وظائره في لين وخفض جراح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فإذا راح يصي ديه من مديه لم يجلس في ظل حداره ١١ قالوا انه لا يريد أن يتقاضى من مديه أكثر من ديه بأن يقىء الى ظلاله اذ يجيء الى داره ، وهو الورع الحق ، لكه قل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تصب الى عسر المدين الجاح الدائن ، اد سرصده فلا تجرى المطال بالاحلال وان كان الاحلال مجرد فيء الى الطلال •

ترى هل كان هذا الحزار بالكوفة أو ذلك الرار سمكه الدى وصعوه بأنه كان رجلا وسما » • • وكان رجلا تاحرا ذا خلق ومعروف وكان رجال فومه يآلفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن محالسنه • • • ١

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان سنهما تواصل دهنى يتراءى خلال ذلك الشابه • فى العسل وفى الطباع ، حى أد أنا حنيفة كان يأخذ بأبى بكر وأفعاله وخصاله

ودان يوم بعث الى قية يقول لهم . ان أباكم أودع عدى مائة وسعين ألفا فخذوها ١٠٠ ولم يشهد عليهم فانه لم تكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال •

فلما جاءه الأجل ظهرب عده ودائع بحسب ألفا ردت لذويها وازدهرب تجاره أبى حنيفة أيما ازدهار ، ان هذا الانفاق الضخم لمحاربه الفقر ونشر العلم كما سرى بعد ، وهذا النصد بعشرات الآلاف ، أو الجاوز عنها ، لاتسمح به الا السوب المالية الوطيدة الأركان والساححة كل السحاح ، حنى لقد بلع من ازدهارها أن قل ان بعض أعداء أبى حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبى حنيفة استعملت فى تقوية ابراهيم بن عبد الله (بر الحسن بن الحسين بن على) اد خرج على أبى جعفر وانه لهذا حسن أبا حنيفة •

الى هذا القدر بلعب هذه الأموال أن تساعد فى ادالة دوله واقامة دولة • • • !

بهذه القواعد الى بسطا بعضها كانت دار اس حریت تصرف الأمثال
كريمة للناس

انك لاتستطيع أن تقع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالديا مدرسة
مكبرة ، والحقائق لاتفهم مصوره ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق ،
والناس في الدنيا كالتلاميذ في المدارس لن يفهموا شيئا الا اذا صعدوا
بأنفسهم ، أو صعد على أعينهم بالرفق وحسن الأداء ، — والكلام لا يهدي
قدر ما يهدي العمل ، وما تهدي القدوة ، والقدوة في العلم هي أن تبدأ
بنفسك فتسك داتك فما تصوغه للناس من قواعد أو تصه من فوالب .

أذن النبي لصحبه وهم على سمر في الافطار شهر رمضان وبقي هو
صائما فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر، فخفوا الى الاقتداء بفعله
وأفطروا ***

ونظر فتیان من أسباط الرسول عليه السلام — يحري في عروقهما
دم الهدى والرسالة الى أعرابي على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا
لنفسهما ، لو قلنا له غلط ربما انفتحت أوداحه ، ولا يقاد الى الحق
فقاما اليه ، وقالوا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء
والصلاة ما ، فنوضأ وصلى عندك ، فان كان عددا فصور فعلما ، فوصأ
وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام فاب الشيخ ورجع عن
صنيعته .

ان قاعده الاصلاح في حل هي أن يصلح المصلح نفسه فل أن يحدث
في اصلاح سواء فالنفس هي التي تسمع لا الأذن وفي الناس لحاجة تسب
من أعناق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم الى الاستمسك بما هم
عليه والاستسلام اليه .

خطب عمر بن الخطاب يوما وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون؟
قال سلمان : لانسع .

قال عمر : ولم — يا أبا عبد الله — ؟

قال : انك قسمت علينا ثوبا ثوبا ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل • ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد • قال • يا عبد الله
ابن عمر — ابنه — •

قال : ليك يا أمير المؤمنين •

قال : نشدتك الله ، الثوب الذي انتزرت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم •

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع •

ذلك سلمان الفارسي أو الناس جميعا • • ومع الحليفة الذي خطب
عندما تولى . ألا واني أنزل من نسي من مال الله بمنزله والى اليتيم ان
استغنيت عفت وان افقرت أكلت بالمعروف تقرم الهمة الاعراسة القصم
(الأكل بأطراف الأسنان) لا الحضم (الأكل بأقصى الاضراس) •

وقديما قيل : خير من الخير فاعله • وشر من الشر فاعله •

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الأراء
فقال : (ان الناس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله وذلك الذي
أصاب حظة ومن خالف فعله قوله فانا يوبخ نسه) ومن قبل قال عليه الصلاة
والسلام (ان في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فشرف عليهم من كان
يعرفهم في الدنيا فيقول ما صرركم في هذا وانا كما نعلمكم . قالوا كنا
نأمركم بالأمر ونخالفكم الى غيره) •

وقال (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا) •

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوما زاهدين ، وخاض القادة
المبرزون معاركهم في الصفوف الأولى وفي الطليعة • كخالد بن الوليد وعمر
ابن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وغاندي في الشرق ، وكرومويل ،
وسالازار وديفاليرا في الغرب •

ومن ثمة تدرك أثر القدوة في عمل الجائر الكريم النفس والكريم
الفعال •

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاما وكان رحلا صالحا روى عن شريكه الحديث والفقه ، ولا يبيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمر النجاري للزميل الناجر . وما أدراك ما في الضمر النجاري : المحال المحصبة تقطر من دم الضحايا ، والمحارج ، والحل ، والسعار المعدب المدفع نحو كل ما هو مادي ومالي ، الى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للنحاره .

فلنسمع اذن لحاصل التقرير الحسامي عن الشريك حث يقول حفص (حاسب أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحدا أجمع لهذه الحصال من أبي حنيفة) .

ولئن سمعت أحاديث الورع في مجال الورع فمن العجب حقا أن يباهي الشريك التاجر بورع الشريك الناحر وزهده ونسكه وعلمه ، محتمة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنسك مضمعين .

ولنسمع اليه مرة أخرى يقول بعد أن تاركا « في طول ما صحب أبا حنيفة وخالطه لم أره يعلن بحلاف ما يسر ولم أحدا يوفى مما لا خطر له متلما كان يوفاه ، وكان اذا دخل عليه شبهه من تىء أخرج من فله ذلك ولو جمع ماله »

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل ما يعلن ، ولا يصح في السر الا ما يصنعه في الجهر ، فرى الله أمامه ولا يرى السر .

ولئن جاء في الحديث أن التحار يعيشون يوم القيامة فجارا الا من اتى الله وبر وصدق أو كان من أصول فقه أبا حنيفة أن الشك لا يزيل القن فان هذه الأصول للناس وليست له . ولو كلفته جميع ماله .

ان أبا حنيفة قدوة للناس في علمه ، فليكن قدوه للناس في عمله ، ولأخذ نفسه بالشدائد ، حتى اذا ثقلوا عن الأصل ، وخف الأثر في القل ، وصل اليهم ما ثقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبي يوسف « ولا ترض من العبادات الا بأكثر مما يفعله عرسك فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعمدون منك

السوء وقلة الرغبة فيها ويعتقدون أن علمك لا يفعك ولا يبيدك الا ما أفادهم
الجهل الذي فهم . وكن من الناس على حذر ، وكن لله في شرك كما أن
له في علانيتك فلا يصلح أمر العلم الا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما بهاه الأمر عن المسا فانتهى ، حاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في
داره فلم يحبه ، قال يا أب مالك لا تحبى قال « أخاف أن يسألنى السلطان
هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا » .

ولم كان لديه مدوحة في أن يفسى ، لكن الرجل القدوة لا يرى لنفسه
الرخص ولا المباح ، وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون
حرفى الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهاها قام ذلك البيت التجارى في دار ابن حريث
بصع عشران من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيت راكى الأحداث ثقب
في البلاد ذكره وذكر عروصه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف
به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه
الصباح خطاب توصية فيه القبول .

جاءت تكاليف الاسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين
عما يسأل الناس عنه

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ، ويأتى على أهله
اللالى ما يجدون فيها عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى
مسندته الى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال
فأنقبتها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها فلما
آفاق قال هل أنقبت تلك الذهب يا عائشة ؟ قال لا والله يا رسول الله فدعا
بها فوضعها في كفه فعدّها فاذا هى سنة دنائره فقال : ما طن محمد بربه لو
لقى الله وهذه عنده فأنقمها كلها ومات من ذلك اليوم

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوما درهمين هما كل المحصنات
العمرية ، بهذا استطاع أن يصر بولاته بالدره ، ويضرب عامله على البحرين

« أبا هريرة » حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله .

مر يوما ببناء يبنى بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعافها وشاطره ماله ! ولما أخذ يسحلف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبد الله - ابنه - فقال « بحسب أهل الخطأ أن يحاسب منهم رجل واحد .. ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كصافا لا لى ولا على » .

لكن صاحب هذه النفس العنيفة يرى في فحمة الحلك أطفالا جاعا فيحصل اليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العنريات التي تذر المفكر في دهلة المتحير ، وهذا النوفيق الذي سددت به العناية الالهية خطي أبى بكر وعلى وأبى عسدة وسعد ابن أبى وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم في كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعا من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم الساريخ الاسلامى ، ليست إلا أصداء متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسلام . ما يزال يدوى خلال القرون حتى تقف هذا الكوكب السار عن أن يدور .. وانما يردد الصدى ذلك الردد البعد المدى ، فتتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والطولة لأن الصوت الأصيل الذى يدوى فى الأرض هابط إليها من السماء . تصب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحطوا . فانقلوا من الجاهلية الى هدى الاسلام وعادوا حكاما وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالالا فى الوغى يجدلون الأبطال . لس ما أحدثوه إلا آثارا مما أحدثه الصرب الأول فدهم . فلما صعدت روحه الى دارئها كان كوعاء العطر اذا فغض فدامه فاص العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ولا طارق بن رباح وأترائهم فى كل فن من فنون

العلم أو السياسه أو الحرب الا رجال نضرم حدوده الايمان فيهم حرارة الرسالة التي كانت تغمر قلوبهم بالنور •

اسا هي الرعامه الصححة الملائى بالنقبى تحلق الساس حلقا جديدا وتنعكس على أنصهم شئى الانعكاسات ، تحدث الأحداث مقاربة أو مساعده ، فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المساه الرمبة والمكانيه ، وانما يهم الايمان الصحح الذى يحلق القوى العارمة فسطحى حدود الزمان والمكان •

وسرى بعد كيف كاب حياة أبى حيفة قدوه للتحول والأبطال •

كان أبو حنيفة حرارا ، كما كان كثير من رجال الفقه بعده تحارا وصناعا •

هذا الامام الحصاص أحمد بن عمر بن ماهر ، أبوه تلمذ محمد والحسن صاحبى أبى حيفة ، كان الحصاص يؤلف للمهندى بالله كتاب الجراح ، ويصف كنه العطيمة فى الفقه فى حين يعيش من حصف الحال .. وهذا الكرايسى يبيع الكرايس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فادا على طهر كنه آثار فقول هذا من أثر على فى « صناعة الأفعال » وهذا ابن فطلوبعا يعمل حاطا ، والحصاص شح رمانه يسب الى العمل فى الحصن ثم هؤلاء الصغار من بيع الأوائى الصغرية (الحاسية) والصيدلانى (من بيع العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى ، والعالى ، والعالى ، والمدورى وعمرهم كثرون شهدون من سلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضاره الاسلاميه ، أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ما جاهد العالم العربى عشرات القرون لتحقيقه ، ولما يكذب بحقه ، أن لس ثمة مهن رفيعة وأخرى وصعه واسا ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم ، ويشهدون بمبلغ ما أعزب هذه الأمة العلم وأعرها العلم فأوردت كل الساس سسه ، وسامخ ما أعزب الصاعه فجعلت لها سهمها المسلم فى أسمى الدرى ، فرى ، فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى

الفهاء الصاع والصاع الفهاء يصعون للناس الفقه والصناعة معا
ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ،
كان العلماء عنده تلامذه ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان
الذي قال عنه ابن عمر . ان لمروان ابا فقهها فاسألوه ، والمأمون عبقرى
التاريخ الاسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبي الذى يضع كتاب الرد على
الخطب المغدادى سنة ٦٢١ هـ ينصح به عن امامه أبى حنيفة

تلك شريعة أمية تسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهما
وتطسقا ، يفهمها الامون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأئمتها (فطرب الله
التي فطر الناس عليها) فوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، ففى حلبات
البحث مصمار للافداد وللأفراد وللملوك أيضا . كل ميسر لما خلق له ،
فلا عرو أن يرقى الى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها
الرحل بهمه لا بمهنة ، فى حضارة لحمها وسداها الاحاء ، يحب المؤمن بها
لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، (اذا اشتكى
عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وتلك المظاهر الفقهية والاحتماعية التى تشهدا فى الحضارة الاسلامية
تصدر عن أصل عمق يسدى لك كلما وازن تاريخ الفقه الاسلامى وتاريخ
الفقه فى سائر الأمم فهالك بصدور فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهما
يصدره رجل الدنيا وهما فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان وهما لك
بين المعاملات والعبادات خلافاً أى خلافاً ، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء
كفهاء الاسلام يضطربون فى أسواق الحياه ولكن فسيسون ورهانا
يستمرئون فى عزلهم الفاخرة نعمة القداسة ويسرلون فيوض الالهام ، أما
الحييفية السمجة فالدنا عدها سبيل الآخرة حفا ولكنها لا تعرف الرهسة
ولا الطقوس ولا المراسم ، وهى اذا كانت جهادا ضد النفس وضد الكفر
فهى أولا وبالذات دين اجتهاد .

الباب الثالث

فالمسجد

« الشعلة من الشراره »

وسين

نحن الآن في المسجد الجامع . وان شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجداً
بنى في أعلى مكان من المدينة لسبع أربعين ألفاً وبني له ظلة تلعب مائتي ذراع
من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة . مال ميزان النهار ، وأخذت
الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عفرناها الى يوم الساعة ،
تحدد مواقيت الناس . فيفقدون للصلاة ويتطهرون بالوضوء يرحصون أطرافهم
ويعسلون وحوهم ، ويسعون بعد ما عابوا في سبل المعاش اد سفلون
من الدنيا الى حصره الخالق في ركعات معدودات هالك تسع زحلا للناس
قد ألفوه بعد كل صلاة . اذ يأوون الى ركن أو يلفون حول واحد من
أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل في خصوماتهم واسماء فصاتهم .

هنالك حلقات عدة على الفرب وعلى البعد . هذه حلقة مسعر بن كدام
للقرآن والحديث ، وتلك لابن شرملة يقضي ويصني ، وتلك لمحمد
ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى فاضى الكوفة . وتلك حلقات أخرى للشعر
أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعا . . يكاد
المسجد لا يحلو من درس ، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات في المسجد
الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادي الحالي كان الجامعات في العالم الاسلامي
هي المساحد الجامعة ، فهي الحرم السوي كان النبي صلى الله عليه وسلم
يجلس ويخلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفي الحرم المكي كان مجلس
ابن عباس الى حوار الكعبة أكرم المجالس . أصحاب الفقه عدة وأصحاب
القرآن عدة وأصحاب الشعر عدة يصدرهم كلهم في واد واحد . وفي البصرة
وفي الكوفة ودمشق وسرو والقروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التي
حلح عليها الاسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هي حلقات
الدرس في صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعراء فشتعل
محالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء في المسائل الفقهية والأدبية
والقصصية وما إليها .

ولم يعرف نظام انشاء المدارس لتدريس العلم خاصة الا في سنة ٢٨٣هـ
في بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفي سنة ٤٠٠هـ أنشئت مدرسة

نسابور ، وتلها مدارس قليلة لم تسع لطلاب العلم جميعا ، وعلى هذا ظلت
المساحد بيوتا للعلم كما هي بيوت الله .

كانت الى حوار تلك الحلق في جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي
حيطة العمان . لا يقبل اليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة
أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من اسفاره ، أي من صميم الدنيا .

في هذا الجامع جلس من قبل رھط من الفقهاء منهم حماد بن أبي سليمان
إلى أن وافته المنية في سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبي حتى
اختاره الله الى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس ابراهيم الحمي الى
سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد الحمي الى نفس العام ، وجلس عبيد
ابن عمر حتى سنة ٩٢ ومن قبلهم جلس علقمة الحمي عم الأسود وخال
ابراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفي الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ كما
جلس شريح بن الحارث الكندي نحو ثلثي قرن يقص ويصفه الناس الى أن
مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأحمع يفتي الناس ويفتي شريحا حتى
سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعا جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود
الى أخريات أيامه ثم ودع مجلسه الى المدينة حيث صعدت روحه الى الرفيق
الأعلى في سنة ٣٣ .

لم تكن حلقة أبي حنيفة كسائر الحلق بل هي كانت تشر المشكلات في
الداخل والخارج ، وتأتي كل يوم بجديد سحلي فيها طابع التطهر في الجسم
وفي العقل معا ، فلا يستعملون الماء اذا استعمله سواهم . ومن أجل ذلك
أبعد أتباع أبي حنيفة للوضوء حاضا داب صابر فسيب هذه الصابر
إليه (الحصيان) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال العر للماء والماء
المستعمل غير طهور عند أبي حنيفة .

كان سفان الثوري يصرح بحوار الوضوء بماء قد توصأ به العر فلما
سمع أن أبا حنيفة لا يحر ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول انه ماء مستعمل ،
فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال
لا يوضأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه الى قول أبي حنيفة .

فالحنفية التي تفتحها وتقفلها صباح مساء هي الذكرى المحددة لهذه الحلقة المتأققة في طهارتها لاترد الماء الا صنفوا من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات في العصور الحديثة أن حصاره المدن تقاس بما تشق به عدادات المياه وأن أعظم المدن حضاره أكثرها اسعمالا للماء وكانت الرابطة بين الماء والحصاره هي كالأصلة بين النظافة والماء ، فأى دور كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ١ بل أى طهاره ، وأى حصاره .

واذ كانت النظافة من الايمان فمن كأبى حنيفة فى نظافه وفى ايمانه ١ . من أجل النظافة يقول أبو حنيفة ان السواك من سس الدين ، ويصح الحمية بالاستناك عند كل صلاه ، ووصوء ، وكل ما يعبر الهم وعند البفظة من اليوم ثلاث مرات تلاب مياه ويسحسون أن يكون العود لنا لا يابس وأن يعسله المستاك قبل اسعماله ، وأن لاسناك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاه والسلام (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاه) .

رأى أبو حنيفة داب يوم على بعض جلسائه تبابا رثة فأهاب بصاحب الثوب ليفى بعد أن يفرط عقد الحصور ، حتى اذا صار الرجل وحده قال له ، ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال (خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك) قال الرجل ابى لسب أحساج البها وأنا موسر قال أبو حنيفة (أما بلعك الحديث » ان الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » فسغى لك أن تعبر حالك حتى لا يعصم بك صدقك) ١ . ولش دلت هذه العبارة على دور الفائل انها لصور لنا الصوره الحصية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الحديده بأن تسمى حلقة النظافه ، كما هي ولا مرأى حلقة الثقافه .

بلى . ان الله سبحانه وتعالى يحب أثر نعمه على عبده والناس كخالق الناس — سبحانه — يحبون أن يروا أثر النعمة على من حساهم نعماءه . والشباب الرثة لاتطمش ولا تسر . وما لا يعل شكله لا ينظر فى موضوعه ،

فالنفس تحصع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع . وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره . فقيم يفرض المتهاونون في مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القدي ١٠

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : أحمل معنا ألف دينار فاني أريد أن أمر بالأصمعي فإذا حدثني وأضحكني فضع الكيس في حجره ، ثم صار إليه فحدثه الأصمعي بكل شيء فلم يصحك . فقال له صاحب كان معه : انه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شيء قد أخرجته من بيت مالك قال جعفر . قد وصلنا هذا بحمسمائة ألف درهم . ولم أدخل له شيئا قبل هذه الدفعة ورأي حبة (الجرة الصحمة) مكذرا وعيله برنكان (كساء أسود) منجرد وتحنه مصلى وسخ وكل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه وأن ظهور الصبغة أمدح وأهوى من مديحه وهجائه ، فعلام أعطه الأموال اذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه .

فرع الشيخ من صلواته وتسيحاته ، واحتبى بطيلسانه واستند الى المحراب ، مشرو الديباجة طلق المحيا في بزته التي عهدناها وأقل الى الناس فحياهم وادا كان راجعا من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، وادا لم يك فاقلا من سفره فهو بين ظهرائهم يسهم في أمورهم وينعهم ويواسيهم ، فاذا شرع في الكلام انحفل الناس اليه مخلفين حلقاتهم ، يصفصون حوله صموصا صفوفا ، في رحمة لا تسمح للفنى الذى سيصر في الغداه اماما وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلسا الا فى الصف الرابع أو الخامس ، أما فى الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الأول ، الزملاء القدماء : اسماعيل بن حماد وأنا بكر الهشلى وأبا برده الضبى ومحمد بن جابر الحنفى يجلس معهم بين الفيه والسهة أساتده الحلق المحاوره ، مسعر بن كدام — آية الكوفة فى ورعه وحفظه ورهده — والحسن بن عمارة — أساد الحلقة القريفة — يحلسان مع أترابهم الى ذلك الذى لا ترب له . .

وهؤلاء فى الصفوف الأخرى . . أسماء لها حرس بديع فى الأذن رفر بن الهديل ، كان أبوه والى البصرة وكاتب أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه . . ويعقوب — فى من العامة سعرف فما بعد

(بأبي يوسف) - والماسم بن معن حفيد الرعيم المكري للكوفة
عبد الله بن مسعود ، عالم في اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا
أسد بن عمرو البجلي والوليد بن أبيان ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه
حديده داود الطائي الذي سرقى الى الذروة في العلم ثم يعرف كنهه في
الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاما ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من
ربه . وفضل بن عاص ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، ويوسف بن خالد
السمي ، ووكة بن الحراح ، ومالك بن مغول ، وحمص بن عتاب ، وعافيه
الأودي ، وعلي بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ،
وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة بن حمزة وستأتيك أنباؤهم بعد حين . .

وأخيرا وفي نهاية العمر ، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن حياه من
العاج ، تفدر ثروته ثلاثين ألفا ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على
الحق ، أبوا أن يصلوه الا أن يحفظ القرآن فغاب وعاد يقول اني حفظه في
سبعة أيام لم يكذب جلس الى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارها الشيخ الى
حوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيباني . . .

وهؤلاء وهؤلاء .. ياهزون الأربعين عددا . حلقه اسلامه بحق . فيها
الموالي والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المحلطون لأب
وأب مخلصين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطرح المندارسون المسائل ، فادا كان في الحلقة عرب
حاه وبدأ به فقال له هاب ما عندك . ويساطرون فلا يسد بأرائه بل
يطرح مسأله مسأله يسمعون فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا
كلامه قضايا مسلمة حتى يهملوه فيقول « لا يحل لمن يهمل من كسى أن يهمل
حتى يعلم من أس قلب » ويقول « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا
ناحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » . يريد تلاميذه على أن يتعلموا
الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية في العسكر الا اذا
مارسوها في العسر . ولن يتعلموها مع الناس الا اذا تعلموها مع الأساذ .
وهو عندهم خير الناس .

ومن ألف عام قبل أبي حنيفة قال أرسطو عن أساده أفلاطون : اسادى صديقى والحق صديقى فادا تازعا فالحق أولى بالصدقة •

روى شاهد عيان : كنت عند أبي حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه فجاء علام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأ يا أبا حنيفة فسكت ثم ألقى عليه أيضا فأجاب فقال : أخطأ يا أبا حنيفة • فلبس لمن حوله من أصحابه • سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجرىء شاب أو علام فيحطئه وأسم سكوت ! فالتفت الى أبو حنيفة وقال « دشهم فانى ود عودتهم هذا من نصي » •

بلى . وأية عصا صفة على العالم أن يخطيء أو يخطأ ؟ أليس على رضى الله عه يهول (كب لا أرى بيع أم الولد فى زمن عمر •• واليوم فقد رأيت ذلك •) ! وأبدي ابن عباس رأيه فى مسألة من مسائل المواريت بعدم حوازها (العول) وفل له • انك كنت تراها فى زمن عمر قال . (هته و كان رجلا مهسا ••) •

ذلك صسع العالم يراجع أمامه حجة العالم ، حتى اذا بلس له معايها عاد يصدع برأيه من جديد • والذي يرجع عن خطأ أمس الى صواب اليوم ولا يسمعه الا لانه اليوم حر منه أمس ! ورجوع عمر بنسبه عن حطئه كان مصرب الأمثال • فسم يشفق الشاهد على أبي حنيفة اذ يقول له الغلام مرة بعد مره أخطأ !

ولس كان يريد أن يعبر المعترض تعبيراً أخف ففهم ذلك أيضا ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها الا فى معارض النفاق . والنفاق لس من دروس أبى حنيفة • وادا لم تسم الأشياء بأسمائها فى حلقات الفقه وحلقات الجدل فأين تسمى بأسمائها الأتسباء ؟ ان الخطأ ليس الا الخطأ • يسميه كذلك الفائل الحر للسامع الحر • وما عدا ذلك دهان لا طائل تحه وافعال يصع الزمان سدى •

قال رجل لعمر بن الخطاب (اتق الله) • فأكر ذلك بعض الحاضرين •
فقال عمر « دعه فليعلمها لي • نعم ما قال • لا خبر فيكم اذا لم تقولوها •
ولا خير فسادا لم نعلمها » •

ان العظم الحق لا تضربه كلمة الحق • وانه لبدرك أن عظمه الى حوار
عظمه الحال كحاج بعوضه الى الحل العظم الكواكب • فلعل الحق أن
يجيئه من أي دره من دراب هذا الوحود أو أي رجل مهما يكن من الحصول
والقدامه ، وهو لن يستطيع أداء رساله الا اذا وثق من قدره الله على أن
يصلح الدنيا على يد سواه •

فيل لأبي حنيفة : لا يزال هذا المصر بحر ما أبقاك الله فيه فأجاب :

حلب الديار فسدت عر مسود

ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وفي أواخر القرن الرابع دعا الناس الفيروان على بن حلف المعافى
بأن الفاسى ليجلس فيهم معلما فأبى ، فهدموا عليه بابه اد أغلقه دونهم فلما
رأى ذلك خرج يشد .

لعمر أسك ما سب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد اذا افشعرب وصوح نبها رعى الهشيم

ثم قال . وأنا والله ذلك الهشيم . وبكى وأبكى ..

فادا سب من المناظر كلمه ، فما أحلم أبى حنيفة ا وادا تدهور صاحب
السخيمة الى الكلم الحارح فهو يهدف الهرم ، وسطح الطود الأتسم • قال
له الرجل يا متدع يا زندق • فقال غفر الله لك • الله يعلم مى خلاف
ما قلت ، وأنى ما عدل به أحدا مذ عرفه . قال الرجل : اجعلنى فى حل .
قال الامام (كل من قال فى شئنا من أهل الجهل فهو فى حل • • وكل من قال
فى شئنا من أهل العلم فهو فى حرج ، فان عبة العلاء تنقى شئنا بعدهم) .

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحدة أياما وليلالى أو شهرا أو أكثر من
شهر • فبدأبون على الدرس ويكبون على التحريج • حتى اذا فلوها بحثا

أثسها أبو يوسف بعد أن يتولاها المحول بالبول • أو التفت الشيخ الى من يكسب منهم فقال له (صعبا في الباب الفلاني •) ثم يشتعل الالاميد بحفظ ما تعلموه فادا أحكموه أخذوا في غيره ، وادا استعصب مسألة أوعلوا فيها وتوفروا عليها حتى اذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشارا وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر ! •

ابدأوا في مسألة الحيص وحاضوا فيها ثلاثة أيام منسابة بالغداقة والعشى فلما كان اليوم الثالث كبروا حميحا لله • وكان ذلك ايدانا بأن مسألتهم قد خرجت •

واذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال « اللهم لا تؤاخذني » ثم يهني •

وفي داب ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده ، فكلمه رفر في مسألة ، فجاريا يقايسان ، حتى نودى لصلاه المحر وهما فائمان ، فرجعا الى داخل المسجد • ورجعا الى المسألة ولم يرا لا على ذلك حتى استنقرب المسألة على قول أبي حنيفة .

تري لو لم يكن هؤلاء الموم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا يقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة في شرع الله انما هي سجدة من السجادات لذاته وتسبيحة بالآله •

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله — حل شأن الله — يولون وجوههم شطره في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة •

أليس الأسناذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال (من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ في قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المنبسون مه بعلمه) •

أليس هو الفائل لابعهم أبي يوسف (...) وان نصب عشر سنين من غير فوب ولا كسب فلا تعرض عن العلم فانك اذا أعرضت كات معشك ضنكا » (على ما قال الله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا • » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق والهام وعباده اد كانت تشكل

عليه المشكلة فيقول : ما هذا الا لذنب جيبته • فيستغفر الله • وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة ••

أجل وهو الذي طالما قال لهم (ان لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توقفوا) • وهذا الذي يقوله الشيخ لسلاميده هو الذي قاله رسول الله من قبل (أفضل العبادہ الفقہ) خرج صلى الله عليه وسلم فادا في المسجد مجلسا • مجلس ينعمهون ومجلس يدعون الله •• فقال « كلا المجلسين الى خبر • أما هؤلاء فيدعون الله تعالى وأما هؤلاء فتعلمون ونفهمون الجاهل .. هؤلاء أفضل • بالعلم أرسل » ثم بعد معهم •

كان الطلاب في الحلقة حشعا فلو بهم ، عالمة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل في عقولهم وألسنتهم سيما تكاد آدابهم تشر من عباراته ، وهو يكلم كأن ليس في المجلس أحد وكله فهماء ورؤساء ولكمهم سكوب حاصعو الرفاب •

قال زفر (اذا تكلم حيل اليك أن ملكا يلقيه ما يقول) ، فمن فاته من الدرس فكره ، أو صاع من وفه فمره ، فقد نصف عمره ، ان لم يكن كل عمره . مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفعه وتركه على جبراه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه .

ص أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير لبسبقي لنفسه ساعة من أبي حنيفة . ١٠٠ فأية حكمة تلك التي كان يهمل منها الموم وأنه يعسى هذه التي كانوا يؤثرونها ١٠٠ ان المرء لبعثر عن فهم ذلك من أبي يوسف الا اذا ذكر موقفا آخر له عندما احنمعت له أسباب المجد فكان أصبح تهدرا اذا كان أبعد زمانا ومكانا •• أيام كان معجزة بلاط الرشيد وأسنداه ، حتى اذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بملونين •

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال (وددت أن لي مجلسا من أبي حنيفة بصف ما أملك) فيل ، ولم تسمى هذا ؟ قال (في البص حرارات كب أسأله عنها) •

حقاً : كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين . شحنا ليس حاضرا ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ .
الكلام .

وفيل لأبي يوسف وهو قاصي القصاه : هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال (وددت إلى رهد مسعر بن كدام وفيه أبي حيفة) . قال الرشيد ما تمناه أكثر من الخلافة ولهد صدق الرشيد لأن ما تساه بعض خصائص الأساء ، وأين الخلفاء من الأبياء .

تلك الرهنة العلمية ورثها تلاميذ أبي حيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدن معا كمثل أبي جعفر السمي ، يبيت ليلته مهموما من صق البال ، وكثرة العسال ، فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويهوم ويرفض في داره ويهول أين الملوك ! وأساء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث .. فحبرها فحجب .

جاء الفزوي روجه وهو يلقي درسه فأسرب إليه خير وفاة ولد له شاب كان يحضر معه في كل يوم ولم يحضر معه في ذلك اليوم . فأمرها سجهره ولم يذكر للحاضرين شئاً ، حتى فرع من الدرس على عادته فقال ان محمداً دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبي حصة همرون جلس بلوتارك يلقي دروسه وبين سامعيه أورلبوس أحد عطاء روما . فدخل جدي رساله من الامبراطور الى أولسوس وجرع الحاصرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الروماني لم ينص الكتاب الى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم حشع في محرابه ، يأخذ عليهم ألباهم جلال الدرس ، جلس كل أساد أبا حصة أو بلوتارك ، والساعات التي تنحها العناية الالهية للناس اد يجلسون اليهما ليسب مما يسرف الفتى اللحن في انفاقه .

وفي بعض الأحيان يطول الجدل في الحلقة ، ويحتمل وتعالى الأصوات
بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم اذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو
ثعالب صبح بين النواويس

فاذا تكلم خفض الأصوات وتصح الآذان والأدهان فالحلقة فابون
غير مدون ولكنه في القلوب انه « اذا تكلم الشيخ فسمعا وطاعة » . لقد
جاءوا اليه وهم أحرص الناس على لمناه وسماعه • عالمين أن الفقه أرفع العلوم
وأولها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له ان في هذا المسجد حلقة
يظرون في الفقه • فسأل (هل لهم رأس ؟ قالوا : لا • قال . لا يفقه هؤلاء
أبدا) .

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ • وكيف تنظم الحلقة
بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام في صحبتهم ثم بصر بهم سكوتا كأن على رؤوسهم
الطير اذ أخذ الأسناد ينكلم فقال « ان رحلا تسكن عنده الأصوات لعظيم
الشأن في الاسلام • » لكن الاستاد يشرح صدره لجهارة تلامذه وجلبتهم،
فاذا نبههم الناس على أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال
« دعهم فانهم لا يفقهون الا بهذا » ١١

انهم لم يكونوا تلامذا الا لأن هذا الشيخ هو الأساد ، فلسوف تراه
الدنيا غدا فحولا دويهم كل المحول والافداذ لو شهدتهم حول أساطين
المسجد الجامع لحسبتهم في مؤتمر دائم لا يكاد ينمض •

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام
منا ثم قال • هؤلاء أفصل من الشهداء والعباد والمنهجين • • ثم قرب الى
المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء أرفعوا بالشيخ فانه مع ما هو فيه قد أقام
عشر ليل مواليت شهد الليلة الى مض منها • •

كان محمد بن أبي للى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد وكان كبير الشكاه من تلك الحلقة النى تشرح أقضييه ، لكه كان يتلمس فى الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأفضية ، وادا قدم ابن اسحق صاحب المغازى الى الكوفة جاره فى المسائل . أما مسعر بن كدام فيرك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة فنقول له تلاميذه . نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس الى أهل البدع؟ فحسب « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علدا » .

وادا سأل سائل عن العلم فان للعلم مكانة ، وللمصطفى وفارا لارما لاسحماع الفكر يسمع معه أن يصي فى عرض الطريق ، قال لسائله مرة « لاتسألى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو ذنم أو مكىء فان هذه الأماكن لايجمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احرامها وحياطها ادا حاء الى الحلقة تستفتيه فانه يهص اليها من وراء السارية فنفيها ، ثم يعود الى الدرس فيجبر تلاميذه بالموضوع وبالصوى ويقول عن الحجاب الذى صر به بينها وبينهم «انما غرضى أن أحصها من أحداق الرجال »

وادا قام من الحلقة عاد مريضا أو شع جسارة . بل انه ليحمل سرير الملب من تلاميذه أو أصدفائه — آية وفاء وتحة وداع — أما دار ابن حرير فالريح تحرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحس النزل أو يهوى المراح . فالرجل الذى يقسم حياته من يدي الله فى داره دأول الليل لايمص منه لومه الا قليلا ، ومن يديه أكثر الثمار فى سه يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الصمى فى سبيل العلم وفى سبيل الله ، اما هو رجل قد طبعه الجود والرهف والعبادة واشتدته خلال رساله الى يحملها للناس ولهذا لم ير مستجمعا ضحكا وطء ، وان كان يبسم لما يفهمه له الناس ولما ترون الضحكات من جرائه . .

والهمة لسب على كل حال من خلائق الساده .

امد ضحك مره فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوما . . . كان ذلك يوم فاطر زعيم المعبراه العظم عمرو بن عبيد الموفى سنة ١٤٤ ، والذى كان

يظن الجد فسماته وحركاته حتى لبظه الرائي قد أقبل من دهن والديه ، واداً
تكلم حسبت الجنة والبار لم تحلما إلا له ، ناظره أبو حنيفة في فوته ، فطهر
به فارداهاه الظفر بأنه أفهم الزعيم العظيم فضحك ، فرشمه عمرو بصاصمة
الظفر قال : يا فسى تكلم في مسأله من الشرع وتصحك ! والله لا أكلمك بعد
هذا أبدا . قال أبو حنيفة . فاططع الكلام سنى وبينه رحمه الله وقال انه نادم
على ما فرط منه أبدا . . وهكذا عاقبه الله على ما ارداهاه وما اساق الله
من المغالاة .

وانه ليلقى درسه في المسجد داب يوم فادا بحيه تسقط في حجره وهرب
الساس ، فما زاد على أن نفص الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس ،
واخلعت أفئده الفيان وولوا فرارا وملئوا منها رعبا أما هو ، والحية قد
سقطت في حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستقبها عنانه ، كأن لم يهبط عليه
الموب الأرقط أو كما قال ولده حماد (فلا والله ماتخلخل ولا تحول من مكانه
ولا تغير . ثم قال : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » وأحدها بده السرى
فرماها بعيدا عنه) .

ذلك مظهر لموه النفس ووقار الدرس لكأنه اد يحلس اللامد من
يديه يسجد في المحراب بين يدي الله .

ولو كان المفاجأه قد راعه لما شاهه الارتياح للبغبات والمجاءات .
لكن سموه على طيش المجاءه قد راده كرامة ، وأصغى على ذلك الفضل أنه
لم يخذ في وقاره وضعا مسرحيا ولا مدرسيا بل اسمر في درسه كأن لم
يقع ما يريب .

اقتحم الخوارح مسجد الكوفة في احدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة
وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا ترحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم
وقالوا لهم . ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره « نحن مسجرون » ؟ قال أمر
المعريين : دعوهم وأبلغوهم مأمهم واقروا عليهم القرآن . فقرأوا عليهم
القرآن وأبلغوهم مأمهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحميه من حبطة معسفة ، ولو أمكن الله الخوارح منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلك هذه العصه لهلك معها علم كثير ولتأثر مضاير الفقه .

وهكذا جرب على لسان أبي حنيفة تلك الوثقة الفكرية الباهرة من وثبات الارتحال ، وجرب في حلد أمر الحوارج نسمة من سمات التفتح الروحي ، وتذاكر المحاوران في صمت قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الحوارج عن سبك الدماء ، وسما أبو حنيفة في العبر عن أن يقول : انهم (مشركون مسجرون) كما قالها رعم المعرلة واصل بن عطاء اد هم الحوارج برأسه فعصم منهم رأسه ونفسه . لكن أباحنيفة يقف وما في الموب شك لوافف ، فصيب في العبارة والاشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات .

كان يرتفع نفسه عن فضول الكلام ، وامد الوفار من داته الى عباراته ، وإذا حلف صادقا في عرص كلامه تصدق بذرهم ا ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين ديارا . .

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبي حنيفة خمس سنين وما رأيت أطول منه صما ، فإذا سئل عن الفقه تصح وسال كالوادي وسمعت له دويا وجهارة في الكلام » . ولبس يرجى عبر ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد . يقرأ القرآن في كل وقت ، ويبرز في حلقات المكلمين في صدر حياته حتى اذا بلغ عصفوانها قضى عليه القدر أن ينهض برسالة من الرسالات النى تدين لها الحصاره الاسلامية بأسباب الناء .

والجهاره والدوى ، والسلاسة والندفق ، وحسن الالفاء - كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة الى القلوب ، مثلما هي حواز المرور للكاتب والعالم والخطب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » الى « شيشرون » الى « اس أبى طالب » الى (مرابو) ، وفي « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفي أسواق (عكاظ) و (مجنة) و (ذى المجاز) و (مكة) و (المدينة) و (العراق) و « مصر » ، وفي قصور الأمراء ، وفي رمال الصحراء ، وفي محافل باريس ولندن وفي كل مكان .

وسيبقى ذلك شأن البيان في كل زمان ، والناس ، دائما هم الناس وكلما
غير الزمان وجهه أظهر للديا وجهه نفسه بأعباره وحها جديدا .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيهاها لدى العلماء والبلغاء فالعلم لا ينبع
من القلب الا عند اسجمام فصله واسجباع عموه .

سئل الشافعي عن مسألة فسكت ففصل له . ألا تحب رحمتك الله ؟
قال « لا ، حتى أدري أين الفصل ، في سكوتي أم في الجواب » .

من أجل ذلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الحائف (ورأيه لا يدفع
بالهويا) كما يقول الشافعي (ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لمام
بحجبه) كما روى مالك كانت كلماته فطراب من البلور المذاب تهب عليها
صفحة من مطوى الرسول الذي قال عنه أم معد (كأن مطفه حرراب نظم
يحدرن) .

والحصاة الفكرية لا يسر لها الحو الصالح الا بالحلو الى الصن
بالسكوب ، أو كما قال ابن المقفع (ربما كات البلاعه بالاسنماع) . والذي
ينحدث حديثا صالحا لا يتحدث الا لداع ، والحديث كالماء يحد لون الوعاء
فادا ألقب به في عر مكانه أو في عر أوانه أو أدلب به الى صسرحامد
أو شعور بارد، كان لالونله ولاطعمفه وهو السلسل العذب ، بل انه
انغص به التبار وتفهيمه عن الرائي .

وقا أدلى أبو حمزة بذا ب نفسه فهو يدلى بها حت يجبل الادلاء ،
ويحدر الافاء ، وبصدع برأيه حت تعرك الآراء ، وعدئد سسل كالسسل
ادا اجتاح حساب الوادي .

قال « لا تحدث بفهمك من لا سسفه فتؤذي جلسك » ومن قطع
عليك حدثا فلا بعده فانه فليل المحبه للعلم » . وقال في احدي خطبه .
« ان الكلام كثر ومحكسه يسر وان الكلام لا سسهي حتى يسهي عنه وان
حير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبي يوسف وهو بمحصه الصيحة .
« من حاءك سسفسك في المسائل فلا تحب الا عن سؤاله ولا تصم اليه عره

فانه ينشوش عليه جواب سؤاله .. ومن ناقشتك من العمامة والسوفة
فلا تافسته فانه يذهب ماء وجهك ..

على هذا النحو ظلت حلقة أنى حيفه ثلاثين عاما بعد في مؤتمرها
الدائم لشرح المسائل الفقهية واسسائط أحكامها ، ينلعون المسألة فمسمونها
أقساما ويولون كل قسم أناما وليالى بالتحليل والعليل ، حتى اذا معدوا
قواعدها راحوا يصرصون الفروض الى قد تقع في المسئل ، وتداولها
أدمنغهم كأنما تساولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسه ، فخرج أحكامها
على أيديهم كالحيين الحي .. وأسررت موجه الافسراض والصرع فان
ما لا تكفى فيه البصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان .
(اذا أعمل العالم لا أدري أصيب مفاصله) فان حلقة الكوفة كانت تعرف
هذه القاعده ولا تحتاج اليها . ومع ذلك سلبت مفاصلها . ذلك بأن الأسئلة
لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعصاؤها كثر . ولم
يكن الجواب يصدر فور البديهة وانما يصدر بعد البحث في المؤتمر ولم
يك ولبد الفكره وحدها وانما كانت تطبق عليه فوائين وضعوها فكيف لا توجد
القوايس الموصوعه ، والعمول الدائنة على البحث ، حلولا للاشياء . ان
الضعف الاساسى يحمره طول المران والاسان والنعاون والاخلاص . ولقد
أخذ الله المبثاق على العلماء لسس العلم وانهم لفاعلون .

ذكر دأكر أمام أنى حيفه قول الشعى (لا أدري نصف العلم) فرشقه
بكلمه لادعة قال : (فلعلمها مرتين لسكون له كل العلم) ١ .

وحرى حدثت هذه الدروس في شه الجريره وفي العالم الاسلامى كافة،
وتشارك الخمس والخمسون حجة الى نهم فيها شطر المسجد الحرام بمكة
ومسجد الرسول بالمدييه في اداعه أنائها ، فالشيخ في مكة والمدييه في كل عام
تقريباً يباظر ابن حريج فمه مكة ، والأوزاعى فقيه الشام ، واللت بن سعد
فمه القسطاط ، بل اللب يعمل على الخروج للصح اذا خرج أبو حنيفة
لساطره .. والنسخ يجلس في المسجد الحرام يمسى أهل المشرق والمغرب ،
وكبار الناس حضور ، لا يرى أصر منه على الطواف والصلاه والصبا بمكة ،
وهو كل الليل والمهار في طاب الآحره حتى لمد شوهده عتير ليلال لا يهدأ

الليل ولا ساعة من بهار من طواف أو صلاة أو تعلم • والساس يزدحمون حوله في المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيئهم ويمسيهم كأد المسائل في كنه بحرهما فيساولها إياهم في أدب يأسر القلوب ! •

كان يصي يوما فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق امام الشيعة - الذي قيل انهم رويوا له ••• كتاب - ففطن أبو حنيفة له فقام وقال . (يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رأيته الله أفعد وأدب قائم) قال له : (احلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي) •

وفي مكة اصاح الوالى الى شرط يكتب له فعال لاس شبرمة وابن أبى ليلي : اكتب فكان اذا كتب هذا شيئا أفسده هذا حتى اذا قدم أبو حنيفة على الامير قال الامير اصحنا الى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبى ليلي فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدر أن يقول شيئا • وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء في ساعة فكتبه • قال له صاحبه : (لا تقل الحائك فان الحائك عدى من لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويسنروح الى سب العلماء) •

فاذا ذهب الى المدينة لقي زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لا يكلم أحدا الا قطعه ولكنه يرفق اد يكلم مالكا كانا يتدارسان بعد العشاء في مسجد الرسول حتى اذا وقف أحدهما على القول الذى قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تحطئة • ولا يرالان كذلك حتى يصليا العداة في مجلسهما !

قصدا يوما الى الحرم النبوى معا ومالك قابض على يده بمتسان فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله . وكان مالك يجلس سميان اثورى دون المجلس الذى يجلس فيه أبا حنيفة • ولا عجب فان سميان كان يقدم أبا حنيفة ويمشى خلفه ، واذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذى يجيب •

ومع ذلك كان أبو حيفة يرهق مالكا بحجابه . قال الامام الليث :
(لقيت مالكا في المدينة فقلت له : انى أراك تمسح العرق عن حبيك . قال .
عركت مع أبى حيفة . انه لفيقه يامصرى . ثم لقيت أبا حيفة فقلت ما أحسن
قول هذا الرجل منك . فقال أبو حيفة : ما رأيت أسرع منه بحواب صادق
وقد تام) .

ومع ذلك كان مالك يقول « ما أحلمه » . ولولا حلم أبى حيفة عليه
لما تركه يفسد عرقا !

ترى أية لحظات في تاريخ الاسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة
من سماء الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب في حوار النجم الأكبر الذى
ما يزال يبعث شعاعه الى الوجود الانساني ! امام مصر ، وامام دار الهجرة ،
والامام الأعظم ، في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم !

فأى رجال .. وأى خيال ..

وهكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ في اتساع
الدائرة واشتهار المدرسة .

هذا رسعه بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد امام
مصر ، ومالك ، والأوراعى ، وابن جريج ، وجعفر الصادق ، وابن اسحق
صاحب المعارى ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى ،
وابن شبرمة ، والحسن بن عماره ، وحمزة المقرئ ، والجرجاني عبدالكريم
ابن محمد ، وقناده المحدث ، وحماد بن زيد امام البصرة ، وأبو مقاتل
السمرقندى ، وخارجة بن مصعب امام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر
ابن كدام ، وعمر بن در ، وعمر بن عبيد ، هؤلاء الرعماء المكيون
وكثرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الاسلامة بالسور وكانت لهم مع
أبى حنيفة مقابلات تلاميذ فيها أضواءهم وآراؤهم بأصواء الكوفة وعلومها
بين الحين والحين ، فكانوا يرون في بريق الشيخ وصفائه شائر الفجر الطالع
أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم في الكوفة
أو في البصرة أو في مكة أو في المدينة خلاصات التفكير الاسلامي في كل

أرجاء الامبراطورية الاسلامية الى دراساته ، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعها
بالطابع العالمى الشامل • حتى اذا جادله سعيد بن أبى حنيفة قال :
يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفارق من قوم تنى وجدناه عندك حملة ١ » •

حقا لقد انتهى اليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ
ما فاب من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتسنعرض من تلفوا
عنهم من الفحول ، لنجتمع لديك المائمة الذهبية بسابع الفقه الاسلامى
وروافده لاتكاد تقص شيئاً . تلتقى تياراتها فى مدرسة الكوفة مبعاً
أو مصباً ••

لقد كان رمز الفصح الفكرية وكان العراق بعة الكور المباركة ، فيها
أسلمت دولة بى أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة
المفكرين روحاً جديداً أمدها بأسباب الحياة •

الباب الرابع

العفو

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

قرآنہ کریم

ارتفع الفكر الاسلامي في هذه الحلقة الى اسمى ذرا الادراك ، سيما
كان العالم المعروف يسدر في جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأسناد
الفرد ، بما لم يجيء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء في الشرع
أو في الغرب ، يشيع في الناس مفولاته كما تشاع الأنوار معلما آيات التسامح
واليسر والحرية . تسامح بين الانسان وأخيه الانسان ، وتسامح بين
المخلوق والخالق ، ثم حرية في الآراء والأشياء لا يحدّها الا العقل والعدل
وعماره الدنيا .

حرية في الدنيا ومغفرة في الآخرة اذا تحفّفت أولاهما وفام الأمل في
أخراهما كانت الحياه جديره بأن نحيّاها والآخرة حقيقة بأن نرجوها
ولا نخشاها — فليس الحياه نكالا للأحياء ، ولا الآخرة جحيما مروعا ،
وانما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقطوا من روح الله ، وألا يأسوا من
مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال « رحمة مهداه » ما خسر
من أمرين أحدهما أيسر الا احار ما هو أيسر . وان لنا في رسولنا الأسوة
الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد في حق نفسه ، الرفيق في حق الناس ، اذا حبر
بين السسر عليهم والاعاب لهم فان حماره في السر بلا مرء .
فعيّدته في الايمان أنه يسم (بالصديق بالقلب والافرار باللسان بالله
وملائكته ورسله واليوم الآخر) .

فادا صدق قلبك بالله وأقررت بايمانك بلسانك فلهيك أنك مؤمن
ولا نأس على ايمانك اذا لم تفهم بالأعمال التي أوجبها الدين أو النى دعا اليها،
أو اذا ارتكبت وررا غير الشرك بالله سواء أهملت العروض كالصلاه والركاه
أو عمل الخير عامه أو ارتكبت المعاصي .

وإذا ارتكبت الانسان كسره من الكسائر — كالفصل أو الرنا أو السرفقة
ولا يهمل الأمل في عفو الله فهو اذا استغفره قد يعمر له ، ولا أحد يستطيع

أن يتيقن أن الله معذبه عليها بل هو ما زال من المؤمنين (ان الله لا يعفر أن يشرك به ويعفر ما دون ذلك لمن يشاء) •

بل ان الأجل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأساذ (أفضل لحصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والآخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة •• والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة .. وجميع ما أمر الله به من فرائضه في جنب الاقرار بهذه الشهادة والصديق بها أصغر من البيضة في جنب السموات السبع والأرضين السبع ••)

أما الشرك فظلم عظيم لا يغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان •• ومن قال لا اله الا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله •

وعسى الله أن يتوب على الناس •

ولس (خلق الانسان ضعيفا) ان عليه أن يعمل صالحا في الدنيا ويتوب عن الخطايا مسبقا على نفسه نعمه الايمان آملا في الغفران يوم الحساب •

تلك مغولات أبي حنيفة وهذا تسامحه ، في حين كان الحوارج يقولون حول الكوفة والبصرة وفي كل مكان انه لا ايمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، شرك الصلاة كفر ، وعدم الصيام كفر ، ولا ايمان لمن صنع ما نهى الله عنه • فالضل كفر والزنا كفر ، وأما المعتزلة فكانوا يقولون ان من لم يعمل بما أنزل الله فاسق : لا هو مؤمن ولا هو كافر ! في حين كان هؤلاء عند المعتزلة والحوارج فسمة أو كمارا ، كانوا عند أبي حنيفة مؤمنين يجمل الدعاء لهم ، والرجاء فهم والأمل في أن ينوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل — وهم جماهير المسلمين غير المعصومين — وعلى ذلك قال مفولنه الجامعة (أهل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الايمان ترك شيء من الفرائض) فلا كسرة مع الاستغفار . والله لا يضع أجر من أحسن عملا •

ولم يذهب مذهب جهنم بن صفوان في القول بعدم وجوب الاقرار بالايان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة • ولم يذهب مذهبه

في الجبر وهو قوله ان الانسان مسر لا محتر محكوم عليه بأعمال الطاعة
أو المعصية بل كان يقول (لا حر ولا تقيص ولا تسلط . والله لا يكلف
عباده ما لا يصفون . ولا أراد منهم ما لا يعلون . والله أعلم بما يحسن فيه .
والصواب الذي عنده . . . ويحسن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب) .

ذهب مالك والشافعي وابن حنبل مذهب أبي حنيفة في أن ترك العمل
بالأوامر الدينية لا يكفر المؤمن ، فالباس يعاملون تارك الفرائض ويروحوه ؛
ويرث منهم ويرويه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا ان الانسان يهوى
على البصديق والافرار والعمل أيضا ، فانه داخل في الانسان ، ثم قيل ان
الانسان باق مع فوات العمل ، مع أن العمل لو كان ركنا واسمى ، اتمم
الايان ورأى .

ومن أجل ذلك راح بعض بصير العمل فقال ان من أحزاء الشيء -
ما لا يعدم الشيء بأعدامه كالشعر والبد والرجل للانسان والأغصان للشجر
وإذا أعدم شيء الجسم حيا ، وقيل ان العمل تفره الايمان تسعه ويوانع
الشيء قد نطق عليها اسمه على سسل المجار ، وراح بعض آخر يقول ان العمل
المطلوب . . هو عدم العمل . . أي عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود
للأصنام . أما ابن حنبل فقال بكفر تارك الصلاة دون غيرها من الفرائض .

ويرى أبو حنيفة أنه لا تناوب بين الناس في الايمان لأن الايمان لا يريد
ولا يقص ، لا يزيد بعد اد كمل ، والريادة ليست اتماما للايمان لأنه من
دونها بلغ الكمال وهو سم سجد أن صدق المؤمن بالله وأقر بايمانه .
ولا يريد اذا تكرر الافرار .

فلا تحف اذن منافسه الناس في ميدان الايمان ، ولا تحف ترويه .
فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدن لله . والعمران مأمولا منه فهم يقول الناس بكفر
الناس ان ذلك كله مبروك له سبحانه ، وإذا كان اللارم في الانسان الافرار
والصدق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرحاً الى يوم الحساب .

وعلى المسلمين أن يظروا في أمورهم وأن يذكروا الله في حساباتهم
ولا يعرضوا للفس .

ولذلك فليس من رأى الأساد الحوض في أمر قتله على وعتسان فملك
دماء طهر الله منها يده — على حد تعبير الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز
لما سئلا عن فلى صفيين — فلبطهر من الحوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم
أى الفريقين كان على صواب . أو كما قال أبو حنيفة عمن يحطئون من
المسلمين عموما » . . . لكنا نرجو لهم ونحاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى
(خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) حتى يكون الله
سبحانه وتعالى يقضى سهمهم ، وانما نرجو الله لهم لأن الله عز وجل يقول انه
لا يعمر أن يشرك به ويعمر مادون ذلك لمن يتساء . ونحاف عليهم بدووبهم
وحطاياهم) .

ومن أجل ذلك نسوا اليه (الارزاء) وهو ما يترجمه المشرفون
بالفرنسية (بالأجل) وفي الإنجليزية (ترك الأمر لله وحده) .

كان بالمسجد يوما فدخل عليه طائفة من الحوارح شاهرين السوف
فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألين فان أحب نجوب والا فتلماك . قال :
أعبدوا سوفكم رؤيها يشعل فلى . قالوا وكيف نعبدها ونحن نحسب
الأجر الحريل باعمادها في ربيك ؟ قال سلوا ادن . قالوا حمارتان بالباب
احداهما رجل شرب الخمر فمات سكران والأخرى امرأة حملت من الزنا
فماتت في ولادتها هل التوبة أهما مؤمدا أم كافران ؟ فسألهم من أى
فرقة كانا ؟ أم اليهود ؟ قالوا لا . قال من البصار ؟ قالوا لا . قال :
من المحوس ؟ قالوا لا — قال منى كانا ؟ ولوا من المسلمين قال فد أجسم .

قالوا هما في الجبه أم في النار ؟ قال . أقول فبهما ما قال الحليل عليه
السلام فيمن هو شر منهما (فمن تعصى فانه مى ومن عصانى فإلك عفور
رحيم) وأقول كما قال عسى عليه السلام (ان تعدبهم فانهم عبادك وان تغفر
لهم فإلك أب العرير الحكيم) .

فكسوا الرؤوس . . وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجذاله القوى الاعتراف بأن مرتكبي هاتين المعصيتين مسلمان • وأضاف أن الله يغفر لمن يعصى رسله ، فالعصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد في جملها وتفصيلها وما يزالون •

فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، في وقت كان الشك فيه في الايمان مهددا للدماء •

أيا ما كان الرأي فان لأبي حنيفة - وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة - هذه البد العليا على المسلمين اذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المقينين منهم ، ولم يقض على أمل غير المنقين في يوم الحساب ، وبهذا حبيب الحياة للأحباء ، ولم تحتوتهم زبانية العذاب في الحياة الدنيا ، قبل أن تسفلهم بالمعفرة ، ملائكة الرحمة في الحياة الآخرة •

وبعد فما هو طابع فلسفة أبي حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذي يحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذي تديره في بساطة فتتمكن من كل ما وراءه ؟ ••

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية هو التيسر ، والتسامح والحرية •

حرية وتسامح وتيسر بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس ، وفي الأقوال والأفعال والاموال • والعبادات والآراء • وفي البيع والشراء • وفي كل الاشياء •

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يوما لماذا قضى برأى أبي حنيفة وقد كان يخالفه فبه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ما عنده •

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدونهم على أن يخرجوا ما عندهم لنفوس شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوعهم •

ففى ذاب يوم انتهى معهم الى رأى فى مسألة — وكان تلميذه عافسة
الأودى غائبا — فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لسمع رأيه فيها •

ولس كان أفلاطون قد علق على باب مدرسه (لا يدخل علينا من ليس
له عقل هندسى) فان أبا حنيفة طالما قال (اللهم من ضاق با صدره فان قلوبا
قد اتسعت له) •

ولقد طالما قال (علما هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) •
افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس الى أن
بودى بالظهر ، فكان اذا قصى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت
ما حجبك ؟ فيجبره حتى كان آخر ذلك أن قصى لأبى يوسف على زفر عندما
بودى بالظهر .. فصر ب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال لا تطمعن بالرياسة فى
بلد يكون هذا بها ••

وبهذه الحرية التى كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم
بذاته ، فمكث للمدرسة أسباب الجراح • قال رجل : أخطأ أبو حنيفة •
فقال آخر : كيف يخطئ ومعه أبو يوسف وزفر ؟ تم عدد بقية من التلاميذ
وقال . من كان هؤلاء جلساؤه لم يكذب يخطئ لأنه ان أخطأ ردوه

وكثيرا ما تجد فى المسألة الواحد أربعة أفعال لكل من أبى حنيفة
وأصحابه أفعال فيها وقد ترجع آراؤهم رأيه •

فى هذه الحلقة كان الأساد يقول مد أكثر من ألف ومائى عام ما لم
يعلمه الناس الى اليوم فى إنجلترا وفرنسا وما يزال فيه المذاهب الباقية
يعارصه — ان من حق المرأة أن تجلس على كرسى القضاء •• قاضية فيما
تقبل فيها شهادتها ••

كان يقول ان من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها من ترغب .
بكرها كانت أم ثرا ، دون تدخل ولها ، لأن ذلك تصرف منها فى خالص حقها
— ولس كان لولبها حق الاعراض فى حالة عدم كفاءة الزوج ، ان أبا حنيفة
يصد هذا الحق بعد جوار استعماله اذا حملت الزوجة حملا ظاهرا أو ولدت •

وكان يهول ان الكبر البالغه لا يحور لأحد أن يحسرها على الزواج
بنسبنا تحسره المذاهب الأخرى •

في هذه الحلقه كان التسخ الجليل يهول ما يعرّد به الابلجلىز اليوم
فى ترائعهم من أن الحجر على السفيه أو دى العقله عر حائر لأن فى الحجر
عليهما اهدارا لآدمسهما . سيما يرى عره الحجر صباه لأموالهما تحكسا لهوله
تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم اللى جعل الله لكم فساما) - أما أبو حنفة
فبشرح رآه بأن مالك المال اسنان حر نال عاقل مكلف بكل السكالف
السرعيه ، ولم سقط عنه شىء من الواجب فكيف يسع عنه ماله ا وادن
قالص يريد أن يكون مع المال عنه تأديا له ، والاسنان فى أول أحوال
البلوع قد يفارقه السفه لفره من رمن الصا ولكن بعد تطاول الرمن به
لاند من أن يسعد رشدا فحسبه حبس ماله عنه حتى يصل سه الى
حسن وعرس

أما عن الحجر على السفه بعد البلوع رشدا فصول • لا أحرر عليه لأن
السن اسا ورد سع ماله عنه لا بالحجر عليه فى الصرافات وأما فاس
الحجر على مع المال فهو فاس الأعلى على الأدنى . اد عاه مع المال عنه
انطال نعه رائده والحافه بالفراء ، والفقر لا يلقى الاهله ولا الانسانه ،
أما الحجر عليه فهو العاء عباراته بعدم ترتب آثارها عليها ، وفى هذا انطال
ولايه وأهليه والحافه بالبهايم ، وتحريره من نعه أصله من أكبر النعم
وأجلها وهى السان الذى يمار به الانسان عن الحيوان

وامدت طلال الحريه عنده فعدت مظفه النعه الى عالم الافساد
فلش كان العلماء المحدثون قد دفوا الطول لحريه الحصاره فى العصر
الحديث ، ان مبادئهم لم تكن خافه على أسد الكوفه ، الذى يأبى الدحل
فى فابون العرص والطلب ، ولا يحبر السعر الجبرى على الناس ووجه
قوله كما روى التسافعى هو « سد باب الحكم على الناس فى أموالهم اللى
لهم حق الصرف فيها كف شاءوا » . قال عليه الصلاه والسلام (لا تسعروا
، فان الله هو المسعر الفابص الباسط الرارق) والتمس حق العاقد اله تقديره .

ولا يسعى للامام (الحاكم) أن يعرض له الا اذا تعلق به صرر للعامه ، لكن
الأساد اد يعرض على أن ينحكم الحاكم في أتيان العروض يعرض على أن
ينحكم أصحاب العروض في العروض ، فلا يسح احكار الأفواب ، اذا أصر
هذا الاحكار بالناس أو صيق عليهم .

ولا يصرد الناس بعظمه على أفواتهم بل يتسل عطفه فوب الحواد .
فلك حاله دفاع عن المصلحه العامه يفصل فيها النظام على الحريه كما
يفصله في حاله الفسه فلا يسح بسع السلاح حشيه الأدي .

وتناهب به الحرة الى أن أصبح عدو الفبد حبتسا وحد القند و
ذلك ما ذهب اليه في نظام الوقف باعباره فبدا لحريه الناس في تداول المال .

فلقد ذهب الى حد المول بطلابه ومن سبوا اليه أنه يجزه فرروا
أنه يجزه في ثمره العين الموقوفه لا في العين نفسها ، فانها لا تحرح من ملك
صاحبها وتؤول الى ورثته بعد مساته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيحوز به
أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه في شأن الثمره كلروم الدر ، يسعى به
من بذره نواب الآخره ، ولا يسكن احاره عليه ينحكم الفصاء

لكأسا كاب بصيرته تحرق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأي
الحى الذى تأوى اليه أفنده الناس بعد فرون وفرون

ويطول بنا السرد لو رحا نفصى وفائع اليسر في تفكر أى حصه
فلمنصر على بعض الامتال .

بين الكتاب العرير فرائض الوصوء حت فال « يا أيها الدين آموا
اذا قسم الى الصلاه فاعسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا
برؤوسكم وأرجلكم الى الكعين » .

فادا طوى أبو حصه هذه الآية لم يحملها عبر ما حبلت من العروض
الأربعه وهى غسل الوجه وغسل البد ومسح الرأس وغسل الأرحل .

أما غيره فقالوا ان على الموصىء أن ينوى أنه سينوضاً قبل أن يتوضأ .
وأنه اذا غسل عضواً قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن
ينوى . أما هو فلا يجعل الية فرضاً ، وعنده أن الرجل اذا دخل الماء
فصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحب صلاته ، لأن الصلاة تتوقف
على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا ان على المنوضىء أن يسبح ترتيب الآية . الوجه فاليد فالرأس
فالرجلين ، أما هو فلا يرى ذلك فرضاً .

وقال فائلون ان على الموضىء أن يتابع غسل العضو بغسل العضو
الذى يليه قبل أن يجف العضو الذى تم غسله . لكنه لا يرى ذلك فرضاً .
ولا كراهة عنده اذا لم يتابع الغسل فربما ينسى المتوضىء . ولربما يفرغ
الماء فيعمد الى احضار غيره ويحلف في ابان ذلك العضو المغسول .

ويما يقتص الوضوء في المذاهب الأخرى بمجرد لمس الساء
والأحشيان ، بشهوه عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض
الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا يقتصه اللمس وانما تقتصه المباشرة
الفاحشة ..

تلك نظرات الأسناذ المسماح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم
خطر اعاده الوضوء في كل وف ، وخطر فراغ الماء ، في أزمنة وأمكنة لم يكن
فيها الماء ميسوراً كما نجده الآن .

وكما يسر الأسناذ على الموضئين يسر على المصلين .

فهو لا يكلف من يصلى بأن يرفع يديه اد يفتح الصلاة ، وهو يحبز
أن تفتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجبية وان كان المصلى
فادرا على السطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه
وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط في الافساح لفظ الكبير نفسه ،
بل يصح بالسببح كقول المصلى « سبحانه الله » أو بالتهليل كقوله : « لا اله
الا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية مع فدره المصلى على قراءتها بالعربية — ولو أنه قيل انه رجع عن ذلك الرأى .

وكما يسر على المصلين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية « ذاب الأربع ركعات » وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكف بسجود ذلك لهم كفراه بل أوجب عليهم التيسير ايجابا .. وحقيقة مذهبه فى ذلك أن الله لم يشرع فى السفر الا ركعتين فلا يلزم المسلم أن يصلى أربعاً ، ولو نوى أن يصلى أربعاً لا يقع فرصاً الا ركعتان والباقي نافلة

وتجاوز التبسر عنده العبادات لينجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد انعكس أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا (المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً) وصار « العادة محكمة » حتى اذا عمد تلميذه محمد الى وضع أحكام الصبغة لم يقصر على تطبيق قراعد الفقه بل قصد الى الصباغن يدرس معاملاتهم بين ظهرايهم .

وتوج الأسناذ سماحة الرأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . اد كان وهو التاجر العريض الثراء يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه الا قدراً محدداً (أربعة آلاف درهم) هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقاً لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرناً . وأضاف الى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يحصى بماله تلاميذه ، بل يشرك فى أمواله الناس جميعاً ، معلماً لهم أن ما يصيبونه منه ليس الا حقاً لهم وان كان الله يجريه على يديه .

كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث واليك بعض الامثال :

فالنوايا في فهمه كالبواعث في الفقه لبسبب هي الأسباب . والأحكام تبني على الأسباب لا على النوايا لأنها لبسبب ظاهره . فإذا ساءت النية وظل حافيه ، وحسن السبب وبرر للأعين ، فإن النصف يصح شرعا في أمور الدنيا . وبهذا تجري الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى البين لا على الريب . وعلى الحرية لا على الحكم .

وان من فواعده أن البين لا تريله التوك .

فإذا كان رواج المعة محرما سرعا لأن المصود به استماع الرجل بالمرأه مده من الزمن على غير ما يرمى اليه الرواح الصحيح من ارتباط الروحين رباطا أبديا فقد ذهب البعض الى ابطال الرواج اذا كان قصد المنع منه مصمرا عند العقد لكن الأساد يرى البحت في النوايا محطره بكسها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار . وإذا كان قصد المعة خافيا عند العقد حكيف يأكد منه الناس ؟

ولهذا أباحه وان نوى الرجل أن ينسى رواحه مده نواها ما دام لم يذكرها في العقد

ومن الأحكام الشرعه أن المرأه اذا طلبت طلاقا بهائنا لم تحل لروحها حتى تروح من سواه ثم تطلق منه يريد الله بذلك أن يهدى أنفس الناس وسن لهم أن الطلاق أبغض الحلال اله فلا يسعمل الا عند انقطاع الأسباب . وأن على من حارف بالطلاق يدفع مثلما يدفع فرف حبه الرواح الباني والسريخ من الزوج ، وقبل الروحته أن تعود اله ، وهي احسالات آخرها أعسر من أولها ، يسفل فيها المطلق من مجهول الى محاهل ، بعذبه فكره انفعال الروجه على هذا النحو الذي تفرع منه الطسعه السربه .

ولكن ما القول اذا اتفق (الطرفان) والروح الحديد على أن تكون الرواح الحديد طريقا للوصول الى الرواح القديم وأن الروح الحديد لس الا (المحلل) الذي يعتمد على المرأه فسروحه على أن يطلقها لعود الى الروح القديم .

هل يحق في هذا الرواح قصد الشارع . أم هو غير مقصود لداته
وانما مقصود به داب السد القديم ؟

في هذه المسألة ذهب آئمة الفقه مذهب تسي وبحسبنا أن عرض
بعضها .

قال أبو يوسف : ان زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجه أن تعود
لروح المديم . وقال محمد ان رواح المحلل صحيح لكن الزوجه لا تعود
للزوح الأول لأنه سنعجل ما أخره الشرع فعامل بفيض قصده

وقال مالك : ان زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب
الشهود ان علموا . وقال ابن حنبل ان الزواح باطل .

أما التسامى فله رأى وسط بين الآراء انتهى اليه بعد أن قدم الى مصر
قال : اذا ورد عقد رواح المحلل مطلقا بلا شرط فيه وكانت نية الروح أن لا
يمسكها الا قدر ما يصحبها لحللها لزوحها الأول فان الزواج صحيح ولا تفسد
الثنية شئاً منه لأن النية حديد نفس وقد بوى الشخص الشيء ولا يفعله
أما ان تروح الرجل بشرط أن يسهى الزواح بالدخول واللمس لحللها من
زوحها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة في التحليل مخلفة كما ترى وهي من قديم لسب
مجال للاتفاق

أرسلت امرأه الى رجل فزوجه من نفسها لحللها الى زوحها فأمره عسر
ان الحطاب أن يسم معها ولا يطلقها وأوعده ان هو طلقها أن يعاقبه
أما الامام السعوى فقال : لا بأس بالتحليل ان لم يأمر به الزوح .

وأما اللت بن سعد - امام مصر - فرأى رأياً رتبها قال . ان تروحها
ثم فارها لرحع الى الأول فان من التاني ذلك للأول بعد دحوله بها لم يصره .

وهذا الاحسان الكريم الذي يشر به اللب قد روى مثله عن أبي
الشهداء وشهد كربلاء حتى لحل للباحت أن صبغه قد ألهم اللبت فكرته
جسده وبه صلا . قالوا ان الحسن بن علي لم يروح أريب بس اسحق

رغبة في مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام اد خدعه معاوية فأهد الله الرسل أن سيزوجه من بنه ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطلق أرييب في انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر الى أرييب في العراق يخطبها لولي العهد يزيد بن معاوية - وكانت قد شغفه حبا فلجأ الى أبيه يسففيه فدبر له الأمر على ما نرى - حتى اذا بلغ الرسول العراق لقي الحسين ، فقال له الحسين اد عرف رساله : ابى كس عرمب على الرواجمها وأردب الارسال الها ولم يمنعنى من ذلك الا سؤال متاك . فاحطب رحمك الله على وعلى يزيد ولخسر من اخاره الله لها فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت (اخترلى أرضاهما لديك ، قال : اما عليك الاختيار لنفسك . قال : عفا الله عنك وانما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بدا من العول قال «ابن بنت رسول الله أحب الى » .. فاخارته وساق الحسين الها مهرا عظيما . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل دا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ، ولقد كنا بالملامة مه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة درا ، فاحتاج الها بعد أن أهدره معاوية ، وفصد الى الحسين يعلمه خبر ودائعه . فلما أخبرها الحسين قالت : هى عندى بطابعه الذى طبعه عليها ، قال الحسين لعبد الله : ادخل عليها وتوف مالك . قال : أو تأمر بدفعه الى جعلت فداك . قال : لا حتى تقبضه منها كما دفعه الها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هدا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين فمض عبد الله خاتم بدره ، فحشا من الدر حثواب . وقال خذى فهذا قليل منى لك . واسنعبرا جمعا أسفا على ما ابنليا به ، فدخل الحسين عليهما وفد رق لهما للذى سمع منهما فقال : أشهد الله أنها طالق ثلاثا . اللهم انك تعلم أنى لم أسنكحها رغبة مى فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت احلالها لبعلمها . ولم يأخذ مما ساق الها فى مهرها قليلا أو كثيرا وحاولا أن يرداه اليه فلم يقبله وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خبر لى منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله اليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الإطلاق ولو شرط فيه أنه (عقد للتحليل) أى صرح فيه بأن الزوج يتزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .

نتحصر مطاعن خصمهم أبى حنيفة في هذه المسألة في أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية . « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويقولون ان الآية يراد بها مؤدى العقد وهو الاسرار لاحرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أموراً متفقاً عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعتمد اليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والاصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة في المحلل يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم ، ثم ان دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأه ترافعت اليه في الموضوع وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة في مسألة المباشرة - المس - مذهب شاذة قليلين على رأسهم سعيد بن المسيب لم يوجبوها ، فذلك مذهب لا يخفى أنه في غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به قاض لا يهد لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالنفيذ .

فلم يبق الا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبى حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غيرها من العقود كعقد الزواج ، وانما لكل امرئ ما نوى وقد سلك الطريق المفضية الى الزواج في ظاهر الشرع .

ثم ان المحلل غايته أنه نوى الطلاق اذا وطئ المرأة وهو مما ملكه الشرع اياه . كما لو نوى المشتري اخراج المبيع من ملكه اذا اشتراه ، أو نوى في عقد الشراء اتلاف المبيع واحرافه ، أو اغراقه فلا يصدح ذلك في صحة البيع ، ولو اشترى عصرا في نية أن يتخذه خمرا ، أو جارية وفي نية أن يكرهها على البغاء . أو سلاحا وفي نية أن يقتل به معصوما ، فكل ذلك لا أثر له في صحة البيع .

فالمسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الديبة شيء وانعقاد
العقد القانوني شيء آخر ، والدين لله ، والدين لنا .

وإذا طبق الفقيه النص تطبيعا يحسبه ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس
ذلك احصالا كما يحال أرباب الحل المسقوتة ، مثل الحاييل للربا ، أو مسح
الصدقات . كمن يفنى الرجل بأن يهب ماله لآخر إذا أوشك العام على الانتهاء
ثم يسووه أياه فلا يتم عام على المال في يديه ولا تسحق عليه الركاه .
وكالارتداد لمسوخ الرواح أو ذلك الساخر الذي حلف ألا يأكل رعيها أو
قطعا من العنب أو فسحا فأحل نفسه من السن بأن أكل الرعي إلا لسه
واللفظ إلا حبه . ١ وطحن المسح وأكله حرا فذلك هزل بارد لا
يسساغ

ويحسب أنى حبه فحرا أن البارح لم يروعه أنه سحر براحه في
الحريح والكبف لخدمة سلطان أو نصره دى حاه

قال الشعبي . (لا نأس في الحل فسا يحل ويجور ، وإذا الحل شيء
يخلص به الرجل من الحرام ويخرج به الى الحلال . فسا كان من هذا ويحوه
فلا نأس به) وحصر سمان التورى محلسا فلما أراد الحروح معوه فحالف
أن يعود ، ثم خرج وترك فعله كالناسي لها فلما خرج عاد فأحدها وانصرف

ورأب امرأه عند الله بن رواحه روحها على حاره له فذهب وحده
سكن فصادفته وقد قضى حاحه فقال لو وحدثك على الحال السى كب
عليها لو حأتك ١ فأكر ، قال فأقرأ ان كب صادقا . قال

شهدت بأن وعد الله حى وأن السار مشوى الكافريا ١

قال السادحه آمت بكاب الله وكذب بصرى ١١

وبلع ذلك السى فصحك ولم سكر عليه هذا الحل باطهار الفراء لما
أوهم به روجه أنه قرآن تحلصا من عصها لفهم أنه ليس جسا حب لا قرأ
القرآن الا المطهرون

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكف في فمه أنى حيفه من الأصول
الى تشوّر في وجه الاحتيال . وكم ناهى القهلاء بالحسل في حل مشكلات
الايسان

بحسبنا أن سيعرض أحد المحارح الى أدهش بها اللت بن سعد بلاط
الرشيد . قالوا ان هرون الرشيد حري به وبين زوجته كلام فقال لها « أنت
طال ان لم أكن من أهل الجنة » ثم بدم واستحضر العلاء من شى الأقطار
فلما اجسعوا سألهم فاحلفوا . وكان في آخر المجلس شبح هو الليث بن سعد
سأله فقال اذا حلى أمر المؤمنين مجلسه كلمه ، فصرفهم ، وأمر باحضر
مصحف ، فقال : تصفحه يا أمر المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فلما
اسهى الى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه حسان) قال : أمسك يا أمر
المؤمنين ثم استحلفه بالله فائلا . ابى أحاف مقام ربي فقال . يا أمر المؤمنين
فهما حسان لا حنة واحده . قالوا فسعيا الصصق والفرح من وراء السر
— ولا حرم كان السر يحجب كواكب القصر — فقال له الرشيد : أحسب
وأمر له بالحوائر والسلع وأمر له باقطاع الحره ، بل ولا بصرف أحد في
مصر الا بأمره .

وروا من حل أنى حيفه أن رحلا أتاه بالليل فقال أدركنى فسل
الفجر والا طلف امرأتى قال وما داك ؟ قال : تركت الليله كلامى فقلت
لها ان طلع الفجر ولم تكلمسى فأب طالى ثلاثا وقد توسلت اليها بكل أمر
أن تكلمسى فلم تفعل — قال السيج اذهب فمر مؤذن المسجد أن يرسل مؤذن
قبل الفجر فلعلمها اذا سمعته أن تكلمك وادهب اليها وياشدها أن تكلمك قبل
أن يؤذن المؤذن . ففعل الرجل وحلّس ياشدها وأذن المؤذن فقال طلع
الفجر وقد تخلصت منك . قال : قد كلسى قبل الفجر وتخلصت من السن
أما محارح أنى يوسف فكاتب عداء تنهيا للرواه وسرى فما بعد
بعض ما قدموا لنا منها .

في فتره معاصره وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) سببه خصوم
أنى حيفه الى أنى حيفه وقابله الرأى القهى في كل مكان بالاسكار لما فيه
م محارح تؤدى الى الكفر الصراح .

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحدا من صحبه لم يضعه فان مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتابا له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا (ما وضعه الا ابليس) فقال عبدالله بن المبارك : « الذى وضعه أبلس من ابليس » وابن المبارك — كما قد علمت — تلميذ أبى حنيفة .

كان الأسلوب التعليمى لأبى حنيفة يضاھى الأسلوب التعليمى فى أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمى ، تجرى فيه التطبيقات العملية على وقائع حبة تطبع فى الذهن وتضبط فى الوصف ، لأن العمل وحده هو الذى يثبت العلم ويثبتته ولهذا أنشئت نظم (الأقسام) فى الجامعات لتدريس النطبقات ، وهذه الدراسات العملية فى القانون تقابلها دراسة الشريح فى الطب . ودراسة المعامل فى العلوم وما إليها .

ولعلك لا تحد قضية كفضية (أم عمران) بين الفصاىا التى يتدارسها الطلاب فى معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبى حنيفة أيا اسنعراض ا شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناول الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق .

كانت بأم عمران جنة وكان بازاء جامع الكوفة فمر بها رجل فتاوشا فقال له : يا ابن الراسن .

وكان القاصى فى المسجد قد سمع السب . فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه فى المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حدا لأبى الرجل وحدا لأمه .

وعرفت حلقة أبى حنيفة هذه الواقعة وهى على قيد أذرع من المحكمة فى المسجد الجامع فلم تهن فى ابعاد الماضى . وقلب اسناذها له الأمور اذ رد

قضاءه الى الأصول ، أو ان شئت تعبيرا عصريا فقل أخذ « كيف الواقعة »
و « ياقش النطيق » وقال :

. أخطأ ابن أبي ليلى في سنة مواضع .. !

الأول : أقام الحد في المسجد و لا تقام الحدود في المساجد .

الثاني : وضربها قائمة والساء يضربن فعودا .

الثالث : وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ولو أن رجلا قذف جماعة كان
عله حد واحد .

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

فالجون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ،
وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضي بعلمه ، ومكان
التفويض ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب في الفقه الجنائي ،
وثبت الى خيال التبسخ فور البديهة في مكان الحوادث ، وفي وقت وقوعه ،
فعلمها تلاميذه .

كان ذلك شأن أبي حنيفة فماذا كان شأن القاضي ؟

وهو من هو في تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ،
صاحب الرأي والأسناد الاول لأبي يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء
كانت تلمع اسمائهم في سماء العراق عامة وفي الكوفة خاصة ، شريك النخعي
وسفيان الثوري وهو :

انه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمر .

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة ألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأوليائه في الحاجة اليه سواء فقد امتنع عن الفتيا
أياما حتى قدم عليه رسول من ولى العهد يستبئه في مسائل فقال : أنا
محجور على ، وعاد الرسول الى الأمير وقال الأمير : قد أدنب له ففعد فأفتى

سأل رجل أبا حبيبه عن فتح خوخة في حائطه فقال . افتح ما شئت .
ولا تطلع على حارك وسكاه الى ابن أبي ليلى فسمعه فعاد الى أبي حبيبه
فقال افتح فيه بابا ، فسمعه ابن أبي ليلى ، فعاد الى أبي حبيبه فقال . كم
فيه حائطك ؟ قال : ثلاثه دناسر قال اهدمه ولك على اللاله فحاء لهدمه
فرفعه الجار الى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى : يريد هدم حائطه وتسألني
أن أضعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك قال الحار . كان فتح
الخوخة أهون على ١١

وهكذا حاور القاضي والخصوم بن يديه حوارا عسليا أحصع الأشخاص
كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفي داب يوم اجتمع القمهاء لدى الأمر سفسهم ، فأدلى كل برأيه ،
وأدلى أبو حبيبه برأيه ، وأدلى الحسن بن عماره برأيه ، فقال ابو حبيبه .
أخطأنا وأصاب الحسن .

وقال الحسن : لو شاء أن يهزم قوله ويردني من عولي لأمكنه ، فعلست
أنه ليس أروع منه

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو بهول « والله ما أدركنا
أحدا تكلم في الققه أبلغ ولا أصبر ولا احصر حوارا منك وانيك لسيد من
تكلم في الققه في وفك عر مدافع ، وما يكلمون فك الا حسدا »

السلامية

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى
تعطيه كلك ، وأب اد تعطيه كلك
من اعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)

آلت الى أبى خيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاذه قرابة عشرين عاما سبقنها دراساته ورحلاته ، فادا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وان أول ما يعظهم به هو داته ، ولمد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للافتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من الحصيل الذهبى والاستعداد الروحى .

مرض أبو يوسف مرضا أشفق عليه منه فكان يتعبده حيناً بعد حين ، وسار اليه آخر مرة فرآه مبهلاً بعد أن أبل فرجع ثم قال « كب أوملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك لموتن معك علم كثر . » فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتعب نفسه وعمد لنفسه حلقة خاصة وفعد عن مجلس أبى حيفة ، وقصد اليه الناس يتحلفون حوله ، وافصده السبح فعلم جملة الخبر . فطوى السين الفهرى واسرجع الذكر نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صنو والزمان غلام ، يوم عره العرور فحصل تم حال ، فعزم المصالح من أساده ، وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك ففعد من حماد مفعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن العلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم ينخل عن تلميذه ، ودعا اليه صديقا سيره اليه بحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع الى فصار « وهو الخياط الذى يقصر الشاب » ثوبا ليقصره بدرهم ، فصار اليه بعد أيام يطلب الثوب فأكره ثم ان صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثابته فردده اليه مقصورا فهل له أجر ؟ فان قال له أجر قل أخطأ . وان قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبيا « وكان أبوه على ما قبل خياطا » ولعل هذا سر اخيار السؤال ، فادا عجز الأساد الحدث عن الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فعسا للعلم الذى يدعيه .

ومشى الرسول يحث الحطى الى الأسناد السجيب ، وأحد الأستاذ يجيب ، قال له أجره . قال أخطأ فأترو مليا ثم قال لا أجره له قال أخطأت .. وعميب الأنباء على الفنى فألس ، وأسر الدامة لما رأى الخطأ . وانطلق من مجلسه انطلاق السهم الى الرمية الى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة أظن ما جاء بك الا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى .

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلسا يتكلم فى دين الله ، وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب فى مسألة من مسائل الاجارات !!
أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى .

أبو حنيفة : ان كان قصره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصره لنفسه وان كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه .
أبو يوسف : !! .

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليكن على نفسه . . ١.

وبكى أبو يوسف على نفسه مدرارا وعاد الى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة (اعلم ان العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لا بد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير) أو قوله (من تكلم فى شىء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفيت فى دين فقد سهل عليه نفسه ودينه وقوله (من طلب الرياسة فى غير حيله لم يزل فى دل ما نفى) ولذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لنمادوا به السفهاء ولا لنحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار) .

ولما تقدم حماد بن أبى حنيفة يوما ليصلى بالناس أخذ أبوه بمجامع نوبه فأخره ، وقدم غره ، فقال حماد : يا أبت تفضحنى ! قال « بل أردن

أن تفضح نفسك فسعك اد لو صلب فقال فائل أعددوا صلاتكم حلف هـ
فسطر في الكتب ويسمى عاره الى يوم الصامه ا »

ولما أخذ يعلمه وجهه الى دراسته علم الكلام حسا ثم صرفه عنه فجدله
حماد بعوله (ألسب كبت تأمرى به) قال « بلى وأنا اليوم أنبأت عنه » قال
« ولم » ؟ قال يابى ان هؤلاء المحصلين في أبواب الكلام من ترى كانوا
على قول واحد ودين واحد حتى برع السطّان سهم فآلمى سهم العداوه
والاحلاف » ثم قال « كما نجتمع وكأن الطير يحصى على رءوسا وقد
يلعى أن قوما يكلسون اليوم فصحاء من الكلام واسا همه أحدهم
أن يطر من صاحبه سبعة سبع بها عليه فادا بلغ الكلام هذا الحد فركه
خر » وفي عبارته أخرى من عباراته « كما ناظر وكأن على رءوسا الطير
مخافه أن يرل صاحبا وأسم تناطرون وترندون رلة صائحكم »

وإذا كانت هذه بظرة أى حصة الى العلم وأهل العلم وهذا الصفة
للعلم من نفسه ومن ولده . فهل يرك تلمذه لمصدر مجلس العلم من غير
علم .

كلا بل انه لصف بدا الى أناده عليه فهدى ، ويحاذله بالى هى
أحسن ، لا بهوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته فى نفسه مواجهة السرورى .
لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يسط قدر علمه بن يده ، ليكون فى حكمه
على نفسه الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد كان هذا الصنع الذى صعه أبو حنيفة على يد الرسول لهما
الأساد الموفق بهدى فاه ، فلو أفلب منه رمام الدبر أو العبر يومئذ .
لكان محسلا أن يرك التلمذ رأسه فلا يهدى ، وما كان أقرب هذه من
تلك لو كان السخ فطا غلظ القلب ، ولم سكر سلسله ذلك المكر
الحبل .

وما أعظم ما تؤتى حسن العبر من شراب رأى بعض الملوك كأن
أسابه سقطت فعبرها له معر يموب أهله وأفاره فأقصاه وطرده ، واستدعى
آخر فقال له تكون أطول أهلك عمرا فأعطاه وكرمه وهربه . .

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس حناع علومه
مأضحي يقول (العلم شيء لا يعطيك بعصه حتى تعضبه كلك ، وأنت اذ
تعضبه كلك ، من اعطائه البعض على غرر) .

ذلك مل من تر الشرح بتلامذه وبالعالم ولو حاولوا أن يستقصي
مظاهر هذا السر لكنا كس يحاول أن يحصى نجوم السماء

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة . ومن آخر هو الطريفة المتلى للأفصاح
هو الذي يحدث الحرس الأحاد ، والرئين القاد ، ويحبب الصعاب بسائط
هو تقدم العلم في وعاء من الحب ، وحروج الكلام من القلب إلى القلب
بواسطه المحدث من قوره على الروح .

ولس يستطيع ذلك الا من كات لديه روح من الضرار الرفيع في طافها
أن تبع إلى أنفس الناس شعاعا دافئا دافئا كأنه الكهرياء .

قال الحسن البصري للواعظ الذي نعت نفسه من كلامه « يا هذا .
ان ثلبك لسرا أو بقلبي »

وعمرت أسلوب الأساد سماحه النفس كما تحلب في مباحث الدرس
فسر على تلامذه بالقصد والرفق ، والصر والرفع فلم يكن يؤكل في
خلفه احم الصدق ولا لحم الخصم وسما عن مساواه حصومه إلى الاستعمار
لهم . سلك ألب تلامذه وبهر أنصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبه صنوان
سعد من ماء السامح ، وأن المؤاخذة فيها فيها أدنى إلى الهدى من
الملاحه . وأن العسة قد في السامع فل أن تكون قد في العائب ، وأنها
على كل حال لعه على المعائب

وبواضع الأساد لله ورفعه في أعين الناس وتلامذه ، وبصروا به بما
بصر به المفربون ، وطفروا عنده بما لا يطر به العداء . وأعزهم الله به
وأعزهم بصرهم و « لا وحده أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة
بواسطه .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد
أبا حنيفة عن الغيبة — ما سمعته يفتاب عدوا له ! قال : هو أعقل من أن
يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل . يكلمون فيك ولا تنكلم في أحد ! قال « هو فصل الله
بؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك يبصع قرون فال الحكيم الفرسى لا بروير « ان
الواضع بالسبة للشخصية كالطلال بالسبة للصورة توضحها وتظهرها
وتجليها »

ولما سئل الفارابي . أنت أعلم أم أرسطو ؟ قال « لو أدركته لكس
احسن تلامبده » وقال . « قرأت السماع لأرسطو اربعين مرة وأرى أبى
أحتاج لمعاودته » .

قل لأبى حنيفة اتق الله ، فاتمض وطأطأ رأسه ثم قال « يا أخى جزاك
الله حرا ، ما أحوج الناس فى كل وف الى من يذكرهم الله تعالى وقب
اعحابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل وخاض فى حديث الناس الا قطع عليه حوصه
وكان يقول (اياكم وقيل مالا يحبه الناس من حديث الناس عما الله عس
قال فما مكروها ورحم الله من قال فما حبلا تفهموا فى دين الله ودرؤا
الناس من حديث الناس وما قد احتاروا لأنفسهم)

فيل له هذا الذى تفسا به هو الصواب بعنه قال « ما أدرى عسى
أن يكون الخطأ بعنه » .

وقال يهدب تلمبده يوسف السمنى قبل خروج يوسف الى البصره
(.. ومن مرض من احوالك فعده ببصك وتعاهده برسلك ومن بكلم
فيك بالقبيح فكلم فيه بالحسن والحمل . وأفتش السلام ولو على قوم
لثام) ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به القبه ماضريه قال (ومى
جمع بينك وبين غرك مجلس ، أو صمك واناهم مسجد ، وجرب المسائل

أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافا ، وإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك . فاد قالوا هذا قول من ؟ فل بعض الفقهاء . فادا استمروا على ذلك وألقوه ، عرفوا مصدارك وعظموا محلك . وإياك والحق وان غدروا بك . وأد الأمانة وان خانوك) قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه . ويقول اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك .

كان هذا الخييص الصائم الذي لا تجد في داره الا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبيع البصائع الى بغداد فيسرى الأسمعه ويجمع الأرباح لتسرى بها حوائج المعلمين ، يموتهم ويمونهم ، ثم يدفع اليهم الدنانير قائلا « أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا الا الله سبحانه وتعالى فانها أرباح بضائعكم . مما يجريه الله لكم على يدى .. »

فلنختصر في السرد ولندع عنان الحديث لأبى يوسف حيث يقول :
(كتب أطلب الحديث والفقه وأنا رت الحال ، فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حيفة فانصرف معه فقال لى يا بى لاتمدد رجلك مع أبى حيفة فان أبا حيفة خبزه مستو وأنت تحتاج الى المعاش . فقصر عه كثيرا فى الطلب وآثرت طاعة أبى . فنفقدى أبو حيفة وسأل عنى فجعل أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال . ما تغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست ولما انصرف الناس دفع الى صره وقال استمتع بها فاذا فيها مائة درهم . وقال لى : الرم الحلقة فاذا فرغت هذه فأعلمنى . فلزمت الحلقة فلما مضى مدة يسره دفع الى مائة أخرى ، ثم كان نعهدنى وما أعلمه بحلة قط ، ولا أخبرته بتنفيذ شيء ، وكأنه كان يحصر بها حى اسعيب وتمولت) .

كان أبو يوسف فى نصارة السباب حين وقع هذه الودائع جاء الى الحلقة تاركا حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى وقد قصصا من قبل بعض آثاره

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب
المجد جميعا : العلم الدينى ، والعلم الدسوى ، وأموال تكاد لا تحصى .
ووظيفة دونها الوزارة ، وصدافه شخصنة مع هرون الرشيد .

فلرحع الضر الى روايه مسمرئس . فأبو حنيفة كان يدرك بعنقه
ويلزم بفعله ، حديث رسول الله (لا حسد الا فى اثس ، رحل آناه الله ما لا
فسلطة على هلكه فى الحق ، ورحل آناه الله الحكمة فهو يقضى به
ويعلمها) وبهذين الحكمة والمال را ح يحدى الحسد ، فسح المال فى سسل
الحر ويقضى بالحكمة ويعلمها ، مسحا لس له أول ولا آخر . وتعلسا تكاد
تصق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يسه بالسحاء ، أريحا مرهف الحس .
يدرك وحى العن ودحائل النفس يعطى من فوره ، ويعطى فى المعاد .
وقديما قال الحكمم العربى (حر الحر أوحاه) . وأقدم منه قول الرومار
(ان من يعطى فورا يعطى مرتن) والدار فى داته فضل ، ثم هو يعطى فى
غبة الناس فلا يسه على العطاء الا نفس صاحبه ، فى آناه مطهر تسسو
بمن يعطيه عن مهانة الابدال .

وأى رشاقة كرشافة الد العلبا وهى تدفع المال الى الد الأخرى دور
رنين أو النماع . فنقدمه فى صره لا صوب لها ولا رنق منها برعح الأعصاب
فى اسماح يسكر البصر ، كل أولئك وهو مع تلسد له لا بأس عليه ان هو
خلع تاب الحرح من شأنه لكن الهرب عنده كالهرب ، وكذلك الذى
ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل اسلامها ، وكذلك
الجلبس صاحب الثوب الحلوى ، وذلك المدين الذى لا يحلس فى طلاله
يصنع الصنع دائما فى استخفاء وعلى اسحاء ، وفى تلطف كملطف الملسر
يقطع بأنها السجبة المطبوعة لا السجبة المصنوعة ، وادا شكر أنكر السكر
ونقله الى شخه حماد .

قال أبو يوسف (وكان يعولى وعالى عشرين سه وادا قلب له من
رأيب أهود مك ، يعول كيف لو رأب حسادا . وما رأب أجمع للحصول
المحسوده مه) .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأساذ ورواده .

قال لأبي يوسف يصححه (وأقبل على مسعفهم كأنك اتحدث كل واحد منهم أبا وولدا لزيدهم رغبة في العلم) وتلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفعك سؤال عن المريض من تلامذه حتى يقرأ . وعن الغائب حتى يرجع ، وعن عمر المريض وعن الغائب ، لم يعرف عنه أنه اخصى ولده حمادا بعطف كما اخصى تلاميذه قال عصام : (لم يكن لأحد من الحق كما لأبي حنيفة على أصحابه وكان الذباب اذا وقع على أحد منهم يرى مشعة ذلك على نفسه) .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للنساء لم يك إلا أمثالا مسووة العواف . فهي واحدة شد أرر فنى كان يومه بسر نغده . وفي الأخرى دعاه الى الاسراة من العلم ، فأوتى منه بسطة سمب به الى أرفع الدرا بن آئمه الفقه عامه ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه البد ببوله : (ابى لأدعو له قل أبوى وسمعه يهول أبى لأدعو لحصاد مع أبوى) .

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه سما سوى أبو حنيفة بن أساده حماد وبين أبويه وكلاهما على الانصاف لأن أبا حنيفة علمه على رعم أبويه . وعلى النحو الذي كان يدركه أبو يوسف ببوله : (تعتمد الله أنا حنيفة برحمته ، وحازاه خرا ، فانه أطعمسى الدنيا والآخرة اطعما) .

ولش كان أبو يوسف قد أعلن حديق عطائه ان الحديق بهسه لىتنى سمدار ما كان يوحاه من احفاء — والوفائع الى سردنا من قبل تم عسه وهرره — فكم من التلامد لم يعلوا أياديه لقد أعلنها الحسن بن ريداد كان يلازم أنا حنيفة وأبوه يرهقه ببوله لما بان ولس لما ابن غرك فاشعل بهن ، وكان أبو حنيفة بدر عليه أخلاف الررو حتى تعلم ، وأعلها يوسف اس خالد السمسى واحمفب كلمه الرواه على أنه كان يصبر على من بعلبه وان كان همرا أغناه وأنزل عليه وعلى عباله صبا من العطاء حتى يعلم ، فاذا تعلم قال له قد وصلت الى العنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام وأحمعوا

أنه كان معروفاً بالافضال على كل من جمعهم به الأسباب . ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مراراً ، ويسره اسراراً ، غير مسمون ولا مجدود ، ولا مصرود ، مما لا يقع الغله .

ولو جاءه المال عن أمه أو جده من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فصل ، ولو فع أجره على الله لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشئ النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سمواً أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها في ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالانفاق ، وسبيل صالحة لعبارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هي المبدأ والمنهى والأمل المنهى لا حس ثواب الدنيا ولا حسن مأب الآخرة .

ويرتفع الفصل الى سماء ما طاولتها سماء اذ يصعبه صاحبه ليتمكن الذين أعطاهم من أن يلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى ، يعنى به العلم الذى علمه هؤلاء اللامد .

هذه الوقائع برسم أماما خطوط الظاهره الأولى في حياة أبى حنيفة ، وهى فيام مدرسه كبره مطبة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أسادها . يحمل أعباء تلاميذها الماله مثلما يحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده في الانفاق وفي التهذيب ، في اخلاص للعلم كأنه العباد . جاء اليه رجل بكتاب شعاعة لبجدته فقال (ما هكذا يطلب العلم ، قد أحد الله المشاق على العلماء لسهه للناس ولا يكتموه لا يكون العالم له خواص لكنه يعلم الناس ويريد الله بعلمه) .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة حلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العلم بأن ثروه المصكر هى الفكر ، فادا خلف المفكرون من بعدهم أفكارا فقد أنجبوا ، أما ما يحلفون من عروض وأمموال فهى كسائر ما يحلف الموتى من العروض تساهى في اسصان سدر ما ساهى في النداول والتعامل وأما المكره فهى النور تتاهى في الانسار كلما تداولها الأتفس ، وتساهى في الاردهار كلما أرهمها الأدى ، فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، والدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاه والسلام بأنهم معاشر الانبياء لا يورثون ، وان ما يتركونه صدقة للعالمين فادا سأل عن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمكركين شعرت بالشذوذ فى السؤال .

اسما يعنى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يسيان كما يعنى المال ويزول ، وان حصل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى، الاكما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد اد تطوى عليهم أجفان الثرى اسما الفكرة شىء الهى فهمى كائن حى لا يموت . وهى الجوهر الحر الذى يورث . ويدفع الصريبة عه الموتى والأحياء على السواء — ولا يخلد المفكر الا فكرته ومن اعتقها من الأشياع والأتباع، ولهذا كان تلاميذ أبى حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين أستاذة فى شجرة السب العلمى ، بذكرهم مع أصوله وأستاذة كلما مثل بين يدي ربه قال « ماضيت صلاة منذ ماى حماد الا استغفر له مع والدى وانى لأستغفر لمن تعلمت عليه علما ، ومن علمته علما » .

قال له صاحبه وقد رأى بيه عريان الا من السوارى . وهو هو الذى يورع الدنانير آلافا مؤلفة وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عال ، قال : الله تعالى للعال . وانما فوتى أنا فى الشهر درهمان .. ثم قرأ « وفى السماء رزقكم وما توعدون »

أما الظاهره الثامه فهمى أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكسب وفى تاريخ مصر الحديثة حلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته ، وسلامد سموالى أرفع درا المجد فى مبادئ الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبى كما كان محمد عبده فى الاصلاح الدينى وسعد رعلول فى الاصلاح السياسى واراھيم الهلباوى فى المحاماه ، مع قليل من

الرجال والمؤلفات ، هم السجل الدين حصر التاريخ فيه تركه الرعم الفكرى
العظيم الوارد من الأفعان أو من ابران ، ورود آباء الامام الأعظم .

ولأن سى الرجل الكبير رجلا كبيرا حر على الوجود السرى من كل
آثاره ، فكيف اذا بنى رجلا كبيرا عطباء

فلعل النص الاساسيه حر ما عبرت به بد المدره الالهيه عن الله
سبحانه والرجل الصالح سى المسالك ويهم المداهب ويشرع السرائع وسى
الرجال من حديد .

ان من الرجال من كان أحدى على الاساسيه من احدى القارات
الحسن

لقد كان أبو حبيبه ملها عندما احصى أبا يوسف ومحسدا ورفر
والحسن وباقى الحساعة وورثهم من نصه وعليه ما ورثهم . فى جهد يومى
ممثل ، يهدف الى عابه كرى ، تجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف
كسا تجمع الفروع وتلافى الساع فى الهر الحارى ، فربو الوشل ،
وتصبح الحفبات من الماء فصانا راحرا كالسبل العرم ، ترحم البحر وتعلم
وحودها فى أحلى محاله .

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصح أمه وحده ، وأن يجعل من
الصعب الاساسى فوه عارمه ، ومن العمل الفردى عمل فلو ، ومن الجهد
اليومى جهد رمان ، وبهذا أحدث الصحه الفردية طسا فى سماع التاريخ
وأنعاما فى فم الرمن .

بهذا بلعب مدرسه أنى حسه أوحها ومهدت لها الدوله الجديده . فادا
بالمدرسه تخرج الحكام الكبار باسم العصاه الكبار ، فصعود أيديهم على
مصادر الشريع الاسلامى فى تنى نواع الدوله ، وعذب الأسماء التى تلونها
فل . يحلق أصحابها حول الشبح ، سجلا باسماء العصاه الكبار والعصاه
المحول وبدأت حركه التدوين على طرار الاساح الصبحم الذى بدأه محمد
فى كسه وحرى على عراره الحسن بن رباد ومن سعيهما فأداعوا فصل المدرسه
فى الرمان كله . وادا بالمدرسه تخرج ساكا ورهادا الى حوار الحكام .

فربط السلاميد كالأسناد بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الدعة
يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويالها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا الى
السعادة في الدنيا ، لا تنالا محضا أو رهباية خالصة ، وبهذا أقبل الناس
على ارتياده في سبيل الله ، ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الرباني
والدافع الانساني معا .

استمررت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدوثة
الاسلامية في أرمي عصورها حضاره ، أعظم رحالاتها جداره ، نعى بهما أبا
يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا في
عين الدولة وأعين الناس ، اتجاها فكريا جديدا هو الاتجاه المفرد الجدير
بالاسلام



كان العاية الالهية قد كشف لأبي حنيفة الضاع عن وحه المستقل
حين استشار أبا يوسف في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول
فقال له أبو حنيفة (لكأني بك قاصيا) وهى البوءه النى قال عنها الرشيد
فيما بعد (لعمرى ان العلم يرفع دنيا وديا) وترحم على أبى حنيفة ثم قال
« كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف في الساعة والثلاثين عندما توفي أسناده كما كان
أرسطو في الساعة والثلاثين اذ مات أفلاطون . واذا كان الغضب قد ملك
أرسطو لذلك . فان رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تعصب أبا يوسف ،
لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم في حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدي والهادي والرشيد ،
وبلغ مجده أوجه في عهد الرشيد اذ تقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى
القضاة أو عالم العلماء (موبدان موبذ) . كان هو الذى يوصى الخليفة
بتعيين القضاة في شتى أرجاء الدولة وكان يؤاكلة ويصح معه — عدلا له على
بغير — ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بعلته فيستقبله الرشيد بالنشيد
(جاءت به معتجرا برده) وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر

كان معه كآرسطو مع الاسكندر ، تلميذين في عمر الورود لأساديين
في حريف العمر كتب له في كتاب الحراج يعول : (وقد كتبت لك ما أمرت
وشرحه لك وبينه فنفقه وتدبره وردد فراءته حنى تحفظه ، فانى قد
احهدت لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين بصحا .)

وبلغ من التراء أن قدر تركه بملوين . وصلى عليه الرشيد عد ما
مات وأمر بدفنه فى مقابر فریش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زنده أم
الأمين

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق فى فراءته . سمعه سامع فقال :
لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طر لعل لكه كان يحفظ حمس أو
ستين حديثا فى السماع الواحد ثم يفوم فملها على الناس !

أتج لعه أنى حيفة على يد أبى يوسف ما يباح للمذاهب الساسية
أو الاجماعه أو العلمة من الجاح اد يهى لها القدر رجالا فى دسب
الأحكام وهى ظاهرة تولاهها المؤلفون الغرييون فى السواب الأحره بالعرض
المسببض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فمه أساده ففها رسميا بالفضاء وبالاقتاء ،
وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه فى كراسى الفضاء . حى صار الناس فى
عداد سمون مذهب أبى حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد
 وفاة أبى حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة — كما عبر أحد
خصوم أنى حنفة — (لأن العلم والسلطه حصلا معا)

أو كما قال ابن حزم : مذهبان اشرا فى بدايه أمرهما بالرئاسة
والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس .

أقاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاحا جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو
اللقاح العملى الذى ينجوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله
بالحلفاء الثلاثة ونفهاء الأمصار وبعد أن قطعت الدولة أكسر أشواطها فى
الحضارة .

وحرص أبو يوسف سلطانه في كل مكان حتى انه ليجعل ابيه
يوسف فاضا على الحاب العربي من بغداد واماما للحجيج عندما حج
الرشيد وفي صحبه أبو يوسف . كان شريك خصم أبي حيفة يحج في نفس
العام وسأل عمي يصلي بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبي يوسف قال :
الآن طاب الموب !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وياله من سلطان على صاحب
السلطان ! كان اذا حزب الأمور فرعوا اليه فلا تقف أمامه المشكلات أو
المسحيلات .

زعموا أن زييده عاضب هرون الرشيد — فحلف الرشيد يمينا بالطلاق
ألا تيب ليلنها في بلد يدخل في ولايه ، فلما سكك عنه الغضب فعل الهوى
أفاعله في نفسه ، والباريح يذكر مبلغ ما شعفته حيا وشعفها ، فأطلمت الدنيا
في عييه ، والظلام في عين الرشيد هو العمى في أعين البلاط .. ! فاشتد
الحطب وفدح الأمر ، وكلما مال الشمس في الأفق ، ودن حمره الشفق ،
سرت في أبهاء العصر رعدة العرو ، وزاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ،
ودارب أعين الحاشية كالذي يغشى عليه من الموب وتصايحوا ألا أين نصر
الله ؟ ..

ألا ان نصر الله قريب ان فيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف
أفسا في أمير المؤمنين وروج أمير المؤمنين !

فليات أبو يوسف بالخوارق . قال .. فليت زوج أمير المؤمنين
بالمسجد .. فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد ..

والله سبحانه وتعالى يقول (وأن المساحد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يقدم لامامة المسلمين فصلى الرشيد
ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فان أمير
المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهل مكة : ياأبا يوسف
نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت
في صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبتهت الرجل . لكنه اسمر يقول : نحن مهبط الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت الينا في الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الحليفة على الموقف في حضرة الخليفة .. !

أفلم يكن الرئيد على حق اد يقول « هاتوا لي مثله » !

حوصم اليه أمير المؤمنين الهادي في بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له . لكن الحق كان لحصمه . قال الهادي لأبي يوسف : ما صعب في الأمر الذي تتنازع اليك فيه ؟

قال أبو يوسف : حصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده على حق . قال الهادي . وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبي ليلى يراه قل الحليفة أرد البستان عليه .. !

لكه اد يحال ليرد الهادي بسان الرجل اليه لا يحال من أجل من دونه . شهد الفصل بن الربيع ورير الحليفة عنده يوما فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال . سمعته يقول أنا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للبعد . وان كان كادبا لكذلك .

بل انه ليحلف الرشيد في قضية رأى أن يحلف فيها الرئيد ! مع ما كان من تسامي السرواب ووحوه الدولة عن توجيه الخصومات اليه

جلس الهادي يوما للمطالم وبجواره عماره بن حمزة ، فوثب رجل وتسلم من عمارة في شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعمار ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال ان كانت الضيعة لي فهي له ، وان كانت له فهي له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا . كنب أم جعفر الى أبي يوسف تقول ما ترى في كذا ؟ وأحب الأنساء الى أن يكون الحين فيه كذا . فأهاها بما صادف هراها ، فبحث اليه بعض فيه ومنه . فيه حماي منقبات ، في كل واحد منها لون من النليب ، وفي

جام دراهم وسطها جام فيه دباير فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهدى له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها) قال أبو يوسف (ذاك حين كان هدايا الناس التمر واللبن ..)

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتخرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها .

وفي سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : اللهم انك تعلم أسي لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، كلما اشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه) وعرف الناس وصته . . ر . ١٠ مائة ألف لأهل مكة ، و ١٠٠٠ ر . و مائة ألف لأهل المدينة ، و ١٠٠٠ ر . لأهل بغداد و ١٠٠٠ ر . للبلد الذي جعل صى القصار أسناذا للرشيد يهب مئات الآلاف ! يعسى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الحلفاء كأبي يوسف ومع أنه تلمذ على أبي يوسف بعد وفاه أسادهما ، فقد كان سه وبسه وحشه في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته ولى قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه وأدناه :

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب ، أما الكتب المنسوبة الى أبي حنيفة (العالم والمنعلم وكتابه لعثمان البتي عن الارجاء والفقهاء الأكبر ووصية أبي حنيفة ان صحت) فهي تدور حول العقيدة ، وأما كتب أبي يوسف فقد قيل انها بلغت أربعين كتابا لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهدا على عبقريته كتابه « الحراج » الذي كتبه للرشيد يبصره بالحكم جوارا لطلبه — وأما كتب محمد فهي المعروفة بظاهر الرواية السر الكبير والسير الصغير (في فقه الحرب) والجامع الكبير (وهو في التفسير والأصول) والجامع الصغير (وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة) والمبسوط و (الأصل) وسمى كذلك لسبقه

الكتب الأخرى في التصنيف والزيادات وزياده الزيادات والكتيبات
والرد على أهل المدينة (وهو كتاب رواه الشافعى) وقد قرىء أكثرها على
أبى يوسف .

وإذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الاسلام ، وغمر
العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرفى أوربا وبقاعا من روسيا
وأصبح مذهباً رسمياً فى مصر ، أو كات نهضة التدوين وتبويب الموسوعات
قد دب فيها الحياة فإن لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الكبرى
فى آثارها .

ان المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠ صفحة من
دوات القطع الكبير ١٠٠ كان الفقه بحاجة الى الصون فحماه محمد بذلك
السور الميع الذى تألف حجارته من اخلاط أحرف الهجاء بالورق .

وكان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لارما للفقه عد النشأة
الأولى ليألف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولحملة الى الدنيا اليد
السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لارما ليوجه الفقه فى
طريق الخلود فتراه العصور جميعا .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاده « قاصى القضاء » أن
يكون فى الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن
السلطان ، اد هياً له بجاه من رحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فنفرغ للعلم
حتى عهد فى أعماله الشخصية الى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف وكان
يحيل أهله على الوكيل ويقول (لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فإن
فيها شغل قلبى وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فإنه أفرغ لقلبى) .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى
قال روجه عن مؤلفاته (هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر) .

رحل محمد الى المدينة فى حكم المهدي (سنة ١٥٨ الى سنة ١٦٩)
ليستفى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطا » وتعتبر روايته للموطا

من أجود رواياته واخبط بالكسائي في عهد الرشيد فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه .

قالوا : جلس الكسائي يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا الكوفي قد استفرعك وغلب عليك . فقال الرشيد : يا أبا يوسف انه ليأتى بأشياء يشمل عليها قلبي . لكن جواب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك في مسألة ؟ فقال « نحو أم فقه » ؟ فقال . بل فقه ! فصحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائي : تلقى على أبي يوسف فقها ١١ قال الكسائي : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أب طالق ان فتح الدار (وفتح الهمزة في أن) قال أبو يوسف اذا دخلت طلق قال أخطأ دأنا يوسف فصحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال الكسائي : ان قال أن وجب المعلن الطلاق وان قال ان فلم يجب ولم يقع الطلاق ١

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي الى الرشيد . ولما حشر الشافعي الى الرشيد لمحاكمته بتهمة الشيع عمل محمد في انقاده وتوقت بينهما عرى الود فبهر له .

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال (وهل رأيت فقيها قط الا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فانه كان يملأ العين والقلب . وما رأيت مبدنا قطه أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه (كان محمد اذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفا ولا يؤخر) وقال (ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد على)

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد الى منزله ويخلو به الى آخر الليل .

قرأ الشافعي كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فنعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين فما هو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينهل من

مات ريهل منه الشافعي الذي علم ابن حبل، فسلافي هذه المذاهب الفقهية الأربعة، وروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمفهمة والناس جميعا .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الايوبى أن عالما يهوديا كان بالبصرة نطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد فلما وقف عليه قال : من بحث عن ديه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وانما نسبها لنى أشهد انه على حق . فأسلم .

دل الملك . ان هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صعبه ومسانله معروفة ، فان من أراد أن يراه ويفهمه يحتاج أن يكون عالما بارعا بستة علوم أولها الكتاب العزيز والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيدا لهذه العلوم لم يعرفه الا تقليدا .

أقبل الرشيد يوما على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا الا محمدا ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآدن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال « كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . انك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال (من أحب أن ينشل له الرجال قياما فليسلوا مفعة من النار) وانه انما أراد بذلك العلماء .. » قال الرشيد صدقت يا محمد

اعتقد محمد أن العالم لا يصف للحليفة ويالها من عميده ! لكن الاسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما في حضره الرشيد وضد الرشيد .. وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء ... ١

لقد كان الرشيد حنيا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم

نلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كمرء من رعاياه ، يعدل تماما موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السر » بحث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد)
بالأمان أخذه الفضل بن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به
يحيى من معملة ، وتوسجبت المودة بين يحيى والرشيد زمانا حتى رفع السعة
عن يحيى ما يريب ، فسيء به وضاق به درعا ثم حبسه وهم به يريد قله ، لكن
العهد كان مسئولا ، و (المسلمون عند شروطهم) كما قال الرسول عليه
الصلاه والسلام فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ودعا محمدا
واقراه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد
يحادله وهو لا يتحول !

بل وال محمد .. ما تصع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً !
وطلب الرشيد فقبها آخر هو أبو البحتري فقراً الرجل العهد ، وأفتى
بقص العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فنواه ، وان شئت
فقل ما به فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البحتري الذى احتصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب »

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟
قال : حدثنى .. عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام .. !
وقف محمد هنا فى وجه الخائفة لأنه ليس ممن ينقض العهد !..

ولم يقف هناك اد جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء .. وهناك رضى
الرشيد لأنه أثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهما لم يرض لأن مصلحة
الدولة كانت ضد العلم وضد العهد . وكان هرون صاحب دولة ، فرأى من
أحل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع انه كان يبعث الى ولاته يأمرهم بنهى الله
وبالرجوع الى الفقهاء وكن انعائه على العلماء اعداها ، يعهد بأولاده اليهم
بل كان يخدمهم . وقد علمه أبو معاوية الصرير وجىء بالطعام فأكل بين يديه .
وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء
عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية « أكرمك الله كما
أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفي سنة ١٨٩ مان محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه
صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد (دفن اليوم اللغة
والفقه) .

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحباً أبي حنيفة يجرى اسمهما فى
التاريخ على أنهما « الصاحبان »

أما الصاحب الثالث فهو رفر بن الهديل كان مقدماً فى مجلس الامام
وبقى طيله عمره مشغلاً بالعلم ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء
واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل .
ولم يحض العمراب الى الدسا فلم يتعرض الى ما تعرض له الصاحبان (أبو
يوسف ومحمد) .

كان أفيس الحنفية . وكان أكبر اللاميز سا فرأس الحلقة لما هوى
النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رياسة الحلقة أبو يوسف
تلك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكا الفاضى فقال . طلقها ثم راجعها
وسأل الثورى فقال ان كنت قد طلقها فقد راجعتها ، ثم جاء الى زفر فقال هى
امراتك حتى تتيهن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أسناده أن التلك لا نزيل النفين كمن
توصاً تم شك فى الحدث فهو على وصوته .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال أما الثورى فقد
أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل قلب : لا
أدرى أصاب توبى بول أم لا . فقال . بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات ..

شهد الضر بن اسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما
وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة الضر . فقال لأنه يبيع الصلاة (اذا

كان اماما في المسجد يتقاضى في الشهر دينارين (فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء (ادا كان قاضيا بأجر) فأجابه شريك فادا شهدت عندك فلا تقبل شهادتي !!

وجمع حماد جماعه وأتوا شريكا فلما بصر بهم قال : وراءك يا حماد . لست كالنصر . أنت وأبوك تزعمان أن ايمان شر أهل الأرض كايما ن خير أهل السماء ..

كان زفر يغربل الأحاديث غريبة ، ويأتي بالدليل من غير حشو فادا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يماظره مره وهو مسند الى اسطوانة المسجد منصبا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثرة اركض في أيها شئت وانهى الأمر بأبي يوسف الى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة الى عرسه ، والنس منه أن يخطب فقال عه الامام الأعظم : (هذا الامام من أئمة المسلمين في حسبه وشرفه وعلمه)

وفي سنة ١٥٨ كان أسبق رملائه الى لقاء امامهم في الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤي فقد تلمذ بعد وفاة الامام على أبي يوسف ومحمد واقندي ومحمد فكنب (المجرى لأبي حنيفة ، وأدب القاضي . والفتاوى والفرائض والوصايا . والخصال) وعمل في القضاء وفتح عليه أبواب السماء برزق مهمل فأضحى — وهو الذي كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة لمر بناته — أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يحشى الله في فتواه . أفنى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرا فه ولم يكن معروفا لديه فاكبرى ماديا يقول : ان الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد اله الرجل فأعلمه بحطئه ورد الرجل الى الحق

وكان ادا جلس للحكم ذهب عه النوفيق فادا قام من مجلس القضاء عاد الى ما كان عليه من الحفظ !! فاسعفى من القضاء

وئ سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أنى حيفة فقد تولى قضاء الكوفة فبغداد كلها بالبصرة ،
وتخرج منه اسماعيل عليه وعلى أبى يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء
بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقّة .

وتولى يوسف بن خالد السمتى للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدي البه
من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيهما مندل — وكان أصغر وأشهر —
قال مندل موجهها نظر الحليفة . هذا حبان

ويحيى بن زكريا مات قاضيا على المدائن للرشيـد

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ،
ذكروا من مآقه أنه كان أحد الدين قال لهم أبو حيفة أتم مسار قلبى وجلاء
حزنى ..

وتولى حفص بن غياث للرشيـد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاما وقضاء
بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة فى دين ! .

كان جالسا للقضاء فجاءه رسول الحلفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ
الحصوم : فلما فرغوا لى دعوته .

ومنا عينه أبو يوسف فى قضاء الكوفة بعث الى أهلها يقول : يا أهل
الكوفة أشروا دفرا لكبوا نواذر قضاياه .

وأما عبدالله بن المبارك فكان إماما فى الفقه وبطلا فى المكاره . كانت
أمه خوارزمية ، وأبوه تركيا وكان من أكثر اللاميز رواية للأسناد .. ولما
مان أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلي : يروى عنه الامام أحمد بن حنبل . تولى
القضاء للرشيـد ببغداد وواسط .. وقيل تزوج بنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتا في الحاقه يقطع الى العاده ويخرج من الدنيا في حياته ! .. أرسل اليه بدرة فيها عشره آلاف درهم يسنعين بها على الدهر فاعادها لمصدرها ، وردھا الرسل مع بدرة تماثلها و غلامين قال لهما . ان قبل البدرتين فأتما حراا فدهبا اليه فالأ . ان في قبولك عتق رقابنا قال انى أخاف أن يكون في قبولها وهق رقبتى في النار . رداها اليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا . .

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده اسماعيل ابن حماد (أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للنوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب النوى وأشار الى أبى يوسف وزفر) .

كم بدل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم ! وفي سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير قليل وقيل ..

وفيل بالنخير في فتواه ان خالف الامام صاحباه

وفيل من دليله أقوى رجح .. ودالمب دى اجهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبى حنيفة وتلاميذه . جاءوا الى الحلقة غملا معمودين . منهم الحماة والعراه : ليصروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمدا للفقهاء الاسلامى ، مالا أفئدتهم يمين الرسالة التى بها البهم الأساد العظيم فأضحى ما حملوه منها عصرا أساسيا في نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الحافظ بعد قرن من الزمان وهو يحدث عن اعترار المتعلمين بالعلم . (.. قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطلب الآتار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقها ولا يجعل قاضيا وما هو الا أن يظر في كتب أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر بابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان ..)

كانوا كأطياف الفجر يشرون بالبور الذي سيجيء . يدركون وهم
بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه
نحن الآن معهم ، وما كان يشعره (مشيل أنجلو) عندما كان يقرأ
هومبروس فيقول (كلما قرأت هومبروس نظرت الى نفسي لأتحقق مما اذا
كنت قد ارتفعت عشرين قدماً فوق الثرى ١)

الباب السادس

فالعراق

« الناس سواسيه كأسنان
المشط لا فضل لعربي على
عجمي انما الفضل بالتقوى »
حديث شريف

وبعد فانا لا نهمم حياه أبى حبيبة اذا لم نهمم حياه العراق وبخاصة حياه الكوفة ، فالانسان ابن آبائه واقربائه . وأرضه وسمائه وأشياء ليست أعصابه التى يحس بها أجزاء نفسه فحسب ولكنه يفكر بما فى حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المسقل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

ان هذه الكره تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها .. ١ وما أصغر ذلك الشئ البديع المسمى بالانسان الى جوار تلك الأشياء الجلييلة التى تسمى بالدنيا . وان كانت من دونه ليست هى الدنيا .

در قرن النصبة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول فى التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليا . واندلع لهب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحه والزبير ومعهما أهل البصرة . وأطع الله عليا فى واقعة الجمل فارتل حوشه فى صفين جند الشام اذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه حتى اذا افتر له ثغر البصر رفع حش معاوية المصاحف محكما كتاب الله . وفعل على الحكيم فجدله الحكمان . وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله « لم حكمت فيما هو حولك ؟ » وهزمهم بالسهموان . وفما هو يجهز لحرب معاوية نجحت مؤامره الخوارج فيه فمسلوه غلة . وأحفظ المؤامره فى عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء) الحسين بن على وعبدالله ابن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر (ودعا الوفود لبكلموا فتقدم يزيد بن المصمع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار الى معاوية .

ثم قال : فان هلك فهذا وأشار الى يزيد .

ثم قال : فمن أبى فهذا وأشار الى السيف .

فال معاوية . احلس فانك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فلك لغة السيف . والسيف أصدق
انباء . ولما تولى يريد ثارب المدينة فأسكت جسد الشام صوتها بالرماح .
وبعث الشيعة (أنصار على بن أبي طالب) من أهل الكوفة الى الحسين
يبايعونه فسار اليهم مع أهله ، فقتل هو ، واخوته ، وأبناء عمه في كربلاء

وفي سنة ٦٤ سار جود الشام الى مكة تقاتل عبدالله بن الزبير . اذ
بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن . أما الشام فولى عليها مروان بن
الحكم ثم ابنه عبدالملك بن مروان . وولى عبدالله الزبير على الكوفة المخار
ابن عبيد ثم عزله بأحيه مصعب بن الزبير ودعا المخار ابن عبيد بالكوفة
للعلوين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبدالملك بن مروان
بجيشه الى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فما هو الا أن التقوا
فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت الى عبدالملك ، وقل مصعب بن الزبير
وقدمت رأسه هدية لعبدالملك ! .

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبدالله بن الزبير بسكة فأخذ يبرى
الرواب حتى سالت الدماء الى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن
الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبي فصبه الكوفة ، وسعيد ابن جبير فصبه
البصرة ، وعبد الرحمن بن أبي للى . وتزاحف الصعان في دير الجماجم .
واتتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عن عفا
عه كالشعبي وأهدر دم من أهدر دمه كان جبر فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك الى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما
وسع من رقعة الاسلام في افريقيا .

وفي سنة ٨٥ فنحت جزائر البحر الأبيض . وفي سنة ٨٩ فحب صقلية
وفي سنة ٩٣ خفقت أعلام الاسلام على سواحل الأطلسي في الأندلس . ووقف
موسى بن نصر في ربوعها يفكر في فتح أوروبا.. فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث
يهول : أما والله لو انفادوا الى لقدتهم الى رومية !

وفي الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين ققتل . وفي سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد ققتل في خراسان .

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارث الثائر بن بى أمية واقتتلت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكديهم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم في خراسان ودخل مروفي سنة ١٣ نيسابور سنة ١٣١ وجاء رسله الى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (سنة ١٣٢ وكان التيار في الكوفة يجرى نحو أولاد علي بن أبي طالب فحول أنصار العباسيين الى بني العباس . وهرب مروان الى مصر حيث قتل .

وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبي حنيفة بثمانى سنوات .

في هذه الصورة المحركة عرض لأقطار العالم الاسلامى وبلداته أما المدينة فعية بتاريخها عن العريف وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عبد ملتي دجلة والفراب (سه ١٤ - ١٧) ليكون معسكرا تلجىء اله الحوش من رد الشتاء فبى أبو موسى الأشعري مسجدتها من اللب وسرعان ما احدم فيها الشعب وازدهرت فيها الحضارة . وفي سنة ٣٦ وقع في صواحيها وفعة الجمل ، وفي سنة ٥ بلغ من مائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفي (سنة ١٧ - ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية أن يبى الكوفة فأقيم في موقع صحى على الفرع الغربى للفران لا يفصل بيه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصار ملتي الطرق ومفرقتها بين الشرق والغرب ، وبى سعد مسجدتها في وسط المدينة وبنت الى جواره دار الأمانة . فلم يكدي نصف القرن حتى صار أنيتها من اللس بعد أن كان خاما وأكوأها وأعمارها أقوام من كل حس . من ساميين ونبطيين (شمال تسه الجريرة) وبدو وفرس ، ولم تكدي تبى حتى سرت فيها روح الشعب فغر عمر ولاتها في السنوات الأحره لحكمة ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحووا من عشرين عاما (سنة ٧٥ - ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك حتى اذا ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسطة ، بعيدين عن الكوفة وشغها وتعاها ، وهى قسبة الاقليم فى عهد سى أمية ، وعاصمة الدولة فى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول لبتسعوا الحصاره الاسلامة العربية فى الاقليم . لكن العراق صنع بالوافدين اليه وبمن أسلوهم ما يصنع الاقليم العظيم ، فصرهم عراقين بعد أن كانوا عربا وان كان تحمل حضاراتهم وتحصينهم الطامع المشرك الأعظم . طامع الاسلام

شك الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص الى عمر قائلة انه لا يحسن أن يصلى !! وشكت البصرة أبا موسى الأشعري لأن له علاما حارا (عادرا) هو كاتبه ريار بن أليه اد كان له مائده ويردون وعزل عمر أيا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم واليا .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محاربا فى صفين وهو فى التسعين .
وتسكوا المغيرة بن شعبة . وطردهوا سعيد بن العاص

ولما قدموا على عمر يشكون سعدا - قال « من يعذرني من أهل الكوفة - ان وليتهم التقى ضعفوه وان وليتهم القوى فجروه » . قال رجل « أذا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » قال . « من هو » قال : (عبدالله بن عمر) (انه) قال : « قاتلك الله : فمذ اليوم لا أسميك الا المافق » وقال « المغيرة يا أمير المؤمنين ان التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه والقوى الفاجر لك قوته وعليه فحوره » - قال « صدق فأنت القوى الفاجر .

فاخرج اليهم » . وفي سنة ابن الأشعث بدل رجال الشورى نصحهم لعد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خيرا فكتب الى الخليفة : (والله ان أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون الا قليلا حتى يحالفوك ولا يزيدهم ذلك الا حراً عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأتتر على ابن عفان فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نرعه لم تم لهم السنة حتى ساروا اليه فقتلوه ان الحديد بالحديد يفلح)

وهكذا طفق رجل الكوفة دائم العليان ، قرنا وربع قرن من الزمان واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فقتلوا يرون خلافة الأمويين غصباً وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا في الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسة : وما يزال لهم بضعة عشر من الملايين في العالم الاسلامي كانوا يرون أن علياً أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون انه وصى النبي على المسلمين . وتطورت المكروه فصار منهم من يقول انه معصوم ، وغلا البعض فآلهوه ، وانشعبت الشيعة شيعا وأفراقا حاربها بنو أمية حرباً ضروساً ، فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قلة . حتى كان الأمر الأموي يقول لان يقال كافر أو مشرك خبر من أن يقال من نسل علي

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفي عام مائة كانت طلال الأمويين أحده في الاحسار . وشرع الريح تجري رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بني العباس . فألف على ابن عباس جمعية سرية داب سمعتين تدعو لأهل بس البس وكان الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان ، فلما دخلت جيوش أبي مسلم اقليم العراق كان الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

بويج لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقى بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوى ليكون جديراً في التاريخ باسمه

(السفاح) وراحت سيوف العباسيين تحصد الرؤوس وتقذف الجماجم ،
ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدأوا بقبور معاوية وثنوا بقبور يزيد ، واثنوا الى قبر عبد الملك ، فلم
يجدوا ما يصنعون فيه مثله ثم وجدوا ضالّتهم في قبر ابنه هشام . فألقى
السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسوط .. وصلبها .. وحرّقها . ثم ذراها
في الهواء !.

في هذه المجزرة التي ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر مباحة
الى افريقيا ، لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية
بن هشام بن عبد الملك . عبر البرزخ الى أسبانيا سنة ١٣٩ ليتمكن في اثنين
وثلاثين عاما لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد .
فأنشأ - على العبّير الحربي - رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب
وأن ينقل خلال البحار (والأجيال ، تلك المدنية التي اردت في فجر التاريخ
في أثينا واسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعث حركة الاحياء
العلمي RENAISSANCE من مرقدتها بعد أن مرت في طريقها - كالرسالات
وكالبرد المائية والهوائية - بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما
الهيا .

ولم يد يخيّل الى الباطر أن هذه القلائل كاد تنزف دم الأمة ، لكنها في
الواقع كانت اهتزازات الجسم الذي يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحانا
لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ،
وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما في ذلك الثبات من فض القوة ووفرة
الفتوة .

كان القرن الأول استجماعا لقوى الأمة ، واستعدادا لعهدا الجديد ،
فلقد أدت الامبراطورية السياسية التي وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة
هي حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجيء وهو طور الحضارة
كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التي ألفها كيان الأمة الا
كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الاسلام نفسها في
الوجود ، بأسلوب حديد .

واذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الاسلام بالغزو فقد كان على الدولة الجديدة فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الاسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعت بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

فتعالوا ادن أيها المفكرون ، واحدا اثر واحد ، واسكبوا فى تار الحضاره الذى لا يتوقف الا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من السور . وليحس كل منكم ذلك الحين المعذب الى الابدكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم ... لقد دنت فتره انتقال وأتم همزة الوصل . فصلوا الماضى بالحاضر . وفولوا كلمة الفكر . ان كلمة الفكر هى العليا .

اطلقت العمول الاسلاميه طمأى تكاد تسوب من الصدى . بدأب بالترجمه . فملى الى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والبطنة والهندية . ولئن صح أن اسطمان وماريابوس وابن ابجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن ابجر رئيسا للمصلحة الطبية ، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ان هؤلاء لم يكونوا الا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم الى العالم الحديد فى عهد المصور يعمده جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبا للمصور ولبيمارستان جند يسابور .. ثم توالى الأسماء ترى : قسطنطين بن لوفافوسيد الملة . روزبه (ابن المصع) يفل كليله ودمه وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى . يقلون من الفارسية . ومنكة وابن دهن الهنديان يفلان من الهندية . وابن وحتسه يقل من النبطية كبا فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان لجثوه بالكتب لعربوها . وجاء المأمون بعده بصنع أكثر مما صنع . واسفل الروح العلمى الى وحوه الدولة وادا بيب كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن وثاب

بن فره ، يدفعون لهم شهريا خمسمائة ديناراً للترجمة والتعريب كما أنشأ
الرشيد (بب الحكمة) وعين فيه الفصل بن بوبخت للقسم الفارسي
(الكتب الفارسية) وابن ماسويه من جامعة جند يسابور للقسم اليوناني
(الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولشر ما تتضمنه
الترجمات من علوم . وأتخذ الى بلاد الروم سلماً صاحب بيت الحكمة
والجراح بن مطر وغيرهم ليبحثوا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف الى ثروة الأمة التي كان ينحصر تراثها العلمي
في الجاهلية - في علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال
ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى
والجغرافيا والساب والحشرات وغيرها . وتعرف العرب الى فيثاغورس
وأفلبدس وجالسوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو ، والى النظم
السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الاسلامي في حريته الى أبعد الحدود
حتى لرى بينا كبيت (أمي الجعد) فه سة اخوه . اثنان شعان واثنا
مرحئان واثنا خارجيان .

وكما اهم المصور بالملك والطب عى الرشيد بالرياضيات وأولع
المأمون بالمنطق والفلسفة وأضيفت الى أسماء المترجمين السابقة أسماء
آل بحنيسوع وأبي بشر مى بن يوس ويحيى بن عدى واسطفان بن باسيلي
يقلون السريانية الى العربية . وعلى بن زياد اليمنى واسحاق بن ريد يقلون
من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق الى المغرب . فظهر
ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم . ولم تبق الترجمة
سبيلاً للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فاذا باين الهيثم يبيع في
كل عام سحاً ثلاثاً من نسخة هي (افليدس) و (المنوسطان) و (المجسطى)
بمائة وحمس ديناراً يعيش منها طول العام .

لم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية الى وصلت
العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التي يحمل
أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها في جامع الكوفة ، ولم يكن
المنصور قد مرض بعد في سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه

(حورج أو جرجس) من جامعة جند يسابور وأبل على يديه فانزله وعلماء جند يسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حصيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حبيد أبى جعفر . وادا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فان أبا حنيفة قد أنهى رساله فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمة للعقول .

فالقہ الاسلامی الذى دوى صوب امامه فى الصف الأول من القرن الثانى كان أثرا للوثبة الاسلامة الحالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وان المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحصاره الاسلامية كانت تهتف بها عزيزتها أن تحلذ نفسها ، وليست سبيلها الى ذلك الخلبد عمارة أو بحا أو تصويرا كما صبع الرومان والمصريون واليونان . فلك كانت معاصر دون مفخرة الأمة الاسلامة انى يحويها كتابها من شريعة وعميده ، فكان طسعا أن تدفع مواهب الأمة الكرى نحو أول مقومات الاسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت الى حلقة الكوفه أصواب الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعم الفكرى الذى قدرته العناية الالهية لصرف الدين . وتلب هذه الوثبة الفكرية الوثبة الساسية التى عاصرت فى تحضرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انعاث تلك الفكرة التى خلذب بها الحضارة العباسية نفسها باثناء المدينه التى لم ير مثلها الزمان الى ذلك الزمان « بغداد » .

ليس مصادفة تلك التى جعلت بالعراق حلقة أى حنفة كالجامة فى الصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمد بن على بن عبد الله بن عباس وابنه ابراهيم الامام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خرسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس .

وليس مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ،

وَأَن يَعْمِدَ أَبُو جَعْفَرٍ إِلَى الْإِسْقَاعِ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ فَيُكْرِهُ أَبَا حَبِيبَةَ عَلَى التَّعَاوُنِ مَعَهُ ، وَيَسَاهِي الرُّشْدَ فِي الْأَعْجَابِ بِهِ فَكُلُّهُ بِالْمَجْدَهَامَاتِ تَلَامِيذُهُ .
لَسْتُ هَذِهِ كُلُّهَا مُصَادِفَةً ، وَلَكِنِّي رَوَايَةَ الرَّمْسِ مُصَلَّةَ الْحَلَقَاتِ وَالطَّوَاهِرِ ، يَسْطَرُّهَا بِالْوَقَائِعِ ، وَيَتْرَكُ لِلْوَقَائِعِ الْكَلَامَ . وَإِنِّي أَيْدِي الْعَايَةِ تَحْرُكُ الْإِنْسَانَةَ بِحُورِ مَصَايِرِهَا الْمَحْصُومَةِ . تَرِيدُ لِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ أَنْ تَصِلَ مِنْ عَهْدِي الْحَضَارَةِ .

كَانَ حَضَارَةُ الْعُصُورِ الْأُولَى تَوْشِكُ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا فِي الْبَارِيخِ ، وَتَوَسَّطَتْ عُصُورُ الظُّلُمَاتِ تَكَادُ تَبْطِئُ شِعَاعَ الْمَاضِي فِي ظِلَامِ الْبُلْبُلِ الْمُسْكَثِ ، فَحَمَلَتِ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ أَنْوَارَ الْعُرُونِ الْأُولَى . وَلَمْ يَخْفَتْ صَوْتُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَامِعَاتِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ بَرْزَخِ جَبَلِ طَارِقٍ فِي الْعَرَبِ سَنَةَ ١٤٩٣ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةٍ كَرِيٍّ قَدْ تَسَلَّمَتْ بَرْزَخَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الشَّرْقِ مِنْ حُورِ نِصْفِ قَرْنٍ سَنَةَ ١٤٩٣ . وَإِذَا كَانَ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يُؤَرِّخُ بَدْءَ عَصْرِ الْبَهْضَةِ وَالْإِحْيَاءِ RENAISSANCE فِي الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ ، فَأَيُّ مَجْدٍ لِلْإِسْلَامِ ذَلِكَ الْمَجْدُ ، وَأَيُّ مَهْمَةٍ أَيْ مَجْدٍ مَسَاسِي وَفِيحِ حَرْبِي ؟

هَذِهِ النُّصْرَةُ الَّتِي نَصَرَتْ بِهَا الدَّوْلَةُ الْعِلْمُ فِي الْمِائَةِ الْأُولَى مِنْ حُكْمِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، لَمْ تَكُنْ لَهَا مِثْلُهُ فِي الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يَدْرُسُ الْعِلْمَ فِيهِ وَفِي مَا قَبْلَهُ لِلنَّاسِ .

كَانَ السَّمَاعُ وَأَبُو جَعْفَرٍ فِي الْعَهْدِ الَّذِي عَاشَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي حُكْمِهِمَا ، فِي شُغْلٍ بِالْحَرْبِ مَعَ خُصُومِهِمَا .

فَالْبَهْضَةُ الَّتِي بَهَضَهَا أَبُو حَنِيفَةَ بِهَضَا وَحْدَهُ . وَلِحَسَابِ اللَّهِ لَا لِحَسَابِ أَحَدٍ . وَكَانَتْ نَهْضَةُ أَصْلَةٍ مَقْطُوعَةٍ الصَّلَاتِ بِالرَّجْمَاتِ .

وَلَمَّا كَانَ الطَّبَقُ قَدْ اسْتَفَادَ مَا تُرْجَمُ فِي عَهْدِ الْمُبْصُورِ أَوْ تَوَلَّاهُ أَيْدِي الْأَجَانِبِ ، أَوْ كَانَتْ الْفَلَسَفَةُ وَغَيْرُهَا قَدْ حَدَّثَتْ مَعَ مَا تُرْجَمُ مِنْ فِلْسُفَةٍ أَعْجَبِيَّةٍ ، إِنْ الْفَقْهُ الْإِسْلَامِيُّ كَانَ لَهُ مِنْ أَصَالِهِ وَبَطْنِ شَرِيعَتِهِ وَمُمِيزَاتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَخُصُوصِيَّةِ تَرْتِيقِهِ وَوَفَرَةِ مَنَابِعِهِ ، أَفَاقُ السَّوَابِ

جوستيان الاثني عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلفت الى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقي الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمعته العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

رغم بعض المشرقين أن هناك « آثارا لا تنكر INDJABIE » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الاسلامى ، وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، وإذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدره من المحيط الجغرافى والاجتماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فانه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقته وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع اسلاميا صراحا فى منابه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من حصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشيء أجنبى أو عالج أثرا أجنبيا .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق التسام . فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة ولا يسمع الصول بوجود التشابه أو التأثير الا بعد ان تهدم الخصوصيات المتشابهة الى يسند اليها الراعمون فى الأصول والفروع . وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوفه الناقائلون بوجود هذه الآثار «الى لا تنكر» . كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والنفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتنافس موضوعا ، كما يقول رجال القابون .

ونسب سائع أن يلفف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفه فى مظاهر الفكر ، ليقال من جرائها بشابه الفقه فى الشرائع فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول الفكر الشرقى توافق العقل . وإذا تشابه العرف فى البلدين فنشابه حكمه فهما فلا وجه للقول بشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صله الترجمة العلمية المؤكده باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة

قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة ، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس
يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاما .

أما (الشافعي) فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ،
حتى اذا انتقل الى بغداد ومصر في حاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من
الآثار التي ادعاها المستشرقون . والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته
يدركون كيف كانت كلها اسلامية حالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة . وأما ابن حنبل ففقهه كله
السنة .

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ما قرره مؤتمر واشنطن اخيرا في
سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الاسلامية مصدر للقانون مسنقل عن مصادر
اليوان والرومان .

لم يكد المصور يلي الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حربا ضروسا
في العراق وفي كل مكان ، كأنما كتب القلق على هذا الاقليم حتى ولو
صارت اليه مقاليد الأمور .. وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على داته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالبا أرجح ! انها قد تكون ثورة جهال
فيظهر فيها العلم ، أو ثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلح وضاح
الجبين كالشمس بعد انفراج السحاب !! ولقد تكون ثورة دهباء فتكشف
عن انتصار المعاني الرفيعة في الحرية أو في الدين أو الاقتصاد أو السياسة
أو غير ذلك .. !

ان الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائما . أو كما
يقول الشاعر :

(وحسبك داء أن تصح وتسلم) .

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر والايمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم : ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوروبا ، فأشأت الثورة ايطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الانساني من عقاله ، وجمعت بس الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الانسان ومكت للتقدم الصناعي والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل .

فإذا رجعت الى العراق رأيت عيباك مصداق ذلك . بلدا يثور قربا من الزماد ، على نسه حيناً وعلى غيره دائماً ، دون أن ينصب معيه . بل ان الثورة لتقويه ، وتزكى أنس الساس فيه في رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامزاج العاصر . تبدأ من الجنوب الشرقي للصحراء السورية عند الحدود الفارسية الى جبال حلوان ، من عبادان الى الخليج الفارسي . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفراب ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيب ترتبط في شطاط تجارى بآسيا الوسطى والهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون بالزارادشيه أو بالمسحبة ، وماويون يدينون بمزيح من الرارادشيه والهندية والمسحبة ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسرت الحضارة اليونانية الى الافليم منذ عزوات الاسكندر . وبعد أن أشأ كسرى مدرسة جند يسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثلثمائة عام رعم روال ملك الفرس وقيام الحصاره الاسلامة ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لايو قراط وجالينوس ودسقوريدس واقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم الى السريانية . كما ساعد أهل حران على التواسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحفاطهم بالدين المسيحي وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كان مدرسة جند يسابور محط أبظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القاة الفكرية التي وصلت من العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هذه البقاع ترعرع حصاره يابعة تكتنفها دياباب متابعة .
الرارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون . واليهودية فى الشمال تسبق
الزارادشتية بنحو تسعة قرون . ثم المسيحية تنزل قبل الاسلام فى شمال
جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى . كأنما اخضت السماء بأسرارها غرب
آسيا فى تلك القرون العشرين .

وكان العراق محسوبا على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بينا
بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة اقليمه ، فجمعت فيه احلاط
من المدنات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب . وأرهف حس
نيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد اسلامى ، فعلم
العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن الا أن تسكن النفس سكونها
الأبدى .

وإذا عاش الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين بررب — كالفرد —
ملكاتها الى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفوة .

ومكن لذلك النزاع فى نفوس أهل العراق دين يجب الجهاد فى سبيل
الاعتماد .

احفظ العراق دائما بشخصيته حتى ان عمر لما دون الدواوين كانت
لغة ديوان العراق هى الفارسية الى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ الى العربية
ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوسا .
أما فى خراسان — وكانت تحكم من العراق فقد كان نصر بن سيار أول من
نقل الكتابة الى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية ، ولما أنشئت
البصرة كان الناس ينكلمون فيها بالفارسية ، فعنت بالنحو واللغة لحاجة
الناس فيها الى العربة . كما غلب مركز حركة علمة تحلت فى علم الكلام
وفى الاعتزال . على رأسها الزعم الجسور الحسن البصرى وقد قل ان
الحكمة الى رزقها حاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوح النبى فكانت أم
سلمة تناوله ثديها ادا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آدنت الدنيا
جديد وبقي العراق جوهرة التاج ومنفجرة الحلقاء حتى ان المأمون بعد نحو
فرد من خلافة بني العباس لباهي به عجائب الكنانة ١

جلس في تواضع العالم بين اخوانه العلماء — وكان يسميهم اخوته —
اد ودم الى مصر في أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حث يقول : أليس
لى ملك مصر . فلو رأى العراق وحصصها ؟ فرد سعيد بن عمر عن مصر بقوله :
يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع
فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمر المؤمنين بشيء دمره الله
هذا بقسته ١١.

الباب السابع

ف الكوفة

« يخرج الحديث من عندنا شبرا
فيعود في العراق ذراعا »
ابن شهاب الزهري

اعزب الكوفة بداتها كما اعرب برجالاتها . كان لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قصة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني فبذهب الى علي فاذا قال له علي : ألا أرسلت الى ؟ قال عمر « انى أحق باتيالك » . ويقول له عمر وهو يستسر الصحابة « أب أعلمهم وأفضلهم » . بل كان عمر يتعوذ من معصلة لس أبو حسن لها « علي » .

وكان ابن مسعود أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصححا دونه حتى داع لمصحف العثماني .

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجارهم وفصل أهل الشام عنهم قالوا يا أمر المؤمنين تفصل أهل الشام علينا . قال « يا أهل الكوفة . أجزعتم أن فصلت عليكم أهل الشام . وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » ولما قدم على الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلفا ولا رقة له ولا أحسن محالسه ولا أشد ورعا قال علي « ناشدtkم الله . انه صدق من قلوبكم » قالوا « نعم » قال « أشهدك اللهم انى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه . فقيه الدنيا عالم فى السنة » .

وترسم حتى ابن مسعود فحول يصدرهم علقمة النخعي وكان أشبه الناس به . وتلاههم أفداد فى طلبتهم ابراهيم النخعي فكان يفتنى وينسط للفتوى ولا يخاف اداء رأى ، ثم جاء حماد بن أبى سلمان أساد أبى حنيفة وراوية ابراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والحوارح والأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثارا كالجراح ، اد أخذ الشيعة يصطعون الأحاديث لبصره على ، وأخذ خصومهم يحلقونها . لبصرة مخالفه . أبى بكر مرة . وطلحة والزبير مرة . ونى أمة مراب . كما أخذ أنصار بنى أمية يحلقونها صد العباس . وأنصار نى العباس يحلقونها ضد العلويين

وصد الأمويس . حتى قيل في زمن متأخر ان الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث في مقل على . وتدحلت أطراف أخرى في النزاع . المعتزلة وغيرهم يحلفون ضد الخوارج ويخلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعا : كما دس خصوم الاسلام أحاديث كثيرة على النبي . ثم تطورت أسباب الاخلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسي أو الديني . بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبح الأحاديث تخلق للحلفاء وللأفراد ولكل شيء . فتسمع أحاديث عن تطير الحمام عن التمر والعجوة !

ولم يسلم أبو هريرة رضي الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبي أمر بقتل الكلاب الا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد . أو كلب ررع .. فقال : « ان أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » .

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين الى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! في المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفي صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع في زمن لاحق أن يقول انه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح ابن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغاري بن اسحق فوضعتها حسبة » !.

ومساعد بعد العراق عن مهبط الحديث في الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا الى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة الى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهري أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق « يخرج الحديث من عندنا شبرا فعود في العراق ذراعا » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله « ما قيل من قول حسن فأناقلته »
فليسب الوضاعون اذن كل الأقوال الحسة الى الرسول ا ذلك ما عبر عنه
أحد المنشرقين تعبيرا غريبا بقوله « انهم يضعون أوراقيهم على المائدة
ولسان حالهم يقول « هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو
مسنحب والسي كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي واشجرت الآراء بينهم في
الفتاوى تنعا لملع علمهم بالأحاديت والسنن وافعالهم على ابداء الرأي وتأثير
البلدان الى اسوططوها في آرائهم وتقليدهم ومن تم جاء خلافات المدية
من ناحية وسائر الأمصار في النواحي الأخرى وبخاصة في الكوفة . اذ لم
يكن مستظاعا أن تكون السة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل
المدينة وقد شاهدوها وشاركوا في تطسها حلا بعد جبل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حس كان أهل المدينة آلافا .
ولم تصل السة الى الأمصار الا على مهل . فلم تظهر في الحياة العامة
في العراق الا في سنة ١٦٠ . بل في سجسان - في أواخر القرن الثالث
وأوائل القرن الرابع - كان الرواج يعقد في أوضاع تخالف السة حتى طبقها
الاصطخري قاصي « قم » . وفي خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوي
هو البخر بن شمل ضعه فومه فخرج من البصرة بلمس الررو فشيعة بلاثة
آلاف من المحدثس والسخويس والعروصس واللغويس فلما احنموا قال
« يعز على فراقكم . والله لو وجد كل يوم كلجه باقلي (مكبال فول)
ما فارقنكم » فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعه ومودعه ١١ وسار حتى
وصل الى مرو وخراسان حيث جالس المأمون في افامنه بمرور عليه خلقان
فأحز بشماس ألف درهم لصححه حديثا واحدا في مجلسه .

ولم تكن السنن في كتاب ذي مناهج يعرف الناس ونصوصه ومدى
تطسقه ، ولا كان الولاة يعنون تعلمهم . بل ان الولاة كانوا في شغل بالدنيا
عن الدين .

كان بنو أمة ملوكا دبويس لا حلفاء دبيس . اعرض أبو الدرداء على
رأس السب الأموي معاونة ، لسعه سفاية من ذهب أو ورو بأكثر من وزنها

ذهبا . قال . سمعت رسول الله يهى عن مثل ذلك قال معاوية « ما أرى بهذا بأسا » . قال أبو الدرداء « من يعذرني من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويحبرني عن رأيه . لا أساكنك أرض » .

أفقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المحرّبة دون أن يحترفوا طلامها بسهام من النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعا للظر في المصالح وتعمل الصوص يزدرى الامعاب الطائعة ويقول « أغد عالما أو متعلما ولا تغد امعة فيما بس ذلك » فالاستقلال والاجتهاد في الفقه ميراث أهل الكوفة يسوارثونه كابرا عن كابر .

فقيم الخضوع للمسلمات اذا لم يؤيدها الدليل الهاص ؟ واذا سبق الفكره فقيم يحى المفكر أمام المكر ! واذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ واذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ واذا انصح الباب للبحث عن الرواه ، كان لراما أن يسر الباحث الى النهايه ، فدرس الرواية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذى أتيح له حقبة نادره من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولس الأمويه والعباسيه الكرى ، وتحرى بين يديه التيارات الفكرية الحطره فى تاريخ الحصاره الاسلاميه وهو عاكف على تلامذه يسبح سبحاته معهم فى آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شىء حائل ومسل الا هؤلاء ، الثابسن الصادقس عن أسباب السحاء والسحائم ، يجودون بنشاط جسمى وفكرى عجب ، تشجد عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة . فلسسح هو وتلاميذه الى الصوت الذى لا يحف فى صجة المذابيح وفوضى الخليط ، والذى يهب بالمؤمس أن ضعوا حدا للفوضى . وارسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام . والخطوط التفصيلية للفواعد التى يطلبها عالم ترامى أطرافه بين الصبن والمحيط الأطلسى ، فلم تعد جزيرة العرب الا بواه أو مركزا للدائرة .

واذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة فى عالم السامه هو الحصاره الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسه الجديدة فى عالم التشريع

هو فقهه أبى حيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحرى الدقيق للروايات .
فليافتس كل شىء حتى لا تذيع الآراء الرائعة وتذهب قواعد النيان التشريعى
الدى تأوى اليه الحضارة .

افترى كاتب للمدينة الموره فى وسط الحريره ، وهى قلب العالم
الاسلامى ، تصر على هذه الحركة التورية ؟

ان للمدينة سلطانها الدينى والباريحي الدي تعمو له الجباه . فهناك
أدام البى وهالك يشوى حسابه وهالك عاشب الكثرة الغاله من
الصحابة وأمهان المؤمنين تصدرهن الراوية الباعه عائشة س أبى بكر .
وهالك الرواة من هؤلاء والرواه عنهم ، يقنفون آثار زعيمى الحجاز
عند الله بن عمر ، وعند الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء ركابة ومكابة والماما
بعهد الرسول وعزواته وفعاله وكلماته « وأحاديت الحلفاء الراشدين
والصحابة الأقريين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البركة
والكرامة ، تصفى على كل شىء فيها فيوصا من التحلة والاكار .

كانت المدينة كعبة القصاد لمن شاء أن يتفقه فى الدين والتاريخ
والتفسير وما اليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهاها الاثنى عشر
المعدودين - بارحها الى الشام لكون حلقة المسلمين ومعه رميله فى الدرس
قيصة بن دؤيب ليحعله على حاتم .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعت به الى المدينة ليعود
ثانى العمرين اللدين يهز الاسلام بمعارهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حيفة امامها العظيم مالك بن أنس ، الدى لا يصى
وهو فى المدينة ، حميد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ولم يكن من
طراز رجل الكوفة يصايح التلاميذ من حوله أو يحطونه وحاهها بل كان
رجل تقاليد بحق . يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحد
صوته فى مجلسه . وبلغت مكاتته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور
معه المهدي فى سنة ١٦٠ هـ فى ساء السب الحرام ولما هم أبو جعفر أن ينسى

السب على ما بناه ابن الزبير على فواعد ابراهيم ساوره فقال « أشدك يا
أمير المؤمنين لا تجعل هذا الست لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن
يغيره الا غيره فتذهب هيئته من قلوب الناس » . فصرفه عن رأيه

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك
وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأفهم مالك
وتره عنه وهو العلم بمكانة أبي يوسف من العلم . بل قال الرشيد « ها هنا
بيان من قرئش من تلامدنا من يلح حاحه أمير المؤمنين . »

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عر عنه مالك لليت بن سعد وهو
« ان الناس لأهل المدينة الى اليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .
وكانت حصارها بسطه غير معنده ولا مشوبة بتحليظ . المشاكل فيها
قلائل ، والوقائع تشابه وتشاكل . فادا عرست مسألة فان لها أشباها في
السوانق وحكما في الصوص يسطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصعوا
حيرا مما صاع آناؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متوعون . ومن عقيدة التابع
أنه ليس كالمبوع وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أى جيل بعده أو قبله
كحيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة ففي ذلك الأقليم من أقصى الجريه حيث لم تك مادة الفقه
والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يفسس الناس فيه في كل مكان كالمدينة،
فادا أقل سوها على العلم أقلوا في تسامح المحيط الواسع الذي ينادى
بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد
تؤسهم مدينة كبره ، وتكتفهم معاملات وتحارات وبوارع شتى وفور
حصارة تحتاج في كل وقت الى الرأى الحديد ، لا تعى عنه الصوص القليلة
المتداولة . حائوا يدلون بدلوهم في الدلاء ، يتحرون ويقرون : لم تكده تهذا
رحلهم بعد ، ولم تكن لهدا الا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط
المادى والمكرى أو يعورها الكلال والهرم .

لقد تلامر الاحتهاد والجهاد في تاريخ الاسلام ، وتحالف الركود
الفكرى والركود العسكرى السبى من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفة تقول بالحلق والابكار واسنعصم أبو حنيفة فيها
بالرأى وبالنشدد فى قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة
وأشاعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهي فتحول الى خصام ، وأعلنت حرب
المذاهب ، بس كلمات قارصه كقول القائل « وضع أبو حنيفة أشياء فى العلم ،
مضغ الماء أحسن منها . » ومستتبعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد
وعدا فعه العراف هم الحجار المقيم المعقد ...

عرب الوالى الى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس
أن تلقاه فكانت تأتيه الفتيان على حمير يكرونها على الرغم من أمر الأمير .
فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرى الى
المتسر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساد فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون
على ويحسدونى قالوا « سنا وبينه واحده » قال « ما هى » قالوا : نجتمع
حمير المكارين ونرسلها بعرفات فان لم تقصد الى ييه لما تعرف من اتبان
الحراب والسفهاء ، فالقول ما قال . قال الأمير ان فى هذا لدللا . » وأتى
بالحمير . فجمع ثم أرسل ففصدت نحو منزله قال الأمير : ما بعدها شىء
جردوه . فلما نظر الى الساط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على
من تسخر ما أهل العرا و فيقولوا أهل مكة يحرون شهاده الحمير ١١ وضحك
الأمير وقال « والله ما أصربك اليوم » وأمر بتخيلة سيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر فاض حنفى هو اسماعيل بن البسع
الكندى يهوى برأى أبى حنيفة فى ابطال الوقف فذهب اليه اللث بن سعد
يقول « جئت محاصما لك فى ابطالك أحباس المسلمين (أوفافهم) » . ثم
بعت الى الخليفة يطلب عزله وهو يقول « انك ولسا رحلا يكبد سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم . على أنا ما علمناه فى الدرهم والديار الا خرا » .
وعزل الخليفة فاضيا كل جريرته عند اللث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف
مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب
المقاييس وهم الحنفية) :

كما من الدين قبل اليوم في سعة حتى ابتلينا بأصحاب المفائيس
قاموا من السوق اد قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأي عند الفقر والبوس
وكان شرشبر المدي يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة .

عدي مسائل لا شرشير يعلمها عند السؤال ولا سب سرشير
ولا يصب فصوص الحق يعلمها الا حنيفة كوفية السدور

بلى . كاب هالك حنيفة وكوفيه في جانب ومديون في الجاب
الآخر . بل كان ثمة مديان تباريان . وان شئت فقل مديتين أو فكرتين
الجديده المسوفزه الراغبة في الخلق والاندفاع والقديمة الهادئة الراغبة عن
الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب الفيلد وحزب الاجتهاد وتأرجح
المفكرون بين الآراء ، فرأيا رجلا كالصرب شمل كان يعدح في أبي حنيفة
في مجلس المأمون بعد أن كان يمدحه يعود مره أخرى فقول لا تروعا كل ما
يقول في أبي حنيفة فانا نقول عند العصب أنباء لس لها حمقة » وتصرم
الأعوام ويشد الحصار فروي الطحاوي - وهو من أئمة الحنفية - أنه كان
يذاكر في بعض المسائل أنا عبد الله بن الحسن بن حرب المشهور « بحربويه »
فاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه ما هذا قول أبي حنيفة . فقال « أيها
الناضى أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال « ما طننك الا مقلدا » فقال
الطحاوي « وهل يقلد الا عصبى ؟ » قال « أوغى » وطارب الكلمة فصار
مثلا .

ولما قامت مدرسه الشافعى بعد نصف قرن من موت أبي حنيفة برز
حشم شديد . وتطاحب المذاهب أيما تطاح . وادا بملكس بل والد وولده
هما العادل سيف الدين بن ايوب صاحب دمشق يقول لاسه عسى شرف
الدين « يا ننى كيف اتخذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ »
فيحبه اسه فائلا « أترعون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد » وابرلق
القوم الى هوه الحمد فدهور المندعون الى حت تعمى القلوب وادا برحلس
من « الحطاسة » يسفنى أحدهما الآخر في أن يشهد على شافعى بالكذب

فمقتيه بقواه أأست تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع
فساده عن المسلمين !!..

وداب يوم أمر قاضى الحارث بن مسكين باخراج أصحاب أبى
حيفة وأصحاب الشافعى جميعا من المسجد .

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوما بن يدى السلطان فسألهم
فى بساطه من أين أبو حيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟
قالوا : من المدينة قال « عالم دار الهجرة يكفنا » وأمر باخراج أصحاب
أبى حيفة وقال « لا أحب أن يكون فى عملى مدهان »

وأخيرا ذهب الربد جفاء ومكث ما يجمع الناس فى الأرض وأنزل الله
على قلوب الحرس سكينه وأما فكانت نار الخلاف بردا وسلاما وغدت
وحوه الزاع سباقا لنصرة الدين . وكوزا نقلبها بن أيدينا لنأخذ منها مثلما
نأخذ من وهج الشمس واحذار الماء واحتماع السالب بالموجب ، فوى خالقه
جبارة تأتي بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق (اخلاف أصحاب محمد
رحمة) ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال « ما سرنى باخلاف أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم حمر العم » وأء قال « ما سرنى أن أصحاب
محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يحتلفوا لم تكن رخصة » . ولما قال الرشيد لمالك
ليكتب « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحمل الناس عليه كقابون مدون . قال
يا أمير المؤمنين احلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح
عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اخلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا
ولا ينجم العداء الفكرى الا بين الحمقى والمتنطعن : ألا هلك المتنطعون .

الباب الثامن

الفقه

« ابی آر ی، لا اکثر . وأومن لا أقل »

« أما مستقلى فلا أضعه نصب عینی »

فیکتور هيجو

« ابى أرى وأومن . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبى حنيفة
فى كلمة جامعة ماعه أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فانها
أمور تجيء فى المحل الثانى أو لا تجيء أبدا .

مصدر التشريع الاسلامى هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه
بحو مائتى آية من سنة آلاف كانت تنزل على النبى فى الماسبات ، فنعريف
القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه
الامة ، اد لم يهمل عقولها ولم يلقنها الحرثيات تفصيلا ، وكان الرسول يتولى
تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ،
بالقول أو بالفعل أو بالإجازه ، وهو ما اصطلاحوا على تسميه بالسنة وصار
بطبيعته مصدرا تاييا للتشريع .

فى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبى فى
نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو
يولى شريحا قضاء الكوفة ، اد قال « أنظر ما تبين لك فى كتاب الله ولا تسأل
أحدا ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم ينبس لك فى السنة ،
فاحمد فيه رأيك » ، وفيما كبه الى ابى موسى الأشعرى من أن « القضاء
فريضه محكمة أو سنه .. الفهم الفهم فيما تلحج فيه صدرك مما ليس فى
كتاب أو سنه ، أعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك » .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى الا لضروره ملجئة ، كب كاتب لعمر :
« هذا رأى الله ورأى عمر » فصاح به « بئسما قلب . هذا رأى عمر . فان
يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمن عمر ... »

ولما أفتى ابن مسعود فى صداق امرأة مان زوجها قبل أن يدخل بها
ولم يهرض لها صداقا ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من سائها ، وأضاف
« فان يك صوابا فمن الله ، وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله
بريئان .. »

الى هذا الحد بلغ تخرج الرجلين اللذين هما زعيما الرأى فى
الاسلام ... ١

كان الخلفاء الراشدين يستشيرون عماء الفكر من الصحابة اذا استغفلت وجوه الأمور ، وكان عددهم محصورا ، فكان الاجماع ميسورا ، وكان لأبى بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو اليه رجالا من المهاجرين والأنصار معهم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت فلما خلفه عمر كانوا فى طليعة مستشاريه . ولم يكن عمر يتردد فى الرجوع عن أخطائه ، فضى فى عام من الأعوام بحرمان الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم والزوج فى الميراث ، وفى عام آخر أشركهم جميعا فى ثلث المال ، وقال : داك على ما قضينا وهذا على ما نقص ... ولم يقض حجه « الشئ المحكوم فيه » كما يسمونها فى الفقه الحديث .

ورفعت اليه جارية سوداء متهمة بالزنا فحفظها بالدرة حممان وقال « أى لكاع زنت .. قالت مرعوش بدرهمين » تريد صاحبها الذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ما ترون ؟. وكان عنده عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ، قال علي : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن . أرى مثل ما أرى أحوط فقال لعثمان ما ترى ؟ فقال انما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدق . ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أيها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .

ورفعت اليه قصة رجل فسلته امرأة أبيه وخليتها فتردد ... هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال علي : أرأيت لو أن نرا اشاركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمر الى عامله أن يقتلها فوالله لو اشارك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلهم .

ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون أربعة أخماس الغنيمة مستندين الى ظاهر النص فى الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين هذا ما أفاء الله علينا بأسياقنا قال عمر هذا رأى . قالوا : استشر .. وأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار

عثمان وعلى وطلحه وابن عمر برأى عمر . فلعى عشره من الأنصار قال فيما قال « قد سمعتم قول هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ... أرايهم هذه الثغور التى لا بد من رجال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ؟ » وأشار برأيه المستشارون .

وفى ذلك يقول أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بس من اسحقها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » - ذلك بأن الخراج إنما يصرف فى شئون الدولة . فيعم به النفع كافة المسلمين بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هى التى نشر الاسلام فى الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من دويها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولتأملت أسماعهم بالصمم صوب الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التى تسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العاملين .

وفى عام المجاعة عطل عمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الباقية بل عرم وليهم ثمنها مضاعفا لأنه يجع غلمانا .

وفى الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الاسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة الى تأليف القلوب بالعطاء .

وفى لا بص فيه كم كانت لابن الخطاب اجتهدا .. فهو يعهد بالخلافة على عمر عهد أبى بكر ، ويوصى بانتخاب الحليفة من سنة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار فى العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أديانا ثانيا لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الامام ، مع ما هو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . واما خشى عثمان الفتنة لتفريق

الحفاظ واستبهادهم وتناعد أطراف البلاد ، واحمد على كاحماده فى حد
قتل الزبادة فجعله بالحريق فى الأحاديث اد رأى المصلحة فى النجر عن النجر
الشع بالعقاب الشديد واحمد فى فصائه الذى كان مصرب الأمتل .

وفى عهد بنى أمية تفرق الصحابة فى الأمصار فكان لكل مصر من
الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث
والمعارى . فلما جمت الخلافات السياسية التى المننا بها فى الباب انماق
نجم معها شر مستطير ، فادا بالحوارج ولهم فتاوى والشيعه ولهم فتاوى
ولسائر الأمة فتاوى — وادا بقبس من السور يترأى فى اجتهادات بعض
الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد الزاما لظاهر النص فى
الآية ، وظاهر اللفظ فى الحديث ، حشية الزلل بل ذهب البعض الى القول
بأنه لا سوى لديه ادا لم يكن النص بين يديه .

قالوا أدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى عشرين ومائة صحابى ما مهم
رجل يسأل عن شىء الا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثا الا ود أن أخاه
كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمنع أن يفتى فى مسائل بداتها كسفيان بن عيينه
لم يك يفتى فى الطلاق ويقول « من يحسن هذا .. ؟ » ولما أعجب به ابن حبل
قال فيه « ما رأيت مثل ابن عسء فى الفتوى أحسن فيا منه كان أهون عليه
أن يقول لا أدرى » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يضى الا وهو يقول « اللهم سلمى
وسلم منى » بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدرى فانك ان قلت
لا أدرى علموك حتى تدري ، ولو قلت أدرى سألوكم حتى لا تدري ..^١

سأل رجل من العرب مالك بن أسس فقال . لا أدرى قال السائل تقول :
لا أدرى قال نعم . فأبلغ من وراءك لا أدرى ...^١

ودات يوم سئل فقال . لا أدرى . فقال السائل انها مسألة حضة
سهلة وانما أريد أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك

وقال (مسألة خفيفة سهلة ! ليس فى العلم شىء خفيف أما سمعت قول الله تعالى . « انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ..)

وقال مالك يوماً ابى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن .

وسئل أربعين سؤالاً فقال عن سنة وثلاثين سؤالاً منها : لا أدرى . وكان علامه الباعين الشعى يقول « لا أدرى نصف العلم » قال : لا أدرى يوماً ، فقال له السائل : ألا تسحى من فورك لا أدرى وأنت فقيه العراق ؟ قال لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله « لا علم لنا الا ما علمنا » .

كانت أطراف الامبراطورية الاسلامبة قد ترامت الى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك امبراطورية القاصرة ولا امبراطورية الأكاسرة الا بعض أحرائها . لقد عرب الصالى الاسلامبة الى الررخ الذى يحمل مفاتيح البحر الأبيض لدى المحض وشرفت كالسهم تحسرو آسيا الى أقطار الصين ، وتضاعف المسائل والمتساكن والأشخاص والأشياء ، فكيف تعنى نصوص بلغت من الدرة ما أحصا ، وتخرج من الافاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدرى » توحى سعطل الفنيا .. !

لم تكن الحصاره النى يجنها ضمير الغيب للاسلام ، والفتوح السياسية والفكرية النى أرهت فى عهد بى العباسى ، لنم أو تزدهر فى أجواء هذا الحرح الفكرى الذى يضطرب فى فوده الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تسبق الزمان وتسبق حضاره بنى العباس قبل أن تقوم دولة بنى العباس ، فلم يك للأمة عى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولاً تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفقه كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والايمان به ، والقدرة التى هى شرط النكليف .

فهل استجابت قوى الأمة الى ماجاش فى صدرها من خلجات وحاحاب ؟ هل فسحت المجال الحوى لمواهب منها لنرى وتنتشر وتطر

فى كل مكان ورمآن على أءرف الهءاء ، كما فطر الصوب على ألف ءناء وءناء من موباء الهواء ؟ وعبارة أخرى هل فءمت هءه الأمة الءلل على فوءها وءوفاها وأصالة ءضارءها ؟ فالءولة الءفة كالبءم الءى اءا ءربها الأمور ببص ءلبها أقوى ببصاءه وءءمب فواها ءءمب الأسد للوءوب وءفبب الى الوءوب من فملاؤن الفراع كله ، وفءققون الرءاء كله ، وءفببوا الى الامام ءائما وباسءمرار .

بءسببا أن رءب البصر كره واءءه لبرى مقءار ما اسببب المءفة الاسلامفة الى ءلك الءاء الصاءم ءنءما ءبوابب فى ببببها أصءاؤه ، ومءى رسوخ هءه الءنففة السمة وءوءءها الى الأعماق وبرى الى ءوار ءلك فصل السبب الءى ءفء ببببة الامام المءلى فى ءلبة الفمب والعلم والءى ناءءه الءصاره الاسلامفة فى كل عصورها بأنه « الامام الأعظم » .

ففى سنة ٨٠ وءلء أبو ءنفة ، وفى سنة ١٢٠ كان فلفى على الناس أصول مءرسة الكوفة فءوبها أبو فوسف وءفره من البلامفء على ما أسلفا من بببب وفسبببها من بعءهم رهط كبفر من العلماء ءللأوا فى سماء الءولة العباسفة الى لم ءءأ ءفاءها الا فى سنة ١٣٢ وارءهرب ففها الءضارة العلمفة فى أيام الرشفء فى أواءر القرن ، وفى أيام المأمون وما ءلاها فى القرن ءالء للهءره .

أما الأوزاعف امام السام فولء سة ٨٨ ، ومالك بب أس امام المءفنة وءلء فى سنة ٩٣ ، ورفر ابن الهذفل وءلء فى سنة ١١٠ ، وأبو فوسف وءلء فى سنة ١١٣ ، ومءمء وءلء سنة ١٣٢ .

وفى سنة ١٥٠ و ٧٦٧ م هوى بءم وبزغ بءم فماب أبو ءببفة ووءلء الشافعى ، وفى سنة ١٦٤ وءلء رابع الأئمة الأربعة ابن ءنفل ، وفى سنة ١٧٩ (٧٩٥ م) ماب مالك ، وفى سنة ٢٠٢ وءلء ءاوء الظاهرف امام أهل الطاهر ، وفى سنة ٢٠٤ (٨٢٠) ماب الشافعى وفى سنة ٢٢٤ وءلء الطبرى وفى سنة ٢٤١ (٨٥٥ م) ماب ابن ءنفل .

ظهر هؤلاء الأئمة جميعا بعد أبى حنيفة بسنين وعشرات السنين ملبيين
لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذى استجابت على يديه العناية
الالهية لهناف الاسلام .

سئل أبو حنيفة عن خطته فى الفقه فأجاب « ابى أحد بكتاب الله ان
وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التى
ثبت فى أيدي الثقات ، فإدا لم أجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت
بقول أصحابه من شئت : وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى
قول غيرهم ، فإدا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين
وسعيد بن المسيب — وعد عدة من مجتهدى التابعين وتابعهم — فلى أن
أجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابه هم الدين كات لهم صحة بالرسول طالت أو قصرت على ما
رأى المحدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخارى . أما التابعى فهو من رأى
صحابيا ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لى أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هى المسألة الأولى لأبى حنيفة .

وإدا كان أبو حنيفة ينحنى أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول :
ان مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا
جميع عمره وان طال « فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم
بأيهم اهديتهم اهديتهم » . وكان أحدهم يرى رأى فينزل القرآن بموافقته
كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقته ،
ورأى أن تحجب نساء النبى ونزل القرآن بموافقته . ورأى أن عبد الله بن أبى
مافق ونزل القرآن بموافقته وموافقات عمر للقرآن والوحى ، تبلغ بضعة
عشر موضعا .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خسر المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود « من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ... »

لكن أنا حنيفة اد يحيى أمام أصحاب الرسول لا ينحنى لسواهم من التابعين ولا تابعى التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كاراس بابليون في ست هيلين بعد ألف عام من وفاة أبى حنيفة . لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير منذ كنت في برلين ؟ أجاب « لقد كان معى سيفى . » .

كان فقه الكوفة مطبوعا بطابع ابن مسعود وكان كعمر يجتهد فيرى رأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه ابراهيم النخعى « انه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتماعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف » .

سئل أبو حنيفة . اذا قلت قولاً وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال أترك قولى لكتاب الله . قل فاذا كان خسر رسول الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولى بخبر رسول الله » . قيل فاذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بقول الصحابى » . قيل : فاذا كان قول التابعى يخالف قولك .

قال « اذا كان التابعى رجلاً فأنا رجل ... »

أحل هو رحل والرجال قليل .

انه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كما كان بعض زعماء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الاسلام العامة كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » أو قوله اذا امرتهم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعالى « لا اكراه فى

الدين » . أو قوله سبحانه « ولا ترر وازره ورر أخرى » وغير هذه القواعد الكليات .

تلك المسألة الأساسية في فكر أبي حنيفة كانت نقطة التحول في الاتجاه العلمي للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة رواد الفكر الانساني وليسبر أعواره . ولتقلب الصوص بن يديه في جواره لا تهاب الافشاء ، فادا أصاب فهو مأجور ومأجور ، وادا لم يصب فالعصاة لله جميعا .

قال صاحب التريعه . اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وادا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقاله لصاحبه الصديق والعاروق (قولاً فاني فيما لم يوح الي مثلكما) ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقع بدر في المكان الذي يربط فيه أخذ يقول له (.. يا رسول الله ان هذا المكان الذي أت فيه ليس بمنزل ، اطلق بنا الى أدنى ماء الصوم فاني عالم بها وبملها ، بها قلب قد عرفت عذوبة مائه لا يزح ثم نبني عليه حوصاً فسترب وهاتل .. فنهض ففعل ذلك .

ان لأبي حنيفة رسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائماً مثاب ، لأن الاجتهاد في داته صواب أو كما قال أبو حنيفة « المجتهدان مصبان والحق في واحد » وكما قال الشافعي « المجتهدان مصيب ومحطىء معفو عنه » وادا تحاض المسلمون على الجهاد في سبل الدين ، فلسحاض العلماء على الاجتهاد في سبل العلم .

وليفع أجر أبي حنيفة على الله مصباً ومخطئاً ، ولشوق للناس هذه الطرائق المعبده التي يسرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبوننها خلقت موطأة الأكاف كما هي الآن ، وكاب من قبل أصق من سم الخياط وأكثر ترويعاً من المسعة .

ان الكشف العظمى الى سجد منها العالم أبجديات حضارته اليوم كانت في ظلمات الجهل الانساني أعداماً ، وكان العالم حرياً أن يظل سادراً في جهاله بها أزماناً لو لم تكشف له .

فلس بهس عمل أبى حيفة فى اعمال الرأى ادا كنا الآن نأتى بالرأى فى كل شأن ، فان هذه الحرية الفكرية لم تقرر الا بعد أن خط لناثلة من العباقره مسالكنا فى الشعاب واقنف آثارهم نخبة الطلائع ، وجاء فى أعقابهم عصور الاحياء فى الغرب وتوراب دينه وفكرية لولاها لما بلغ الناس ما بلغوه من سريه التفكير والعسر .

أما أبو حسة ففض الحجب واسنطاع من ألف ومائتى عام أن يقول :
ابى أرى .

وفى السنن والاحشاح بها كان لأبى حسة شئون أخرى .
السنة هى الطريه .

وهى فى الفقه ما جاء عن رسول الله من أفعال أو أفعال أو اقرار لأقوال أو أفعال صدرت من سواه . وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تطل السا ، أو احشادا مجتمعا عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام « عليكم بسى وسه خلفائى الراشدين المهديس تمسكوا بها وعضوا عليها بالبواجز » .

والاحشاح بالسسه تكون بالأحاديث انى تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواه الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق التوتون بالحبر فى أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فمهاؤهم بما يوافقهم أو يجرى عليه عملهم لا يحلمون فيه ، لأنه عن مشاهدته جبل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السسه العمله ، أما أفعال النبى الشخصية كالحرب أو معاملته لروحاته ، فلك أمور خاصة به وبالدنيا وهو يقول « أنهم أعلم بأمور دنياكم » .

لكن حالة الأمة والحلافات الى شجب حرص على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب الداخلية ، وكان كل حزب يزكى رأيه بالحديث الصحيح

والحديث المخرع ، وكثر أسباب الاحلاق كما يبا من قبل . وأصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب - كما قال الدراطى - كالشعره البيضاء في جلد التور الأسود ، وفتس في الكوفة الفالاب لكثره الشفاى ، وقلة الرواه ، ولأن الثوراب لم تكديرخ روعها بعد ، حتى كان مالك يسميها دار الصرب « ضرب العملة » ، اذ تسك الأحاديث كما تسك النقود .

وكان التفاه من الرواة يخلعون في الصوص عن الحديث الواحد منهم من يحار كلمة تؤدي معنى بدلا من أخرى تحيرها غيره ، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه ، حاء في بصره الخلاف من الرواة ولم تكن الأحاديث كلها نقلا عن النبي بل كان يشرك في بعضها الصحابة وكانت لغة الناقلين متغايرة وظفهم مختلفا فسج من ذلك احلاف كبير بعضه بحسن نة الناقلين باهمال ، وكثر منه خال من الاخلاص ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق يستطيع الاحاطة بجمع الأحاديث ، ثم ان من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان . فالفاروق نفسه نسي فذكره عمار فلم يذكر .. ا

سئل عن الرجل يجنب في السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلى حتى يجد الماء فقال له عمار يا أمير المؤمنين أما تذكر اذ كب أنا وأنت في الابل فأجنبنا أما أنا فتمرغ كما تمرغ الدابة ، وأما أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال انما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه فقال عمر اتى الله يا عمار . فقال عمار ان شئت لم أحدث به . قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث اذا رواه واحد الا اذا استشهد على روايته شاهدين . وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان اذا قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسئلنه الرعدة وقال هكذا .. أو نحوذا أو قرب من ذا .. وكان ابراهيم الخعى لا يقول قال النبي وانما يقول قال ابن مسعود أو قال علصة .. وكان الشعبى يقول « كره الأولون الصالحون الاكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما اسندت ما حدثت الا بما أجمع عليه أهل الحديث »

وإذا كان ذلك شأن الحلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يحصع له أبو حيمة بعد أن بلغ السيل الزوى ، وهو الذى لا حجة عنده للثابت الصحيح

أفيمنعى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعده ؟ أفضل قول أهل المدينة ان الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !.

سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر فقال مالك : ما أدري ما أذان يوم . وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤدون فى حياته وعند قبره وبحضرة الحلفاء الراشدين بعده ! يشير الى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

ان أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالسنة ، ويجب لذلك عنده أن تكون مواترة والا فمتهوره ، وإذا وجد الص فوجب أن يكون فهمه على وجه يصدق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل المواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ . وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تصافلها الأجيال . وسبب ذلك أن أعمال الرسول هى وسيلة تطبيق الأحكام وردت فى القرآن يحاكمها الناس ، فيتعلمونها ويوارثونها كأسلوب الصلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث فولى متواتر

فان لم يكن الحديث متواترا فيجب أن يكون الراوى عدلا موثوقا به ينقل عن عدل موثوق به ، وأن تكون الأمانة والمفهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يحالهم أحد فيه لأن هذا يدل على اقرارهم لهم ، اذ لو كانوا يخالهموه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التى آلت إلينا

عن عمرو بن مسعود ، روتها عنهم جماعة بعد جماعه ومنها حديث .. (لا ضرر ولا ضرار) وحديث (انما الأعمال بالنيات) .

أما ما يخالف القرآن من السنه فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد السى يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول — وما أكثرها — فلا يطمئن اليها أبو حنيفة وان كان الكثير منها فى نواح أخرى من المسلمين .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وطواهيره ، والسنه ، فان خالف ظاهر القرآن استبعدها وأخذ بالقرآن ، وان خالف السنه المشهورة استبعدها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف وان طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها اذا خالف العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، واذا حاءت أخبار الآحاد مخالفة لماعده من قواعد السرعة فلا يعمل بها ، ولا يصلها فى الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا فى الكفارات ، ولا يقبل حديثا عمل راويه بعد روايه بخلافه ، ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو اذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقيين قلائل أمرهم عمر لا يحدوا الناس . واليك مثلا : كان حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان وكان حذيفه يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه فى الغضب ، فيطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفه أعلم بما يقول وعاتب حذيفة سلمان على هذا العسر فنهدده سلمان بقوله : فوالله لتستهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدره فى يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوما أكنت تحدث الناس فى زمان عمر هكذا ؟ قال . لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربى بمحفظته .

فلا عجب اذا كانت ظروف العراق توجب الاحياط فى تلقى الأحاديث . ولا عجب ادن فى أن يقول أبو حنيفة « عدى صناديق من الحديث ما أخرج

مها الا السر الذي يسمع به . « ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حدث ألفس منها عن حماد ، وألفس عن غيره ، وأنه كان اذا هبط الكوفة محدث بعث أصحابه على أثره يظرون هل عنده شيء من الحديث . ولا عجب مع هذا كله اذا انحصر المنقول عليه عدد الحنفية في قليل جدا من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يحصر أحاديثه في الموطأ يقصها عاما بعد عام ، وكان سفيان بن وهب تلميذه عن الاكثار من السماع الذي لا يحدث به ، بل انه سدم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد في تركته حديث لم يحدث به .

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبي حنيفة حتى يقال ان البخاري اختار أحاديثه سبعة الآلاف — ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة — من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخاري . ! ! !

بل قال حنبل بن اسحق عن عمه الامام أحمد بن حنبل « جمعنا عمي : وقرأ علينا المسند .. وقال لنا ان هذا الكتاب جمعه من أكثر من سبعمائة سين ألفا .. » .

بل ويقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب ذاكرته . فأخذ عليه الأبواب ! ! !

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفا من الأحاديث !

فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة يقصها من أطرافها ، يغربلها وسجلها ، حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صح عنه سبعة أحاديث مسواتره .. ! أو كما قال ابن خلدون : « ان أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه بلغ روايته الى سبعة عشر حديثا أو نحوها » . ! ! !

والصحيح أن أبا حنيفة انفراد بمائتي حديث وخمسة عشر حديثا غير ما اشترك في اخراجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى فيه في الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ولما جمع أبو المؤيد الحوارزمي مسندا له وقع في ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك - وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الصحيح من الأحاديث - كات قواعد أبي حنيفة قبله لا يحس أثرها القارىء بقدر ما أحسه الشهود ، أى المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصايين وهم الرواة . لقد رلزل دولة المحدثين زلزالها أمام تلك العزاه الفكرية ، المقللة من المشرق مع الدولة المقللة من العراق ، حتى حاء الشافعى يرد إليها مكاتنها بجذاله العبقري فى بغداد والحجاز وفى الفسطاط وهياً لذلك الصاحبان نفسيهما ، بعد اذ مات الشيخ فى بغداد وتبعهما الشافعى بأسلوبه القوى فاعزب به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الاسلام من أن يقصر الفقه دون مطاله ، فأدخل فيه الاجتهاد ، وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمادة الى تدوينه ، فنقل الى الأحيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفه المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسلمين الأولين وسقط فى هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له فى اثر واحة اليمامة وان القل قد اسحر يوم اليمامة بالناس . وانى أحشى أن يستحر القل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه وانى لأرى أن تجمع القرآن .

ولم يزل يراجع حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى عمر ، فجمعت الصحف تم صارب « المصحف الامام » فى خلافة عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة فى الأقطار فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام .

أما السنة فلم تجمع ، وان كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكذب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه .. فنهتنى قريش فقالوا . انك تكذب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينكلم فى الغضب والرضا . فأمسك عن

الكتاب فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « أكتب عوالي نفسي بسده ما خرج مني الا حق » . وصحيفة عبد الله هذه هي المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال « انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اخلافا . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى اذا ولي عمرهم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوما فقال للناس اني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فادا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأي في جمع الكتاب العزيز

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول الا مقلين على ما أرسلنا من شأن ، ولما بعث عمر بعثه الأول الى الكوفة قال للمبعوثين (ان أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم برواية الأحاديث وأنا شريككم) .

وقد بما كان من شرائع أسبرطة ألا تدون القوانين الا في القلوب وأن يتمرس بها في حياتهم وتدرّب الناشئة عليها في أيامها الأولى ، لكون الأفتدة وعاءها لا الصوص . فمنع « ليكرح » تدوين الشرائع وكانت فلسفة الدوين عنده تنحصر فيما عبر به من فلسفته في القيود والحدود حيث قال « ليسب غير سور هذه المدينة التي لا سور لها اذا كانت تحميها قلوب الشجعان » وما تزال أمم كانجلترا دسورها غير مكبوب ، تقوم على حياطته مهج لس أرخص عندها من أن تسيل في سبيله . وكانت حصاره الصدر الأول من الاسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس في التدوين وقلة حاجتهم اليه ، وقال القائل ان اثبات السنن بعد جمعها ليس أصلح منه قبل ذلك .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهري وأبي بكر محمد بن عمرو .

كان كل الأتساء تلج على الأمة للبدون سواء في الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاجة الأمة الحاحا حاجة فقهها الى التسجيل حتى لا يهارج أيدي الشيع المتحاذلة ، وحتى يمكن الكافة منها تلك الوسيلة الى لا رسول مثلها من الأجمال يعنى بها الكتابة والغذاء الفكرى لا يقدم للعقل الشرى — بحق — الا فى وعاء من الورق فى كتاب .

لم تكن الورافة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعد المال . حتى أن الدولة فى عهد المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨) كانت تكز القراطيس محافة نقادها ، وفى ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بحزائه فأمر ببيعها وان لم يعط عن كل طومار الا داهيا (١/٦ درهم) وكان الطومار فى داك الوق بدرهم ، وفى العداة عدل عن رأيه واسبمى القراطيس محافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهداه العله كان الفرس يكتبون فى الجلود والرق تحلصا من الحاجة الى ورق لا يصعونه فى بلادهم .

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الحط حتى لا يسرف كاتبه فى القراطيس .

وأول من كتب فى الطوامر الحليفة الوليد بن عبد الملك وفى حاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز الى عامل بعث اليه بطلب قراطيس « دقق القلم وأفل كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب فى الدواوين يتب فى صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ — ١٣٦) أمر بإثباته فى دفاتر

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبى حنيفة فى عهد المنصور ، وفل خام ذلك العهد بسس وعشراب السس ، كانت المسائل تدون فى الحلقة على ما أسلها منذ رأسها ، وكان هو بدون لنفسه المسائل وهو تلمذ فى حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجهدون ينظرون فى كبه فى حياته ، ولم

يتأكد لنا الدوين الفقهي عند غيره من فقهاء الجمهور الاسلامي الا بعد أن كان أبو حنيفة قد أبلغ رسالته في الكوفة وفي مكة والمدينة وفي كل مكان ، وسجلها تلاميذه في كتبهم ، ثم تحرك دولاب العلم .

واستخدمت أداة الدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعد الوراقة على الدوين وأخذنا نسمع أن العلماء (أصحاب المحابر) — وبدأ التاريخ بسجل فصل أبي حنيفة اذا صح ما قيل فربط اسمه بالقلم والدواة . فمن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبي حنيفة » ؟.

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين الا حمادا ، وان التاريخ لذكر نحو الثلاثين من العلماء كوا بهذه الكنية بعده كالإيفاني والديون صاحب كتاب البنات ، والبخاري ، والفراسي الملجمي (من فقهاء الشافعية) والمعربي (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم ان حبيبه إحدى القبائل التي عرض الرسول نفسه عليها ، فأبو حنيفة لسب من جراء أبوة لصاة ، ولذلك قال البعض ان سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤث حنيف ، والحنيف هو المائل الى الدين قال تعالى « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وقال جل شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفا) ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام (بعث بالحنيفية السمحة) .

ولكن المرء يساءل لماذا لم تكن أبا حنف بدلا من أبي حنيفة واذا أنت الحنف في شأن من كنوا بكننه تشبها به فلماذا أنثت كنيته هو ؟ ولهذا سئل الى قول آخر فانه (الكافجي) ، وأورده ابن حجر وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق ...

وسواء أصح القول أم لم يصح فانه يصل بنا وبين عقيدة ثبتت في التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتباط مذهبه بالتدوين والنحرير .

وهذه هي اليد الكبرى لأبي حنيفة على الاسلام فاذا كان لأبي بكر وعمر الفضل في تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل

التفكير في تدوين السس دون أن يسم له ما أراد ، فأن لأبي حنيفة فضل تدوين الفقه الاسلامي ، وتدريسه بابا بابا ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعه تدريسها ، فدوب في حياته وتصخب بعد وفاته ، فخلق البحوث الصافيه الى شعب بها المدرسة ثلاثس عاما أو تزيد ، وتلقاها الصاحبان وتلاميذها وخلفاؤهم ، ثم تسلمها الشافعي وتلاميذه ، ومالك وتلاميذه وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح المرد الذي يصف الرأي ازاءه مشدوها تروعه ضحامة قدر ما تبهره مناسه .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، ان ذلك كان حاصا باليسر والسنة ، وكان فيما يتعلق بالأحاديت شحصيا لا يقصد به مع الجمهور كصحفة ابن عمرو المسماه بالصادقة أو صحف الزهري .

ولئن قال بعض الفقهاء بأن تدوين السس كان في سته بضع وأربعين ومائة ، أو حددها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! انها جميعا تواريخ لاحقة لرياسة أبي حنيفة لحقة الكوفة ببضعة وعشرين عاما .

ولقد يكون حقا ما قيل من أن على بن أبي طالب كان يجمع في قرابة سيفه بعض أحكام الفقه ، وأن بعض الشيعة دوت لهم كتب لكن التدوين والنأليف للجمهور الاسلامي على نطاق شامل . لم يبدأ الا على يد أبي حنيفة . قبل ان مالكا جمع الموطأ في ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوى عرصا وشرحا ، وفروصا وحلولا وأصولا وتفاريع وأسئلة واجابات . ثم ان مالكا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة في رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاما من النجاة والصدارة في حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبو حنيفة في حلقة حماد تلازمه كنيته الى تحدثنا عنها .

قالوا انه لما استقامت الأمور لأبي جعفر خرج حاجا الى مكة سنة ١٤٨ فكان فيس دخل عليه مالك بن أس فقال : يا أبا عبد الله اني رأيت أبي

أجالسك في هذا البيت فكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك . وأعهد الى أهل الأمصار يوفدوا اليك وفدكم . لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق فقال مالك « يا أمر المؤمنين ان أهل العراق قد قالوا فولا تعدوا فيه طورهم . فان رأى أمر المؤمنين اقرارهم على فلفعل ... فأعفى ... فأعماه »

ودكروا أن مالكا حج في سنة لاحقة فقال له أبو جعفر يد أبا عبد الله صم هذا العلم ودون منه كتباً ... واقصد الى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لحمل الناس ان شاء الله على علمك وكتبك ... فقال مالك . أصلح الله الأمر . ان أهل العراق لا يرصون علماً ولا يرون في علمهم رأياً فقال أبو جعفر . يحملون عليه وتصرب عليه هاماتهم بالسيف .. فعبجل بذلك وضعها فسيأتيك ابى المهدي العام القابل ان شاء الله الى المدينة يسمعها منك » ودكروا أن مالكا لما أخذ في تدوين كتبه قدم عليه المهدي فأثاه بكتب الموطن فأمر المهدي باتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار ... ولأنه بالف .

لم يكن مالك يحب الكتابة فقل له . ماذا يصع ؟ قال تحفظون وتهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاحون الى الكتابة ! وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهي ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد اد قيل له انهم يكتبون ما يسمعونك فقال . « انا الله وانا اليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا ! »

والدي روى عن أبي جعفر في تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أصبح تكليف هذا له أو ذلك ، فانما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أي بعد أن أستأثر ثرى الكوفة بعظام أبي حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذي شرحنا . انما تتسبب النهضة الرائعة في التدوين الى أبي حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ، الذين أقبلوا على التدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشعوفة بالتأليف والتصنيف ، بالاملاء أو بالكتابة ، في مجالس الافتاء أو في مقاعد

الدرس حتى ليجد في حاتم القرن الرابع أو فاتحه القرن الخامس مجلسا
للطب الصعلوكي يضع فيه التسخ في وف املائه أكبر من خمسمائة
محمه

لم يصع الصحابه والتابعون في علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كبا
مرتبة ، واما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صاديق علمهم ،
وجاء أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم مستترا فخاف عليه الحلف السوء أن
يصعوه ، فدووه ورتبه مبدئا بالطهاره تم بالصلاه ثم بسائر العبادات ، تم
ختم بكسب المواريت لأنها آخر أحوال الناس وهو أول من وضع كتاب
الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال وضع أبو حنيفة سس ألف مسأله في الاسلام .
وقبل ثلاثه وتماين ألفا منها ثمانه وتلاثون ألف أصل في العبادات وخمسه
وأربعون ألف أصل في المعاملات وقبل بل ... خمسمائة الف ..

وروا أن مالكا كتب الى خالد بن مخلد الفطراي يسأله أن يحمل اليه
كتب أبي حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوراعي مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبي حنيفة كما
سرى بعد . وصعده الشافعي عن طريق محمد بن الحسن .

وصعده سفيان الثوري فرأى الرائي تحب رأسه كبا اسأله في فراءته
فادا هو كتاب أبي حنيفة في الرهن فسأله أتظر في كنبه ؟ قال وددت
أنها كلها مجتمعة عدى .

صنع هؤلاء الأئمه ذلك وصعده الفقهاء والمجتهدون والمفلسون والناس
جميعا .

الباب الثاني

إمام أهل الرأي

« علما هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه قبلنا »

« أبو حنيفة »

كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها الى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فحتمه ويدور حول الاتباع » كما قال

أو كما قال في وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء بمرور « ان أبواب القضاء لا يدركها الا العالم النحرير ... فادا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل الى الكتاب والسنة والاجماع ، فان وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فان لم تجده ظاهراً فرده الى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان الى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذي سال منه فقه أبي حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى في تناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعادات .

لم يكن من ذلك بد ، فالناس في بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون الى معالم تعين حدوده وأدواب تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه ، ولا غنى في تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذي له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية .
فاما أن يترك الناس مع أهوائهم في المناهات ، واما أن يقفوا تلقاءها جامدين ، فلا يكون بد من الموقف المؤدى الى تعطيل التكالف أو الى مالا يطاق ، واما أن يؤذن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفي بلد متحضر كالعراق ، حثت تجمعت قوى الاسلام لنطق في مصير الحضارة ، كانت تقع أمور داب بال تدفع النفس الى الاسكار فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باسئباط الفواعد العامة من الشريعة لتفاس عليها المسائل التى تحدث للناس .

والقياس فى كتاب الله كثر ، من ذلك قوله تعالى « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وأول أبواب الاستنباط وأعلاها هو القياس .

وفي السنة اجتهادات وفدت كسره : فصد إلى الرسول رجل يكر
ولدا له رآه حاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام « هل لك ابل ؟ » قال
نعم قال ما ألوانها ؟ قال حمر . قال هل فيها من أورو ؟ قال : نعم .
قال فمن أين ؟ قال الرجل لعله برعه عرو . قال وهذا لعله برعه عرو .
قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر فرسا ويقول له لعلم الآن .
واجتهد النبي اجتهادات صححها القرآن وفي بعض ذلك قوله سبحانه
(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أرواحك) ولم أذكر
للمنفقين في الحلف عن عروهم تنوك برن قوله تعالى (عتاه الله عت لم أذب
لهم) .

بل ان من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم
كيوم بروله في بدر دون الماء فصل له بوحى أم برأى .
أما اجتهادات الصحابة : فكانت كالعلامات التي سبب إلى ما يح
الرى من كنور : أمر النبي صحنه يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في سى
قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها في الطريق . قائلين ان النبي أراد السرعة ،
وأبى آخرون الا أن يصلوها في سى قريظة فصلوا هالك لئلا — وهؤلاء
هم سلف أهل الطاهر — الذين يمسكون بظاهر الصوص أما الأولون فهم
الآباء الصكربون لأصحاب الفاس والاحياء .

ولما كان على بن أبى طالب بالنس احتسب اليه ثلاثة نفر في علام وفعوا
على أمه في طهر واحد فقال لائس منهم . طبا بالولد لهذا قال : لا . قال
لا سى فيها التالب طبا بالولد لهذا قال : لا . قال . أئسم تركاء مشاكسون
ابى مفرع سكم فمزع بسهم وجعل الولد للقارع وجعل عليه للرحلين تلتى
الدة .

فبلغ ذلك الحكم النبي فصحك حتى بدن بواحدة من فصاء على .
واجتهد صحابييان حرجا في سفر فحصرن الصلاة ولسن معهما ماء
فصلنا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبي
وقال للذى لم يعد أصبت السنة وأجراتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الآخر
مرتين .

ولما قتل خالد بن الوليد قوما قالوا . صأنا قال السى : (اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد) ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاحتجاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم علما ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتخرجون دون القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثليهم بل أشد حرجا ... كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى لسمى سعيد بن المسيب الحرىء، فكان الرجل يدخل فسأل عن الشئ فدفعه الناس من مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب كراهه للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال « اما يهى الناس أحد ثلاثة رجل يعلم ناسخ القرآن ومسوحه وأمر لا يجد بدا أو أحقق مكلف » فقال ابن سيرين . فأنا لست أحد هذين فأرحو أن لا أكون أحقق متكلما .
حتى اذا جاء أبو حنيفة وصنع يده على تلك الأداة بتسى أسمائها (القياس . أو الاستحاح . أو الاجتهاد . أو الرأى) وقلها فى كفه كعصا موسى ، فحاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على عراره وجرى المحهدون فى عبارته ، اللهم الا أشياء داود الأصمهاى (الظاهرى) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وان فى عمومات النصوص كفاية للأمة ، وقد درس مذهبهم .

وإذا بتلك الثروة الضخمة من الشريعة الاسلامى تربووتهم حتى ترفع الفقه الاسلامى الى مسواه الرفيع العالى بين مسويات الشرائع المماريه تطلع اليه فى فممه الشوامخ ذلك الفضل من الله أتاه أنا حبيبه ، وهو الذى جعل الشافعى يهف بذكره فائلا (من أراد أن يعرف الفقه فليزى أنا حبيبه وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه) .

واسفل هذه العصا السحرية الى اللغة والنحو كما يدع الحر ، ويتسع البور ، وتسفل الصحة — والصحة تعدى كما يعدى المرض — فادا بالقياس فى البصره والكوفه يهب اللغة العربيه طرارات كأبها الاحتراعات .. فلو كب من أهل البوادي فى ذلك الزمان ممن يعولون فى اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون فى الفقه على البصوص وحدها ، ثم جنب الى

مصر أو الى الشام بله العراق - بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة في اللغة آلة القياس - لظنت أن العربية التي تسميها ليست هي العربية التي تعهدنا .

كان أبو حنيفة مطلقا ، والمطلق حوهره القياس ، فليس كالشرع مصار لفارس هذه كفاياته .

وإذا كانت الشريعة معمولة المعنى ، فلمأدا لا يتعرف المجهد باستقراء الأحكام الشرعية وحوه المصلحة في الصوص ليسخرج منها القواعد العامة التي يقوم الشرع عليها ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لاتحاد علة الحكم في الأمرين ؟ وما دامت الشريعة موطاة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالمساس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وحوذا وعدما ، كما أن المعقول دائر مع أخارها وجودا وعدما ، فلم يحجر الله ولا رسوله بما ياقض صريح العقل ولم يشرع ما ياقض العدل وعلى ذلك فهي كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للاسلام سواء بص أو باجتهاد حيث لا نص .

وادن فليعمل المفكرون فكرهم في تعرف العلل واصافة الأحكام اليها ووسط السائح ، وتفرع الفروع في فهم واحاطة لحلق الأحكام وابتكار الآراء ، وفي ذلك تعاوب الملكات ، وتميز الكفايات من الكفايات ، تتميز الزحاح من اللور وتمر اللور من الماس ، ذلك يحترقه الشعاع فلا حائل وذلك يعكس الأصواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فوضا من الور والهجة والائلاق .

لهذا طالما نزل أبو حنيفة الى معارك المكلمين في صدر شبابه فحلف هذا اليرال أثره في ملكة الحدال ، وربط حاصره بماسه في حياة عملية داب ألوان وأحداث .

والحدال هو العده الأولى للعقل الفهفي سواء في الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها حمعا تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أي على القياس .

لم يك أبو حنيفة إلا علامة طرى الأهاب عندما صحت السعى فى
سعيه فسبح السعى يقول (لا تدبر فى معصيه ولا كفاره فيه) ، فاسوى
النسب الرشيق الفهم ، ماصلا راشق السهم . يقول : (بل فيه الكفاره لأن
الله سبحانه وتعالى جعل فى الظهار الكفاره بعد أن جعله معصية فقال « واهم
لغوون مكرًا من القول ورورا » وودأوح فيه الكفاره .) فلم يجر رعيم
المحدثين حوانا سوى أن قال فاسس تب ؟

والظهار لعه هو أن يظهر الرجل من امرأته اد قال لها ، أنت على كظهر
أمى ، وشرعا هو تنسبه المسلم روحه أو حرءا منها محرم عليه ، مؤبدا .
و هو امد الاحل ناسعى غواما لحياءه الأنام بالحواب .

وانه لى المسجد داب يوم والأبص بن الأعر بهاسه فى مسئله يدرونها
سهم اد صاح من ناحيه المسجد فى آرله الحلق التمسك فقال ما هذه
انقاسات ؟ دعوها فأول من فاس ابلس . فلم يعصب أبو حنيفة لأن العصب
حبه لسلب الحجة ، بل أقبل على النسي بكسه نآى الكتاب . فذلك أدنى ألا
برتاب . قال يا هذا وصعب الكلام فى عمر موضعه ، ابلس رد على الله
سبحانه وتعالى ثم رد فقال سبحانه وتعالى « واد فلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا الا ابلس كان من الجن فصوى عن أمر ربه » . وقال تبارك وتعالى
« فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابلس أبى أن يكون مع الساجدين » .
وهذا الفاس الذى نحن فيه يطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأننا برده الى
أصله أمر الله تعالى فى كتابه ، أو الى سبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أو الى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فانبعا أيضا فى ردنا كتاب الله
و سبه رسوله والاحصاع ، فمن يدور حول الاتباع فمعمل بأمر الله تعالى ،
فابلس حب فاس خالف أمر الله تعالى وورده فكيف سبونان ؟

أنت النسي هذه الحجج نعه فبهسه ، وكأنا أحاطت به حطائته فرأى
العداب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : علط يا أبا حنيفة وبب ، نور الله
فلك كما نورب فلى ...

كان من رأيه أن فراءه المصلين حنف الامام فى الصلاة فكفى عنها فراءه
الامام فقصده اله رهت من أهل المدنه يحاحونه ، قال لا تمكسى ماطره

الجميع فونوا علمكم ، فاحذروا لحدائهم . قال وهل اذا بظرتهم أكون
قد بظرتكم ؟ قالوا بلى فان ان بظرتهم لزمكم الحجج لأنكم 'حذرتهم
فجعلهم كلامهم كلامكم وهكذا نحن احذروا الامام فقراءته فراءتنا وهو سوب
عما ففروا بالالراء

كان يجب من علل الصوص فحري الحكم الشرعي على مقصده
لا على ظاهر الالقاء . فادا سمع حدث النسي عن الركاه أن في كل أربعين
شاه شاه - رى أن مراد الحدث أن يصدق صاحب الأربعين بساه من
الأربعين أو بعد بعدن من شاه وادا طبق حدث صدقة الفطر صاع من تمر
أو شعير قال انما يراد به أن يصدق المرء بصاع أو من صاع أو بصدق
الصاع

وإذا فسر روايه أنى هريره لحديث الرسول عن رد الشاة المصراه عدد
احلابها ورد صاع من تمر (وهى الشاه التى تربط صرعها قل السع حتى
يظن المتسرى بها عراره اللبس) فالقصد عدده هو الصاع أو تمس الصاع .
ذلك أن لنا حصة رى أن صمان التلف فى التريعة هو أن يرد المتل
ان كان البالف من دواب الأمتال أو الفسه ان كان من دواب القسه .
أما المدرسه الأخرى فرى أنه لا يجرىء عن شىء من ذلك تمه أو متبه

قالوا انه يترك الصوص والأحادب لأقسسه ١ والحق عر ديث
فأبو حنيفة هو القائل (وكل شىء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس
واعين قد آما به وشهدنا أنه كذلك . وشهد أنه عليه الصلاه والسلام أنه
دمر سىء بخائف أمر الله . ونم يصل عر ما قاله الله تعالى وما كان من
المكلفين فان تعانى «من يضع الرسول فقد أطاع الله » وان كتب أنى
حسبه ملائى برك انصاف الى الحدث .

قال زفر لا تلتصوا الى كلام المخالفين فان لنا حصة وأصحابهم
يقولوا فى مسئله الا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم فاسوا بعد
عليها .

١ الشافعى نفسه يقول « أجمع المسلمون على أن من أسباب له سنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به ... »
أما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت السنة أو عدم ثبوت .
قال ابن خلدون : (واعلم أيضا أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الاكثار من هذه الصاعه . وقد تقول بعض المبعصس المعصص الى أن منهم من كان قليل البصاعة في الحديث ، فلهذا قل روايه ولا سبيل الى هذا المعنقد في كبار الأئمة .. وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها ...) .

وقديما قدم على ابن أبي طالب القياس على خبر الواحد .
قال أبو يوسف . (ما حالت أنا حيفة في شيء فتدبرته الا رأي مذهبه الذي ذهب اليه أنجي في الآخرة وكنت ربما ملت الى الحديث وكان هو أبصر بالحديث مني ..)

وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعرب مدرسه الكوفة وأسادها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحناطين بمكة ، فسأله الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابه لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعي كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمه والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة ولا يعود الى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن ابراهيم ؟

فأجاب أبو حنيفة كان حماد أفقه من الزهري .

وكان ابراهيم أفقه من سالم .

وان كان لابن عمر صحة أو له فصل صحبه ، فالأسود له فضل كثير ،

وعبد الله هو عبد الله ١

أما عن سلسلة الأوراعي : فالرهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب - وكان عبد الله كثير الاتباع للآثار ينزل مارل الرسول حيث كان يصلي ، ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تيس ، لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي . كان حيد الحديث ولم يكن جيد الفقه

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة حماد هو أستاذ حماد وإبراهيم هو إبراهيم الحنفي ، وعلقمة هو علقمة الحنفي الذي قال عنه ابن مسعود انه ما قرأ شيئاً أو علمه الا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود ابن يزيد بن أخي علقمة وتلميذ حماد وابن مسعود وأما عبد الله فهو عبد الله ابن مسعود العظيم

ولقد كان الأوراعي يحادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة . قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوراعي فرأيت به بيروت فقال لي : يا حراساني من هذا المبتدع الذي حرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت الى بيتي فأقلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل ونص في ذلك ثلاثة أيام فحنت يوم الثالثة وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم والكتاب في يدي فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته فظفر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعدما أدن حتى قرأ قدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب في كفه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب ، حتى أتى عليها ثم قال لي : يا حراساني من العمان بن ثابت هذا ؟ قلت شيخ لبيه والعراق . فقال : هذا بطل من المشايخ اذهب فاستكثر منه فلب . هذا أبو حنيفة الذي نهيت

«

فلما احببنا بكه حاراه في تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة وكثر ما كشفها عنه ابن المبارك وما انرقا ول الأوراعي لاس المبارك . « عبطت الرجل بكثره علمه ووفور عقله وأسعبر الله تعالى لند كست في علف طاهر . الزم الرجل فانه بخلاف ما يلعبى عنه . »

وكان كشف الأمور للإمام « الأوراعي » كان يكشفها للإمام « الثوري » حاءه رجل يميمه الهم ويقعده قال : حلف بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل

ن تكلمى . قال والعاق لارم لا أكلمك فل أن تكلمى - فكيف أصع ؟
فل اذهب فكلها ولا حب علكما ؛ فذهب الرجل الى « سمان الثورى »
فجرون سمان الى أبى حنيفة بهول « أسح العروج » ١ قال أبو حنيفة
« هو كذا ابها لما قال له وعلى العاق الخ .. شافيه بالكلام فأنحلب
يمسه فادا كلها لم يصع الطلاق » .

قال الثورى . انك لكشف ما كما عافى .
حما كم كان صحيحا قول الشافعى (قول أبى حنيفة أعظم من أن
يدفع بالهوى . وقول عبد الله بن المبارك رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفة
صغارا وما رأيت أحدا حاور أبى حنيفة الا رحمه) .
بل قوله هاتوا لى مثله والا فدعونا ولا تعدونا .

ويصل بمذهب أبى حنيفة فى الفاس مذهبه فى الاستحسان وهو
الأحد بمصلحه حرئه فى مقابل دليل كلى بلحا اله اذا كانت سائح القياس
لا تساغ . بأن كان طرد الفاس يؤدى الى علو فى احكم ومالعة فيه
فعدل عنه فى بعض المواضع ونفى المجهد بما يحسن وقعه فى النفس فى
تذك الحالة بداتها ، ففرد للوصف الذى تحسن به نفسه حكما عر ما يسحه
الفاس .

فان عليه الصلاه والسلام . (اسئف فليك وان أفتاك المعون ...)
ولقد دعوا على أبى حنيفة تركه الفاس الى الاستحسان ، فولا بأنه
خروج مه عن فاعدته الكبرى وهى الفاس ، لكن الذين آخذوه على
الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

بل كيف يصف المجهدون دون القوى اذا ساء الفاس بأن فيجب
اسحة . رروا عن مالك أنه قال : (تسعة أعشار العلم الاستحسان) .
ان الفاس أداة تحركها عن ناصرة ويدكلها احساس . والمكر الذى
كانه أبو حنيفة لبس هو الذى تسعده أدواته . ومن اصنع شئلا يسجد
به ، والرجل الذى بطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن
نبحنه فى ممولاته .

قال محمد بن الحسن كان أبو حنيفة يباشر أصحابه في المفاسد
فصنعون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسن لهم يلحقه واحد منهم فكثرة
ما نورد في الاستحسان فدعوه جميعا وسلمون له . وقال ابن شرمه
ان كان لا يحور لأحد أن ينكلم في دين الله برأيه فأبو حنيفة إذا قال

مع العناء ولمه رجل روح اسمه من أخوين فخرج الولي وهو
يقول . أدينا مصبه عطسه ، غلظنا فرهب إلى كل واحد عن امرأته وأحد .
قال سفيان لا بأس بذلك كما حكم به علي كرم الله وجهه ... فقال أرى أن
على كل المهر بنا أصاب من المرأة وترجع كل إلى روحها . فاستحسن الحسن
منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر قل فيها . قال سفيان وما عسى
أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة على بالعلامس . فأحضرا ، فقال لكل
واحد منهما أجب أن تكون عندك التي رفعت اليك ؟ قال نعم ، قال فما
اسم امرأتك التي عند أهلك ؟ قال . هي فلاة ، قال قل هي طالق مبي .
ثم روح كلا المرأة إلى مسها ، وأمرهم بتحديد عرس آخر . ففتح الحسن
من فساه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلوموني على حبه . . وسفيان
ساكت لا يقول شيئا .

وكلا الحكمس حق فحكم على حكم الوطأ بشبهة وهو يجب فيه النهر
ولا يرفع السكاح . .

وحكم أنى حنيفة حكم بداراً ما يترتب من القسوة بعد اد أفصت كل
امرأة إلى رجل بنا أفصت من محاسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صار
تجب عره . فكان حكم أنى حنيفة الهاما موقعا . لأن لصاحب عده الوطء
بشبهة أن ينفذ بالوطء فيها ، وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل
الصله .



فإن أبو حنيفة يوما تلبس بده داود الضائي عن العلم أما الآله فقد
أحكمهاها ! فإن داود وهل هي شيء ؟ قال الامام العمل .

فلنقل عنه هذا التصوير للعلم الى الآلة التي صيرت علمه مذهبا في العالمين وهي أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وصنع أبو حنيفة يده على تينك الآلين فاحتلطا في يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى ، وجرى اسمهما في التاريخ على أنهما (الرأي) أو كما قال الشافعي أصبحا اسمين لمعنى واحد ، ذلك بأن الاجتهاد لا يكون الا بدلائل والدلائل هي القياس ، واداء بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب في كل الآلات والمحركات ، واداء بحلقاب الفقه تصحى كمعامل الانتاج الكبير حتى تكاد الآدان تسمع وقع العجلات ودون الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثني عشر ، واداء بهذا الروح الخالق يهب الحياه للإصلاح الهائل الذي خلفه لنا القربان الثاني والثالث وما رآل يهب الفقه حياته كلها الى الآن .

حقا ان هاتين الآلين لم تكونا من محرعاته لأن السى والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا لكن الرسول اذ يشرع هو صاحب الشريعة واجتهادات ابن الخطاب عمرياب لس يقدر عليها سوى الفاروقى ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر وعلى . وما عداها من اجتهادات الصحابة والحلفاء لم تك الا ومصات خاطفة لمعت في المناسبات ، أما الفى الحرار كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أمرا للمؤمس ولا واليا ولا قاصيا ، لكه جعل هذه الومصات العابرة شمسا تعمر الأكوان كلها بالبور واتخذ منها تمثالا شامحا يربط كل ما فى الوحود الى قاعدته بحيوط من الشعاع الدهى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما مسحدث وفيما قد لا يحدث من الأمور

وأية حساره كانت هذه الجساره ١

لقد كان أبو بكر يمول (أى أرض تفلى وأى سماء تظلى اذا قلت فى القرآن مالا أعلم) وهو ممال ييم عن خطورة التعرض لنطبق أحكام الكتاب وتفسر آياته

سئل أبى بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شىء فقال .
أكان هذا ؟ قال السائل . لا . قال . فأحسا حتى يكون فادا كان اجتهدا لك رأيا .

وروى عن رمله ريد بن ثابت أنه كان إذا استفتى في مسألة سأل عنها ، فإن قل له وقعت أفي فيها . وإن قل له لم تقع قال دعها حتى تكون . وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعا منه ، رغم أنه تصدى لأفناء الناس سس عاما وأن أهل الشام مالوا الى تولسه الخلافة فرهد فيها . كان التابعون يرفضون الجواب عما لم يمع كأ أن في الافتراض نجامة أو رحما بالعب أو تحديا للمسفل ، مخافة أن يحللوا حراما أو يحرموا حلالا دون المام تام بالطروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال لم أسمع في هذا شيئا . قال السائل فأخبرني أصلحك الله برأيك . قال . لا . ثم أعاد عليه . فقال : أرصي رأيك . فقال سالم . انى لعلى ان أحبرتك رأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا فلا أحدك .

قال ابن سيرين أول من فاس إبليس . وماعدوا الشمس والقمر الا بالمعائيس وروى اللب بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهري بشيء من الرأى فقص وجهه كالكاره ثم جاءه بأحاديث من السس فتهلل وجهه وقال . اذا حسى فأتى بهذا .

وكان الشعبي يقول (ثلاث لا أقول فمهن حتى أموب . القرآن والرس والرأى) .

ويقول احمط عى ثلاثا لها بان اذا سئل عن مسألة فأجبت فيها فلا سمع مسألك أرايت (أى لا تصرص) فان الله تعالى قال فى كتابة (أرايت من اتحد الهه هواه ...) واد استلب عن مسأله فلا تفس شيئا بشيء فربما حرمب حلالا أو حلل حراما ، وادا سئل عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أنى حسفه ، وكان الأمر كذلك من بعد طهوره . روى أسد ابن العراب بعد اد قدم الى المدينة على مالك (وكان ابن القاسم وعمره من أصحابه يجعلونى أسأله فاذا أحاب يقولون قل له : فاذا كان كذا فصا على يوما فقال لى هذه سليسلة بب سليسلة ، ان أردت هذا فعليك بالعراق)

وفى كله محصره كان أهل الأثر لا يأحدون بالرأى الا اضراارا
مكرهين عليه اكرهاها . ولا يستخرجون أحكاما لمسائل لم تقع بل لا يصون الا
مع

لكن أنا حنيفة اد بدم للناس أداه الرأى أو الناس فما وقع واما لم
يع . لا يرى مما قدمت بده بل تعرضها على الفقهاء فرضا ؛ ويهت بالكافة
أن يهجووا طرائفه وأن يهدوا منها ؛ ثم ينف الى جانبها جبارا يملأ العين
والسمع ويرحم حواس الناس أجمعين عموما ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى
للهجرة معلما للملا أنها أداه التى يخلق بها مالا يعلمون ؛ وأن العسل
والنمل أو الفكر والحق ؛ هما الأساس الذى تبنى عليه أصول الفقه
الإسلامى وفروعه ؛ حتى اذا سجلوا عليه ورر هذه الأداه باهى بما سجلوا
به وكامح فى سبله

ذلك الرجل اذا لم يك محرر هذه الأداه فانه كاشفها الذى جمع الفطر
فصره من فيض عقله بحارا ؛ والكسوف العلمى لم تحصر المكشفات
أحرارا . وانما نصرت بها من المحاهل . والرسالات الفكرية كالكسوف
يهدى الى الحق الكائن بعد أن سبغها السهد والاعداد والارتداد .
لم تكن الكهراء اسداعا ؛ ولا الراد يوم ؛ ولا السر (المعصم على
مرته بأسور) ولا أمثالها وانما هى كسوف هدت اليها الصدفة حسا
والكدح والضى أحيانا . . وكذلك كان كشف المولد الذى قدمه مدرسة
الكوفة الى العالم النهمى ؛ أثرا لجهد ناصب دام أربعين عاما فى عهد أبى
حنيفة . بعد أن ظل قرنا كاملا من الرمان حسا يضطرب فى بطون التاريخ
الإسلامى حتى قدمه يد أنى حنيفة الى الوجود .

ترى ماذا كان مصر التريعة الاسلامة اد هى وقف فى حدود ظاهر
التصوص أو اكشف بمدلولاتها المباشرة . سواء فى المائى آه أو العدد
النمل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها أو بذلك الاجتهاد الفردى
أو سياس العصى ترى ماذا كان مصير هذه الحصاره الاسلامه اذا لم
تسند الى قواعد مستنبطة من المفعول والمفعول من أصول الحنيفة السمحة
التي يهدف الى سرها هذا الدين ?? ماذا كانت صانعه هذه الآلاف من الملايين

وهذه الهراط الفكرية وهذه الحياه اندائيه المحدده ، وهذا العالم المسد
المعابر . وهذه القرون التي يحمل كل منها ضوائعه ، وهذه الشاع والأحاس
والحصارات ، من أسويه الى أندلسه ومعرجه وهنديه وصيه وأوربه
ومصره وعبرها ، ومن حصاره القرون الأولى الى حصاره القرون الوسطى
الى حصاره الآلات

أما برجع الفصل في سداد السريه الاسلاميه لمطالب الحصاره
الاسلاميه الى هذا المولد . الدائم المولد ، متله كمل - - - - -
في كل سبله مائه حبه بصاعف ساها دوالك حتى يكسف الممران ، أو
كالموانات الهندسه التي تجعل العدد السبط (١٠ مثلا) مائه مليون في
بالات عمليات وحسب ، أو كالجواهر الأمتليه التي تحرج منها كل المركبات
وتسحب لجميع الحاجات .

لكننا كان أبو حنبله يعنى نفسه حب يقول (من بطل الفقه ولا
بفقه مل السدلاى يجمع الأدويه ولا يدري لأى داء هى كذلك طالب
الحدث لا يعرف وجه حديثه حتى يحىء الفقه) والذى يقوله عن طالب
الحدث هو القول الصحيح فمن لا يصرفون فى الصوفيين ، فأولاء يلرمون
الصوفيين كأولئك يحترقون الدواء ، لا يفعون به ولا يسمعون عجزوا عن أن
يجعلوا من العقارات الناحه ، مركبات نافعته ، تلاءم فى كمياتها وعناصرها مع
أشخاص المرضى وأنساف الداء ، أما الطب الحق فتأخذ من كل عقار ما
يسمى الداء كما ساء حالها أو مبروحا أو مفاعلا .

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر الماقد ، لم يردد أبو حنبله عن أن يقول
« أرى » و « رأيت » ويحكم على المسفل ويرفع سماء الفقه على عمد
الحرية . فلم يبق فى الأمه متساكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الأسلامى
محجورا عنه أن يملأ كل فراغ فى مسفل الرمان ، لأن العلماء كما قال أبو
حنبله (سعدون للنلاء وسحررون منه فل نرواه لنعرفوا طرق الدخول
فيه والحروح منه) .

فما للفكاهه التي رعموا عن السافى تعويضا نكب أنى حنبله وتلامذه
عندما سبى الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حب قال (.. فدما على

هرون ... ومعى حمسون ديناراً ... ومحمد بن الحسن يومئذ بالرفه فأبقت
الحسين ديناراً على كتبهم، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان
عندنا يقال له فروح وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان اذا قل له . عندك
فرشان ا قال نعم فان قيل له عندك رثبى ا قال نعم . فان قل له عندك
خري ا قال : نعم ، فاذا قل له أربى ؟ ولروءوس كثره ، فخرج له من
تلك الرؤوس اوايها هى دهن واحد ا كذلك وحدث كتاب أبى حنيفة ايما
يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وايما هم محالون له ...)

بلى هو دهن واحد حفا كما سبوا الفول الى فنى قريش العظم ، لكنه
أصول الشرع الاسلامى وفواعد الفكر السليم ، وهو دهن يحرج الرثبى
والخيزى والفرشان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج
هو منه كل شىء بعد قليل من الرمن ، واذا كان كتاب أبى حنيفة قد حالوا
الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المناسب أجمعين .

سمع ابن سريج رجلاً يكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذامه . فان ثلاثة
أرباع العلم مسلمة له بالأجماع والرابع الرابع لا يسلمه لهم ، قال وكف ؟
قال . لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم
ثم أحاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ فاذا جعلنا صوابه بحطئه
صار له نصف العلم الباقي ، والرابع الرابع يارعههم فيه ولا يسلمه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسن السؤال نصف العلم)
وعلى هذا الحديث فرع الملك عسى الأيوبى فقال مقالته ابن سريج .

وفى الحق ان الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل
التي تحتاج الى حلول ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف
الاستعراض وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن
العص قوة السؤال وضعف الجواب ومن أحل هذا كان للأسئلة رجال
وللأحوية رجال

قيل عن الحسن بن زياد انه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على
قدر سؤاله .

أما أبو يوسف فقد قيل انه أحسن الناس سؤالا وجوابا . ولما مدح الشافعي محمد بن الحسن أثنى عليه « لسانه وتبته في السؤال والجواب والاستماع » أما محمد فقال عن الشافعي (ان كان أحد يحالفنا وشت له الشافعي رضى الله عنه) قل . ولم ؟ قال « لتأنيبه وتبته في السؤال والاستماع » .

ولكل من الصعف في السؤال أو في الجواب أسباب لسا سبيل شرحها ، فحسبنا السه الى أن هذه المدرسة أول من اسعرض مسائل الفقه اسعراصها الشامل وأحاب على فروصها الاحباب الصافية ، فكان لها فيما أصاب فصل السؤال وفصل الجواب وفيما أخطأ فصل السؤال وفصل الاحهاد . وكان لها فوق هذه الأفعال جميعا فصل السبق في التدوين والرتب والسوي .

أحب الفقه الاسلامي هذا الاجاب ، وتارب في مضاره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرين من الزمان ، وقف بعدها التيار اد أوفى على التمام ، حتى اد ماب الطرى سنة ٣١٠ هـ بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس من بعد وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجل العصى . أن قد أفل باب الاحهاد ! وافتح باب التقليد ، وسرت عدوا كالوناء يحطى الفرون والقاراب ، واطع العلم طاع الحمود : ومسحت روحه وأصبح قصاياه كالألعار .



سذكر الاساسه هذه اليد لأنى حيفه عليها وعلى الاسلام فتسلكه في سلك المواصل الملائين في طلبات الاصطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الححم بررب كالعسجد الحر مراياهم . وتميزوا من الناس كما يتميز الناس من الفحم — وهما من أصل واحد — لأن الناس يتحمل الضغط العالي ولا يصبه الحريق وكلما صبب عليه النار ردها أنوارا ، أما الفحم فهو الفحم ، طلبات بعضها فوق بعض . لا يصبر على الضغط وصلاحيه الأولى للوقود . سذكر المؤرخون ذلك الاصطهاد على أنه مجد الامام الأعظم ، فلو لم يعص الله الحمى رؤوسهم لدلوا على أنه لا ورن لعلمه ولا لعمله فيقدر ما

يورد المرحل في مران الرحن يورد نه من حقد الحصوم ومن هوى الأشباع
ولا سح اذا كان الرجل صاحب الرنى هو الرجل صاحب الحصوم .

والعرياب الهائلة الى حلد بها مجد الاسلام لم تسع أن تكون للعارون
حصاء رأوا في وجهاته السريعة واجهاداته بعدا عما ذهبوا اليه من
المسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر الذي كان في يده من كور
الامراضوره الاسلاميه ما ان مقايحه لسوء بالعصبه أولى القوه ولكه لم يك
يملك الا فمخته ودموعه وتغواه ..

وقف عليه اعرابي فقال يا عمر الحر حزب الحنة . اكس سابي
وأمهه .

قال عمر فان لم أفعل ماذا يكون ؟

فان الاعرابي والله عني لسأله اما الى نار واما الى جنة .
فكى حتى أحصت لحسه ، وقال لعلامه يا علام أعطه فمضى هذا لذلك
اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لتعره .
ثم قال والله ما أملك عمره .

ولم سمع عن عمر المطاعن شهاده الرسول له أنه لم ير عبيرا يهري فريه ،
أى يصع حسعه . وأن (عمر معى . والحق مع عمر حسما كان) و (ان الله
جعل الحق على لسان عمر وقلبه) .

ولم بك أبو حسنه عاطلا من الفصل العسرى وأسباهه بل هو كان قطب
الرمان ، رهاده وعياده . وفوه ايمان وسداد رأى . ورغامه فكر ، وهى حمصا
أسباب حصومه لأنها أسباب كرامه ا

وسيسى الناس ما سال في هذه الحرب من جراحات اللسان والفم
فأبو حسنه الامام الأعظم لأهل السنة في علوم القرآن والحدث والفسر
لا يعرف اللغة العربيه ا فلا بحر المحرور ، وان كانت بحره حروف الحر
الغلاط ... ا

قال اللب بن سعد « بلعنى أن أبا حسنه يريد الحق فحرج اليه
فاصدا فامسه بكه فسأله عن مسائل كسرة في أبواب مفروقه وسأله عن

مسائل الحجاب وعن فل الخطأ وشبه العبد فقال لى فى بعض ما أحاسى ،
(وان صرته تأنو ففس) — حل أنى ففس — وفى روايه أخرى تأنفس ،
فقصنا الماسك ورحعنا ، ثم بلعى بعد ذلك أنه يريد الحج فحرج الله
فاصدا فأردب أن أحد عليه حرفا واحدا ما فدرت عليا ، فما أدرى أندرب
مه تلك الكلمه أو تكلم بحجه »

فما لأدب اللب وبنا لحماقه الحصوم ! انها لم تدر من أنى حصفه وانسا
تكلم بحجه فقد نكون تكلم عن أنى ففس ناعساره علما والعلم لا يعبر .
وانبدال الواو فى « أنو ففس » ناء عند الجر أو ألفا عند النصب واحب
يعرفه الأحداث فلا يحادل فيه امام الأمة الأعظم ، المفسر الكاتب ، المكلم
الأساد ، القصة .

تلك واحد وفى اللغه ، وهذه أمالها فى العصفه .

فأنو حصفه مرخىء اد يقول ان العمل لس ركبا للايمان .

وأنو حصفه ريدى ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فريدى مره أخرى ،

ثم تاب . وانه كافر تاب من الكفر مرات !

ال هذا رحل يقول أراه كان يهوديا !

وهؤلاء آخرون يقولون كان جهما !

فلدع قولهم انه كان ريدى أو كافرا أو يهوديا .

أما أنه كان من أشباع جهم بن صنوان الذى كان يقول ان الاسمان
مسر لا محتر وببى صفات الداب الالهه ولا يشترط للايمان الطوبى به ،
فحصفه نكدى أن جهما قصد الله يحادله فأحانه بقوله (الكلام معك عار
والخوص فما أب فيه نار .) ثم طفق نهرع حججه واحده اثر واحده
حتى فصل عنه جهم وهو يقول « لقد أوقع فى الحلد شئنا فسأرجع اليك » .

وكيف نكون جهما من كان مذهبه أن الصلاه حلف الجهمى لا تحور .

أما أن أنا حصفه مرخىء ، فلعلها من بهم الحوارح أو المعرله الدس
لا يقولون بالارحاء فلس به رب فى أن عامه المسلمين مرجئون على المعنى

الذى شرحناه من قبل لا يكفرون مرتكب المعصية كالحوارج ولا يجعلونه فى
مرلة بين المرتين كالمعتزلة ، واما يرون له النوبة والمغفرة ويركون حسابه
الى الله .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة « أقب عبد مالك مده فلما أردت
الرجوع فلب لعل الحساد ذكروا حدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر
لك مدهمة فان كان فيه رصاك فذاك والا فعظمى . ان الامام كان لا يحرج
أحدا من الايمان بدب قال أصاب . قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس .
قال : أصاب فمن قال عر هذا فقد كذب وأخطأ . قال بلغنى أنه كان يقول
ايمانى كايما حريل . قلت بلغك الباطل كان يقول ان الله تعالى بعث جبريل
عليه السلام الى السى صلى عليه وسلم كما بعث الى من قبله فأمره أن يدعو
الناس الى الايمان فالايما ايمان واحد لا ايمانان أو ثلاثة ، ولا ايمان هذا
وافراره غير ايمان دا وافرار دا . فتبسم كالراضى به ولم يفل شئنا . قلت .
وكان يكر الشك فى الايمان . قال . وما الشك فيه ؟ قلت عدا اقوم
لا يقولون ابا مؤمنون حتى ينشئوا أو يقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم
لا . فأكر وقال من يقول هذا . »

ذلك قول مالك فى قول أبى حنيفة .

والناس يرون أنا حنيفة بأعنيهم رجلا هو المثل العالى همة فى الدين ،
يحيا حياه طويله لسبب فى عداد الرمان ، الا سجدده محلصة لله ، ولا يبقى
من ماله الضخم الا البقية ، ويسمعونه بأدائهم فى المسجد ، وفى كل مكان ،
يحاهد نعله وسابه ويده حتى تكون كلمه الله هى العلبا ، وهم يقرأون
ويستمعون الى كنه « العالم والمعلم » و « الفقه الأكر » وكتابه فى الأرحاء
الى عالم البصره عثمان البتى والى القواعد الوارده فى الوصبة المعزوه اليه
وفىها حسنا الحجج الباهره على أهل الالحاد والبدع . وهم يعرفون افحامه
لأهل الالحاد ويسافلون تمثله للعالم بالسفنه ، ولحالاه بالسفان حيث يسائل
المشككين . (... ما تقولون فى رجل يقول لكم ان سفينه مشحونه
بالاحمال ، مملوءه بالأمعة والأثقال قد اخوتها فى لجة البحر أمواح منلاطمة
ورياح مختلفة وهى من بنها تحرى مستوية ليس فيها ملاح يحرها ويفودها .

هل يجوز ذلك فى العقل ؟ فقالوا لا ، قال : فيا سبحان الله ادا لم يجوز فى العقل وجود سفينة تجرى مسوية من غير متعهد ولا محر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اخلاف احوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ..؟)

فلم يس الا الهمة التقليديه الى وجه من قبل الى السيد المسيح وهى أن أنا حنفة يحرص على عدم التعاون مع السلطان لكن السلطان ليس أدنا لهم ، فلا يلف لهم ، ولا تمنع الواقعة . فلم يعد فى حصة السهام الا أحها : سهام الهدف والكلم الفوارص .

فأبو حبيبه من أبناء السايا ... ومن الدجاجة ، .. بل انه ليروى عن شريك أنه قال

(لأن يكون فى حى من الأحياء حمار حير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبى حبيبة) وانه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم منه على الاسلام ... وهو كان جربا يراه الرجل ممبلا يحوه فى المسجد ويقوم قائلا لأصحابه ، قوموا لا يعربا بحربه ... فيقومون ... وهو لا يثن نفسه فيحص تلمذه أبابوس على الشك فى مقولاته بقوله : لا تروعى فانى والله لا أدري أمحطىء أنا أم مصب ! ثم انه أحرأ الرجال على الرجال . قالوا ... ان رجلا جاءه من خراسان يقول عندى مائة ألف مسألة أريد أن أسألك عنها قال أبو حبيبة . هاتها . وتساءلوا فيما بينهم أسمعتم أحرأ من هذا ؟

والجواب أن الحرىء على الحق ليس هذا المحب واما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يعرف عنه الا انه امعة من الامعاب ، ومع ذلك يزعم انه يعنى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عمل يحفظها أو لسان يسطها !! ولماذا لم يجىء ذلك اللودعى بمسألة أو بصع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات اعجازه الكبرى ؟.

لقد كان حوار أبى حبيبة له حوار أسناد عبد الروح يسمو على الأعلوطات

ومن قبل أبى حبيبة كان ابن سيرين اذا سئل عن مسألة فيها أعلوطة قال للسائل أمسكها حى تسأل عنها أخاك اليس !

والأعلوطاب — كما فسر الأوراعى بهى السى عن الأعلوطاب — هى
المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أسس عن محرم نزع نأبى ثعلب فلم يرد عليه
شئاً .

أما أبو حنيفة فلم يسمه السائل بالكلام كائى سررى ولا بالامساع عن
الكلام كائى أسس لكى أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهى أمره فسمه
الرحل نفسه وأحراه الله .

وأما عن الرد على مائه ألف من المسائل فإن فواعد أنى حنيفة وفروعها
تحتوى أكثر من ذلك وأمثاله لمن تشاء

يا لله أصحيح أنه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم من أنى حنيفة على
الاسلام ۱۱ أصحيح أن وجود أنى يوسف أو محمد أو داود الطائى أو رفر
ومالهم فى حى من الأحياء شر علىه من وجود حمار يسمع منه سب الحان ۱

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام « ولى لعالم أمر من حاهله »

أم أنه المجد وارتفاع المقام بعنه محمد بن الحسن اد سميع فذح
الخصوم فى أساده فقول .

محسودون وشر الناس منزله من كان فى الناس يوماً غير محسود

أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك .

حسدوا أن رأوك فصلك الله بما فصاك به البجاء

أو كما قال هو داب يوم اد أقبل على رجل ، فسأله من أنى أقبل ؟

فان من عند شريك وكانت بهما وحتة كما رأيت — ورفع رأسه وقال

ان يحسدونى فابى عر لائهم عرى من الناس أهل الفصل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما بى وما بهمو وماب آكربا عطا بما يحسد

لهد كات فاعده (أن السلف لا يحالفون) فى قدسها عندما تعمل

فيها معاولة ، ولم يك شاع فى الوسط العلمى أن أحكام المعادلات لست

تعبدية ، وعزير على أنفس المعسسين أن فصلوا الاتجاه القاصى على ما ألفوه

دو ان جمعوا صده ، أو يصبروا على الجهر والالجاج والحدى
بأن رأى اسنان من الأناسى عشر مصدرا للحكم على حاصرهم وماصهم
ومسفلهم .

أم أنه لس الحسد ، ولس الجهل ، ولا العصب هي التى جعلت على
فلوبهم آكه أن يفهموه وفى آدابهم وفرا ، وانما هي الخصومة القديمة
الصاربه بحرايها بين القدم والحديد .

لم تك هذه الهمم الا بها تليده بلغاها الباحثون على صفحات التاريخ
فى كل زمان ومكان . شسبه عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أديائه ،
تدعى أيا ما تدعى ، بأسماء محلله أو مشابكه ، لكنها لمسمى واحد قد
يسمى فى المسرى بالريده . بحورا لعسر فارسى براد به الالجاد . ويسمى
فى الغرب بالهرطه Heretic براد به - فى الواقع - أعداء الكبسة
فى الاعتقاد .

لكأنما يصق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء الناعس وان
كاتب الدنيا لا يصق بأحسادهم ، والا فهم لا يضق الناس فناء المجد الا بعد
أن يرابل صاحبه دنياهم . فصيح معنى من المعانى وذكرنا فى الرمن .

وكأنما ترسل النفس القويه على الأرض شعاعا تعسى من صبائه
الأنصار ، فادا صعدت الى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالترى .
وفتحوا أعينهم فى أفق أوسع وألمع .

هناك نابع الأحياء موتاهم ونفسون المسائل لمن أحلى مكانه فى
الوحد فادا تابعوا الأحياء نابعوهم مجبرين عر محاريس ، ورسوا بهم
كما يرسون بقضاء الله الذى لا يرد ، ونظواهر الطبيعة التى لا تقاوم .

لا جديد تحب الشمس ، ولا حديد فيما فارقه خصوم ابى حننه فى
عهده ، ولا فيما صعبه خصوم الفكر من قبله ومن بعده ! لقد فقد (لكرح)
من ألقى عام فل ذلك احدى عسبه من حراء احدى شرائعه .

انما الحديد فى صدد أبى حننه أن الولاه لم يسمعوا ولم يحدعوا ،
على فرط ما استمعوا وما ابدعوا فى حوادث الايمان سواء . فلعلها بركة

السنة على امام أهل السنة الأعظم ، فلم تشمل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم
تصبه محاكم النصيش ولا مداح العقائد ، وحمى الساريخ مدرسة الكوفة
وامامها . فلم يقع فيها ما وقع فى أتسا وروما وبيزطة ومدرند وباريس وعداد
وغيرها فى الشرق والعرب ، فى عهد الحضارة الأولى أو فى القرون الوسطى
أو الحديثة .

ها لك ترى فى العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالاعدام خمسمائة
قاض من الجماهر . لانه يفسد عقائد الأثينيين^١ وأرسطو يهرب خوفا من
تهديد مواطنه ويموت فى مهربه^{١١}

وترى فى مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلص)
زعيم الاصلاح الدينى بعد مارتى لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برونو بحجة
الهرطقة !

وهناك حوكمت القديسة جان دارك وسرفاتس وكثرون حد كثيرين
من رواد العقل الشرى^١

وها تجد المعصم — بطل عموريه — وأخا المأمون الفقيه — يخلد ابن
حنبل بالسطا والجالد والمخلود صائمان ... ! وابن عبد القدوس ، والبويطى
واحمد بن نصر ، ومحمد بن بوح ، وابن تيمية وأمتالهم .

ها وهنالك لقي الفكر الانسانى من العذاب ما تئدى له الحياه ...
لقد صعد هذا الفكر الاساسى درجات المشقه ، وهوب عليه المفصلة ،
وشرد ، وجرد ، وحرم الألفا ، وداو عذاب الحريق ، لكنه كان يعب شعاعه
على عمد المقصلة ويملا الأرجاء بالاشراق .

وكانت غداة السجس له أولى درجات الحلود .

الباب العاشر

في القضاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تسع منها وتباعد عنها ولا تدن
مها فانك تحرق »

(أبو حنيفة)

كان وضعه الحكم في الكوفة عملاً لا يعط عنه من وسد الأمر اليه ،
وكان هم الولاء منهم ان بعد أن سقوا عليها أفعه القهواء .

ودا قلب الصعجات الماصه من تاريخها اسفلتلك أسماء من الطرار
العالى ...

رلى « شريح » القساء فها لعمر بن الخطاب ، فلعسان بن عفان فلعلى
بن أبى طالب ، لظفر منه بقوله « أب أقصى العرب » . وتولاه لمن حـ
بعده فطل نحو تلى فرد فى عمله لم يقطع الا تلاته أعوام فى فيه ابن الرسر
حسن اسفال الحجاج وأقاله . ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى
الشماس من الهجره

وتلاه « السعى » . وما أدراك من التسعى ! بعته عبد الملك بن مروان
الى ملك الروم فلما فعل راحا سلمه الملك حطانا الى أمر المؤمنين وقرأ
عبد الملك الخطاب فادا فيه « عجا من أهل ديارك ! كيف لم سحلفوا
رسولك ! » قال التسعى « يا أمر المؤمنين أراد أن يعريك بعللى حسدا ... »
وبلع ذلك ملك الروم فقال لله در أنه ، ما أردت الا هذا .

حسن التسعى للقضاء بحوا من ربع فرد حتى مات سنة ١٠٤ فحلف من
بعده (الأساد الأول لأبى يوسف) محمد بن عبد الرحمن بن أبى للى حتى
سنة ١٤٧

وكان طبعها أن سرئت الأعناق الى أبى حنيفة لبولى مصب القضاء ،
بعد أن جلس محدث ابن مسعود فى القضاء ، فاتجه اليه يريد ابن هبيرة عامل
مروان على العراق (١٢٧ - ١٣٣) حسن فامت القس بالعراق فى آخر باب
أيام بنى أمه .

جمع برید سانه ابن أبى للى ، وابن شرمه ، ودواد بن هيد وولى كل
واحد منهم صدرا من عمله ، وبنارل لأبى حنيفة عن حرة من سلطانه لىكون
فى يده حاتم الدولة بحم به كل أمر ، وحمل له حق انفساد الأحكام النى
يصدرها القضاء والجراح أيضا وحتم أوامر الوالى ، فرفض أبو حنيفة ، وألح

يريد وأسار أصحاب أبي حنيفة عليه بالنفوس فقال « لو أراد أعدائه أبواب
مسجد واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكسب بصرب عنق
رجل وأحسم أنا على ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل في ذلك أبدا .. »

قال ابن أبي لبلى . دعوا صاحبكم فإيه هو المصيب .

وسحق يريد أنا حنيفة أسوعس وأمر بصره بالسباط ، فبل صربوه
مائة سوط وعثره كل يوم عسره أسواط فلم يردده العذاب إلا تائبا .

لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأساد ، فإن لم تفلح في أن تصبه
الى رجال الحكم فلتستبدد اليه سبب من الأساب . وعرض عليه يريد أن
يسلكه في الطرار - (سب المال) - لكن الأساد كان أسمى من الأمراء ،
وأعنى عن الحلفاء فأبى .

وقبل انه ترك الكوفة الى مكة سنة ١٣٠ ومضى الى حوار سب الله بضع
سبب حتى بولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق اقلما نائرا على ما وصفا وكاب الكوفة عنواه . لا يقنصر
شغبها على الحلفاء والأمراء بل ينعدها الى الولاء والمصاه .

روى الشعبي عن شريح أن قد حاءته امرأه تحاسم رجلا فأرسلت عندها
فقال له يا أبا أمه ما أحال هذه النائسه الا مظلومه ' قال يا شعبي ان احوه
يوسف حاءوا أباهم عساء يكون وهم له ظالمون ١١

وكان ذلك أيام لم تألف الناس أن يساكي الظالمون كما يساكون في
القرن العشرين ، كصاحك المرن . دمع ولا حزن

ودخل على السعسى في مجلس المصاه زوجان فأدلب الزوجه بحجتها
وكانت بارعة الجمال فلما فرغت من شأنها الفت القاصى الى المدعى عليه
يسأله وما دفاعك ؟ .

ورد الشيطان على عبر اسحياء بهذه الأساب :

فمن الشيعى	مسما	رفع الظلم	ف الى
بدلال	وبحطى	حاجبيه	

قال للجبلوار قر بها وأحصر شاهديها
فقضى جورا على الحصا — م ولم يقض عليها
والجلواز في الفارسة ، هو الحاح في العربية أو الشرطي .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجريرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك
ابن مروان في دمشق فلما دخل عليه الشعبي داب يوم صحك بالرحل ؟ قال :
الشعبي لما رفع الطرف اليها ... » وسأل القاصي . ماذا فعلت بالرجل ؟ قال
أوجعته ضربا يا أمير المؤمنين بما اسهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما
افرى به علي ، قال أحست .

كان المصور يقول لحاصنه : ما أحوجني الى أن يكون علي بابي أربعة
بهر لا يكون علي بابي أعف منهم ، فل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال . هم
أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم ، أما أحدهم ففاص لا تأخذه في الحق
لومة لائم ، والآخر صاحب شرطه يصف الضعيف من القوى . والثالث
صاحب حراح يسقي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها عني ، والرابع ..
صاحب يريد يكب الى بحر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاية البريد في الآفاق يكتبون اليه أيام خلافه سعر الصبح وكل
مأكول وبكل ما يقص به القاصي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وما يرد
يب المال . وكانوا يكسون حوادث النهار اذا صلوا المغرب . ويكتبون اليه
بما كان في كل ليلة اذا صلوا الغداة . فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى
الأسعار على حالها أمسك . وان تغير شيء عن حاله كتب الى الوالي والعامل .
وان شك في شيء مما قص به القاصي كتب اليه في ذلك وسأل من بحضرته
عن عمله فان أكر شئنا عمل به كتب اليه يوجه ويلومه .

تعر العراق في الدولة الحديده فأصبح مركز الدائره بعد اد كان مجرد
قطر من الأقطار ، ولقد بويح السطاح في سنة ١٣٣ هـ — ٧٤٩ م بالابار ، ثم
اسفل الى الهاشمية ، وحلله فيها المصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فبدا له أن
يسى عاصمة للدولة عبر الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل الى موضع
بعداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة

ايوان كسرى ويقص القصر الأبيض ليدخل الأتقاص فى بقاء بغداد ، ثم كف
لكثرة الكالف وتحر لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) فى
وسطها وبلغ ما أبقى ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر اليها العلماء والشعراء
وأصحاب الآراء وأتاهم الناس من كل فج حتى عدت بحق عاصمة الدنيا .
وبلغ سكانها ، نحو المليونين فى عهد حصاره الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) —
(٧٨٦ - ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التى أشأها وهى بغداد كان يعورها ما كمل مجد
أسارطة اسم كاسم « لكرح » وما حمل محمد أثبا ، مشرع مثل
« صولون » .

كان يعور رجال بغداد الرجل الذى يصع تحوم الحصار التشرعية عدد
أساطين مسجد الكوفة فأشحصه أبو جعفر الى بغداد فشخص اليها .
هالك دعاه الى ولاء القضاء فى بغداد ، وقل فى الرصافة التى بناها
لولده المهدي . وفيل دعاه لوليه قضاء القضاء فيخرج القضاء من تحت يده
الى جمع كور الاسلام ، أى الى الوظيفة التى أنشئت لأبى يوسف فى عهد
الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبى صلى الله عليه وسلم (القضاء ثلاثة
فأص فى الجنة ، وفأصيان فى النار . قاض عمل بالحق فى قضائه فهو فى
الجنة ، وفأص علم الحق فجار معمدا فذلك فى النار ، وقاض قضى بغير علم
واسنحا أن يقول لا أعلم فهذا فى النار » كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة
والسلام (يؤتى بالمضى العدل يوم القيامة فلعن من شدة الحساب ما ينسى
أنه لم يقض بس اثنتى فى ثمرة قط) ويعلم حديثه الآخر (ويل للأمرء وويل
للعرفاء وويل للأمناء . ليمنن أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة
بالتريا يجلجلون بس السماء والأرض وأهم لم يلوا عملا) .

وكان يعلم ما يسأله الرواه عن عثمان بن عفان اذ نادى عبد الله ابن
عمر (اذهب فأص بين الناس) قال : أو تعافبنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما
تكراه من ذلك ، وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : (ان أبى كان يقضى فان أشكل

عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان أشكلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل حنبل ، واني لا أحد من أسأله .)

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بمصر لدعوى كعب ابن صفة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن صفة ، حكما في الجاهلية فلما عرف ما دعى له قال (والله لا يحصى الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن يحصى الله منها) .

ورفض حنا بن شريح القضاء بمصر فحى بالسيف والبطع فلما برز السيف أبرد مضاح داره وقال هذا مضاح داري وقد اشنفت الى لقاء ربي ... ولما رأى الأمر اقباله على ربه حرمة من لعاه وأعفاه . ودعا أنا حرمة فأبى حتى هددته بالسيف فقل قضاء الأمر عليه بأن سولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبى الأسود صاحب حراسان لسهد عند قاضي البصرة اياس ، قال اياس مرحبا وأهلا بأبى منصرف وأجلسه معه ثم قال له ما جاء بك ؟ قال لأشهد لعلاء قال ومالك والتهاده ، اما يتشهد الموالى والجار والسوقه ؟ قال (صدق) وانصرف من مجلسه راضيا فقالوا له انه خدعك . اما أراد بذلك أن يحصل من شهادتك لأنه لا يضلها ١١

قال . « لو علمت ذلك لعلوب رأسه بالقصب »

وهكذا كان القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة الى دكاء اياس - مصر المثل في الدكاء - لحيطة باستغلاله ١

كان التسح يعلم ذلك . لكنه لا يردد أمام تبعاته ، وان ما فيه من ركانه وعلو همه ليمعه من الردد وان به لفظانة وسبوا عن الهوى بحسبان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شئنا مذكورا اذا فسب الى تبعات القضاء ..
لقد كان شريح يقول (أنا أفشى ولا أفى) فكان قاصدا لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفسيا .

ولكل مقام رجل . والقاضي يقضى في نفسه بداتها ؛ أما القضاة فتتبع
القواعد للقضاء وللشفاة أجمعين - ولهذا يربو خطأ القضاة على خطأ
القاضي مرات .

قال سجنون « انا لله ما أشقى المصطفى والحاكم » وقال : « هأنذا يعلم
مضى ما تصرف به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق أما كتب عن هذا
عسا ؟ » ذلك بأن قوى القضاة - على حد تعبير ابن النسيم - شريعته عامة
تعلق بالمسئولين وعمره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردى لا يعمد إلى
غير المحكوم له

استنوم المصطفى في الأمة مقام السبي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام
(ن اعلساء ورتة الأنساء والآنساء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورتوا
العلم)

فدؤد العلساء اذن أمامهم وليورعوا في الناس ما وربوا من الأنساء
وإنه لأمانة بنقص الظهور وتؤدد أقوى الأقوياء على القضاء وإذا صح قول
السافعي (من ولي القضاء ولم يصغر فهو سارق) فإن أنا حسبه فصر مع كثره
ماله وعنى بالله عن العالمين .

وإنما هي الوظيفة في خدمه السلطان يهف أمامها مسائل
مادا عن العدد ؟

إنما هي عظام الماصي يشترها من يديه . والماصي مرآة المستقبل .

فهي مقالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) فدف حدى بمصر رجلاً
من الأهالي فسجنه القاضي وأخرج الوالى الحدى السجن من سجنه فلم يك
من القاضي إلا أن ترك وطبقه ومن قبل ذلك فى مصر أيضاً (سنة ٨٩)
أقام القاضي ابن شراحيل الحسى الحد على كاتب الوالى لشربه الخمر فعطل
الوالى قضاءه فاستقال

وكاتب سبل بالأنساء أعوان المطى فى الصحراء ، متلما تسيل الآن
بالأنساء موحاب الهواء واهراراب الكهرباء ، كما كان يسافها أعضاء المؤتمر
العام . الذى ينعقد كل عام ؛ اد يلقى الجحجج فى جوار البس الحرام .

واستعرض الامام الأعظم حوادث بصعه عشر ربيعا خلت من عمر الدولة العباسية لا يأتون فيها بمخالفة من أمر أو ورير ويأتون الا أن تكون كلمتهم هي العليا ... وهو أدري الناس بما يجب للقضاء من اسعلاء ، وما يلقاه رجله من ابلاء ، وهو القائل للميذه نوح بن مريم امام مرو عندما أعلمه أنه اسلى بالقضاء « ورد كتابك ووقف على جمع ما فيه وفلدت أمانة عطسه يعجز عنها الكبار من الناس وأب كالغريق فاطلب لنفسك مخرجاً ... » .

وعقب على ما فات بلك الآيات التي يبعث بها الفراء الثاني الى القضاء في كل العصور « فاذا جلس الحصان فسو بين الصعيف والقوى والشريف والوضع في المجلس والاقبال والكلام .. ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرعا من جميع ما يريدون الا أن يأخذا في فصل فمنعهما عن ذلك وتبس لهما ذلك ولا تعجل بفصل القضاء بين القرايات ورددهم محالين لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله (من جعل قاصبا فهو كالغريق ، الى متى يسبح وان كان سابحا) .

وراجع نفسه كره أخرى اذ يقول للامذه في داره (أنتم مسار قلبي وحلاء حرنى قد أسرجت لكم الفقه وألجمه ... فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من حلاله العلم لما صنموه عن دل الاسئمار) .

وان منهم من سرفض القضاء عدا لأبي جعفر كره ، وان منهم من سرفضه بعد عد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذى أبي حنيفة وكيعا وحمص بن عياث لبلى القضاء أبى وكيع وقل حمص فخاصم وكيع حمصا حتى مات .

استعرض السيج ذلك وأمثاله مجهرا مكبرا وفي سرعة « الأفلام » وراح يسببط على طريقه ويهس ويستحسن ، واستنوقه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر الى القضاء يلومهم اذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستنوقه أن يكتب عنهم ولالة البريد كما يكتبون عن العمال واسترجع قوله

عليه الصلاة والسلام (ان قليل العمل مع العلم كثر . كما أن كثيره مع الجهل قليل) . وقوله (تعلموا ما تنتم فلي يجركم الله حتى تعملوا)

فلسع الآخر من الله بالعمل في سبيل الله . لا في سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يحاهر بإعجابه بالحجاج قائلاً « لب لي مثله »^١ . وكاتب سيرة الحجاج لم تلوث بأفصح مما تلوث به من قبل العلماء والمثيل بهم حتى لحرف عن الصلة سعيد بن حسر كي يصلى وتصرب عقه .

إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الحطر ، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه الحطر ، فحرم أمره واستحار به فخار له . ورفض ما طلبه إليه أمير المؤمنين . وأصر امام المسلمين وأصر أمر المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعل . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال . ابى لا أصلح للقضاء قال الربع اس يونس الحاجب ألا ترى أمر المؤمنين يحلف ؟ قال أبو حنيفة أمر المؤمنين أفدر على كفارة أيمانه مى .

فأمر به أبو جعفر الى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما يحسنه ؟ قال أصلح الله أمر المؤمنين لا أصلح للقضاء .
قال الخليفة كذب .

فانطلق أبو حنيفة يقول قد حكم على أمر المؤمنين أبى لا أصلح للقضاء لأنه سسى الى الكذب فإن كتب كادبا فلا أصلح ، وإن كتب صادقا فقد أحرب أمر المؤمنين أبى لا أصلح ...

وطبق أمر المؤمنين يبارله فى الأمر وهو يقول . اتق الله ولا ترع أمانك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون العصب ولو اتحه الحكم عليك بم هددتني أن تعرقني فى الفرا لا حرب أن أعرق . ولك حاسه يحاحون الى من بكرمهم لك فلا أصلح لذلك ... وكيف يحل لك أن تولى فاحسا على أمانك وهو كذاب^١

فل وداروا به فى الأسواق أياما كثيره على أن يصل القضاء فأبى وردوه الى السجن . وقالوا ان الوزراء يصحوا أبا جعفر باخراجه من

انسجن وحعله فى مرله ومعه من العوى للناس والجلوس لهم والجروح من المرل ، فكاتب تلك حائه الى أن مات بعد قليل من الرمان ، وقبل بعد آياه معدودات .

وقالوا انه صرب مائه سوطا أو مائه وعسره أو ثلاثس سوطا . حنى سال الدم على عمسه فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة للخليفة سلب على نيك مائه ألف سيف . هدا فمه أهل العراق فميه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر ثلاثس ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وصعب بن نديه رفضها فقل له لو تصدفت بها . قال - أيوجد عندهم الحلال ... ؟

وهكذا حبس الرجل الذى طلب الحرية نصف قرن اسما هو مسماه ، والذى عاش سبعس عاما يصنع الحرية بده صعا ويحلفها فى تلامبده خلقا وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحس بوره أحد ولن يحسه قد أو صعد .

ان معايس هذا العالم وعبوده للناس وللولاة ولكها ليس للعافره . تلك كات القصية الأجره الى سمع فيها قول أبى حنفة نقل التاريخ السا منها حملة الوافعة ولم يصل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لستخلص ما فيها من القصايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلا كذابا ان صح قول الخليفة فادا لم يصح فامب قصية أخرى كالمقصية الأولى .

كيف نولى القضاء رجل يهدفه أمر المؤمنين .

وكيف تسخر اندوله العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء ؟

كاتب قد أثقله مفاخر السس الطويلة الى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الرأى الانسانى فى الأعصر كافة ، وكان أخوف ما يخافه على النصاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفنك الطعنه اذا أصاب الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء ..!

ولئن كان في كنف السلطان رغبة تسبل اللعاب ، انها لمسيطر عليها
القلوب والعداوت والاسرهات .

قالوا دخل شريك يوما على المهدي فقال له المهدي : لا بد أن تجيئني
الى حصاه من ثلاث : أن تلي القضاء أو تحدث ولدي وتعلمهم أو تأكل عندي
أكله . ففكر ساعة ثم قال الأكلة أخفها على نفسي . قال الفصل بن الربيع
« فحدثهم والله وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبي حنيفة فما قال لأبي يوسف عن السلطان اد تفرس فيه أنه
سلي القضاء .. (فكر منه كما أب من النار تتفع منها وتتباعدها ولا تدن
مها فالك تحرق وتتأدى منها ، فان السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه ...)

وما رمى أبي جعفر لأبي حنيفة بالكذب الا الخطوه الأولى . وقد
حطاها ، فمادا كان يحصى له العد من نرواب ، وأى نذر كان تلك النذر ... !
لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذوه أبو جعفر . وان التاريخ
لعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذي صدق هو الامام وأن
الذي كذب هو الحنيفة .. !

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليا ، ورفع صوته جهوريا مدويا —
فلن يلقى أعلام الحرية تحب أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن
يقول للمنصور ، ما قاله الزهري من قل لهشام بن عبد الملك . والله لو ناداني
مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر في بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبي جعفر من النجاح ،
ما قدر مع الرشيد لأبي يوسف . فلئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين
الدين والدنيا وتعظم السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيرا من عبقرياته !

وكم كان من العروى من العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد
ربع قرن .

لكن لأبي جعفر من الحق على التاريخ أن يز نرأيه التاريخ ، فلقد أهمته
وظيفة القضاء ، على ما أسلفنا من المقال وما كان أعظم حاجة البلدة الى

تحمل اسمه (بغداد - مدينة المصور) الى أبي حنيفة في حين لم يكن بأبي حنيفة حاحة الى تلك اللة أو الى الرجل الذي تحمل اسمه ، وفي عصر قال فيه ابن المنعم « الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك » وفي عهد كان سباح فيه من أهل الدولة مالا يباح .

كان المصور يريد أن يهرن مجد السالة الزائل بمجد العدالة الذي لا يرول . وفي سرته من الدلى والسمو مالا مشابه له الا في سير أفذاذ الساسة والمؤسسين كأنما تأبى السماء على الأرض أن تسوى أشباؤه وتسط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تسمر في تحلقها السماوى فربطها بطبائع العال والطمر والبال .

في هذا الرجل عداله عمرية وفيه حانات دونهما الكثر من الحانات .
احلف مع روحه (أروى) أم المهدي ، فحعل لها أن تخار فاضيا في حصومها واحارب قاصى مصر عوت بن سلمان فحمل القاصى الى العراق ووكلت حادما لها لحاصم الجلده في مجلس القضاء فقال عوت لأبى جعفر (ان رأى أمر المؤمس أن يساوى الحصم في مجلسه) فاحط عن فرشه وحلس مع الحصم وأقر شروط لها في كتاب الصدان وقصى القاصى صده .

وكتب الى سوار بن عبد الله قاصى البصره أن ينظر في أرض اخصم عليها أحد فواده مع رجل من تحار البصره . وكانت الأرض في يد الباجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها الى الفائد فأبى القاصى فكب اله (والله الذي لا اله الا هو لدفعها الى الفائد) فكب اله سوار (والله الذي لا اله الا هو لا أخرجها من يده الا حق) واسفل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصاح الفرح فقال « ملأتها عدلا . وصارب فضاتى تردى الى الحق . » وكانت آه اعجابه بحكم عوت بن سلمان أن أمر باحساسه لنولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعذر عوت بعربه فردده الى صفاق النبل .

واسفصى اللب بن سعد امام مصر بل فل انه غرس عليه ولاسها فأبى .

واسفصى يحيى بن سعد الأنصارى اد اسفدمه من المديه الى الهاشميه .

واسمعى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتحد منها محباً ...

فهدم الوالى عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يوصاً فى
صحن الدار فاجاه « ألا تخرج الى الناس فمضى بكتاب الله وسنة رسوله ! »
فرفع رأسه وقال « الى هنا انتهى عمك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع
الأساء وأن القصاص يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول يارب يعدو عليك احوالى عدا علماء
حكماء فمهاء وأقدم عليك فاصا ، لا تارب ولو فرص بالمقاريض ... ! »

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبد ورحاله ليحملوا معه تعاب الحكم .

كان أبو جعفر ساء مثالا من بياض الدول وافدا من المدان — والسنة فى
المدان سسان — فه عرماى الصوه والنفقات المحك فأحدث يسراه تطش
بحصوم الدولة واطلف يماه فى سبط وايباس تحمل مران المعدلة فى
الناس ...

كان سحاؤه من أحل الدولة مصر المثل ومن أحلها أيضا كان شحه
مصر الأمتال ، حتى لسمى بالدواسى أو (أبى الدواسى) والداسى ١
درهم .

طلب اليه سوار (القاصى) أن يسوى أحر كاتين لسوار — مرتب
أحدهما أربعون درهما ومرتب الآخر عشرون — فكذب أبو جعفر اليه أن
يقص دا الأربعين عشره ، وأن يزيد دا العشرين عشره ١ وانما أراد سوار
أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين ١١

ولما علم أن اباه المهدي وهب عشرين الف درهم لشاعر ، استرجع من
الشاعر ستة عشر ألفا ١١

وقال له ان المهدي عر خدعه ولا يعرف قيمه المال ١

ومع ذلك تجده يمسح الرجل من نبي العباس مليون درهم ليجعل له
دارا ومكانا ...

وسما يصح بأنه ملأ الأرض عدالة ، ويجمع حوله الواقس الى العلم
وعتساي الحكمة ، اذا بنفسه تسول له أن يعض العهد الذي عاهد عليه يزيد
بن هشره بعد مفاوصاب ظل الشهود يحلفون فيها أربعين يوما ، فلما انصرف
يريد من مجلسه قال أبو جعفر عجباً ممن يأمرني بفنل مثل هذا ... !

لكن الفائل أبو جعفر . فلا عجب اذا كان الفاتل أبا جعفر ... لقد قبله
ودل معه ولده داود قبل أن يحف مداد العهد و (فى العهود وفاء لا غدر) !

ودعا الى قصره أبا مسلم الحراساني الذي أخرجاه وأخاه من محبتهما
فى الكوفة من صنع سنس لبيحه ويسخ أحاه من قبله دولة تبهى الى سه
٦٥٥هـ فى بغداد ، وخلافة تبهى الى سه ٩٢٣ بمصر ، دعاه الى قصره مبسا
له ليل ، حتى اذا كان من يديه وتب به عنده فقتلوه .

ولما هرم عنه عبد الله بن على فائد الحوش العباسه المظهره احصى عبد
الله نأحه سليمان بن على بالبصره فأعطاه المصور أمانا حتى سلم الأخ أحاه .
لكن المصور حبسه حتى مات وفل أنصاره

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع محارى أماناته فكذب
اله (أما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هيرة ؟ أم أمان
عمك عبد الله من على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ والسلام ...)

قل له : لقد هجمت بالعصوبة حتى كألك لم تسمع بالعفو . قال : لأن
بى مروان لم قبل رميهم بعد ، ونحن من قوم قد رأوا بالأمس سوفة واليوم
حلفاء ، فلس ينمهد هيبسا فى نفوسهم الا بلسان العفو واسعمال العصوبة .

فهى السياسة ادن تدفعه الى البطش وتعميه عن المغفرة ، والعدر عنده
مصلحة عليا والبطش عنده حكمة بالغة .

لكه لم يك يحان ويفدر حت لا تلزمه السياسة أن يحيس بعهدده .

شرط لزوجه أروى ألا يروج عليها ولا يسرى . ولما هم بالزواج من
سواها حجه بعهدده فكان يكتب للعهده ، بالحجاز والعراق يطلب فى كتاب
الشرط رحمة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ! وفيما

بيده وبين الله صاحب عهد ١ أما في السياسة فعهدده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فإذا أمن الأدي عليها تراءى لك البشر الذي يستقبل به المصاء ضده ، والنصح العنيف له ...

كان يسفل عمرو بن عبيد زعيم المعزلة بالترحاب ويشد فيه (كلكم يمتي رويد . كلكم طالب صد . غير عمرو بن عبيد) وكان عمرو شيخا حريثا يطلع لسانه في الملوك وفي الصحابة ١ قال لأبي جعفر يوما « ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . وذكر ليله تمحض عن يوم لا ليلة بعده ...) فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الرسع بن يونس يا عمرو عممت أمر المؤمنين . قال عمرو للحليفة « ان هذا وأشار الى الرسع - صحبتك عشرين سنة لم ير لك عليه أن يصحك يوما واحدا وما عمل واره بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة سه » قال أبو جعفر فما أصنع ؟ قلت لك خاتمي في في يدك فعمل وأصحابك فاكفي قال عمرو لا . أدعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك . سالك ألف مظلمه أردد منها شئنا نعلم أنك صادق ...

ودخل عليه سمان النوري فأعطاه له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب بم قال . وما قولك أنت يا أمر المؤمنين فيما أتعمت من مال الله ومال أمه محمد بن عبد الله . وقد قال عمر في حجة حجها وقد أهدى ستة عشر ديناراً هو ومن معه . « ما أرانا الا وقد أحففنا بسب المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأب حاصر ذلك وأول كاتب كسه في المجلس عن ابراهيم عن الأسود عن علفمه عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال « رب محوص في مال الله ومال رسول الله فما شاء نفسه له النار عدا . » فقال له أبو عبيد الكاتب أمير المؤمنين يسفل بمثل هذا؟ . فقال له سفيان « أسكت فإما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر « امسكت يا أنوك (أحقق) فوالله ما ينبغي على الأرطل أحد اليوم يسفل منه غير هذا ومالك بن أنس . »

كانت حالة أحكام عرقية في دولة لم تكند تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حذب وصبوب ١ ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهي عنده

الثوره ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل انه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الحلفه فهي عنده ثورات .

لقد كان يحطب في نفس العام الذي دعى فيه أبو حنيفة للصياحه فمحول اما أنا سلطان الله في الأرض .^١ لقد كان السلطان الذي في يده أصعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون « أنا الدولة » ويعنى به لويس الرابع عشر . وكانت حنطه ملأى بدعوى الحق الإلهي في الخلافة . كان يطربه ويضطرب بنى العباس أن يقال للرحل منهم ابن عمك رسول الله ^{١١} حريص على أن يكون ملكهم فائما على رصا الشعب لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد ، وأشدهم في هذا أبو جعفر حتى حتى له بنو هاشم أنفسهم هاشم العوالي ..

قال مالك « دخلت على أبي جعفر ورأيت عمر واحد من بنى هاشم يقل يده المرتبن والتلات ^١ ورزقنى الله العافيه من ذلك فلم أقبل له يدا ! »

ومن أحل ذلك تراه اد ول انه منح أنا حسنة عشره آلاف فرفضها ، يرحو ألا يديع في الناس أبناء العطاء والاباء ، فهي الرقص ثوره أو اسعلاء وهو وهو لا يصل الثوره ولا يطوى الاسعلاء ، فكيف يعرض عليه القضاء فيصف في وجهه مره اثر مره يقول . لا ...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبي حسنه أن يأبى وأن يصر على الاباء .

فالدولة التي لا تأدن نأ « يحصع السلاح للوشاح » كما يقول المتل اللاتنى ، ويضرب فيها القصاه هي أخرى الدولاب بأن يحابها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و (ان اناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة الصياحه من يدي أبي جعفر وبن يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه الى حوارته تقول . يا نعمان ان علما ما أفادك عن الصرب والحسن لحقق بك أن تنفر عنه . فأحابها « يا أمه لو أردت الدنيا

لوصلت اليها ولكي أردت أن يعلم الله أني صلت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة » .

وأدخل السحن فلم يهبل أن يأكل من طعام الحلفه وبعث الى ولده حماد يقول . قد علمت أن قوتي في الشهر درهمان من سويق (الباع من الحطة أو الشعير) وقد حسنه عنى فعجله .

ومك في السحن أياما معدودات ثم صعدت روحه الى بارئها .

وهكذا تعدى أبو جعفر الالحاح الى الاكراه ، وتعدى الاكراه البصاني بالبمس ، الى الاكراه الجثماني بالسحن وتعدى ذلك كله الى التعذيب والصرى فأى حيايه تلك سحق بها عذاب الله وحساب التاريخ ... ومهما قل عن سالة العاية فانها لا ترخص عنه الوصيه والمذمه . فاذا كان الضرب أو السحن أو الألم النفسى أو الحتماني قد سبب موت الشح وهو في السحن فما هول ما يلهى به ربه أبو جعفر . . .



كان التحيد للفصاء بهجا بهجه الحلفاء من قبل المصور ومن بعده ، ومديما كان عمر بن الخطاب يقول حين حرج معاد بن حبل الى الشام (ان حروجه قد أدخل المدينة وأهلها في الفقه وما كان يفيهم به) ولقد كلم أنا بكر في أن نجسه لحاجه الناس اليه فأنى ذلك عليه ...

لكن عمر لم يفكر في سحن معاد كما سحن أبو جعفر أنا حسة ، وإنما تداول الفاروق مع الصديق في انمايه بالمدينه لجبسه عن السفر كما كان عمر يهوى الصحابة في الأمصار ويجلس ريد بن ثابت عنده لأن أهل المدينه (محاحون اليه فيما يحدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند عمره) . وانهى من الحلفس كالفرس من الوفق والاندفاع من رحل الله ورجل الملك ، ومن حلفه الصديق وحلفه السفاح .

وعرض المأمون الفصاء على تلميذ أنى يوسف ، معلى بن منصور عمر مره فأنى وعرض نصاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سلمان

الجورجاني ، فامتنع فأجله سبعا وهدده ان لم يعبل ليعذبه وليحبسه فقال له « يا أمير المؤمنين : قد صح عندي أنك اد عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحدا على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهني » . فجعل المأمون يهول أخوين صالحين بمرو . فمكر ساعة ثم قال للجورجاني . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرحاه في أن يولي أحاه بدلا منه كما يستعين هو بأحاه المعتصم ، فاستعماه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء في الوسط العلمي على أنها ابتلاء يفرع منه العلماء ، فزاع الأصحاء ، من الوباء ، كما جرت على الألسن العبارات المملدية « أبتلى القضاء . وامتنح بالقضاء » . حتى لسترجع الناس وينرحمون على من اختاره الوالي لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولي عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخضر أباه في فلسطين فقال انا لله وانا اليه راجعون ! هلك الرجل !.

وهذا فاصيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شمير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز الى واليه ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم ابن ربيعة فيولى القضاء أنعهما . فلما اجتمعا قال اياس للوالي أيها الرجل . سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة الحسن وابن سيرين . — وكان لا يجلس اليهما وكان القاسم يفعل ذلك — فعلم القاسم أنهما ان سئلا أشارا اليه فقال . لا تسأل عني ولا عنه . فوالله الذي لا اله الا هو ان اياسا أفاقه مسي وأعلم بالقضاء . فان كسب كاذبا فما ينبغي أن توليني . وان كسب صادقا فينبغي لك أن تعمل فولي . قال اياس للوالي : انك جئت برجلي فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يحاف فقال الوالي « أما ادا فهمتها فأنت لها .. » وامتنقضاء ..

وهذان مذهبان يتلاومان : ولي القضاء ابن مريح فعتب عليه ابن خيزان

بعوله : « هذا الأمر لم يكن في أصحابنا .. وإنما كان بلية في أصحاب أبي حنيفة » .

بل انه لس نله فحسب . ولا شفير جهنم فحسب ولكنه (ذبح بغير سكين) .

ولى سحنون قضاء أفريقية وسه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابيه قال لها « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » فعلم الناس قبوله القضاء .

ولش عجب لاعبار ولايه القضاء ذبحا بغير سكين ، ان العجب لوفى على العاه من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكس ، من تلامذ سحنون ، يولى القضاء اد تكاد السيوف سلمه للصوص .

جلس ابراهيم بن الأغلب أمر أفريقية وحضرته عيسى بن مسكين فسأله

ما تقول في رجل قد جمع خلال الحر أردب أن أوليه القضاء وألم به شعت هذه الأمة ، فامسح ؟ قال يلزمه أن يلى قال الأمير تسمع . قال : تجبره على ذلك بجلد . قال الأمير الداهية « هم فأف هو » ! قال : ما أما بالدى وصف وتمنع ! فأحد الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فندم بعد أمر عظم واحتماع الناس عليه على اختلاف مداهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المعمر بن عبد الرحمن فصفه المدينة بعد مالك — وكانت جائزته أربعة آلاف دينار — قال « والله يا أمر المؤمنين لأن يحصى السلطان أحب الى من القضاء » . فقال الحليفه السمع ما بعد هذا شيء وأحاره بألفى دينار

وكذلك الذى يؤر أن يحصى السلطان ، هذا الذى فى انه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله اليه .

سأل الأمر فاسم بن ثابت بن حرم أن يلى القضاء فامتنع فأراد أبوه أن

يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يسحير الله تعالى . فمات في الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه

ودعى ابن خزان للمضاء فامسح فحتم عليه الباب عشرة أيام حتى احياح الى الماء فلم يمدر عليه الا مساولة الجيران من الكوه ! فقال الوزير الذي حسه « ما أردنا بالشبح أنى على الا حرا أردنا أن يعلم الناس أن في مملكتنا رحلا يعرض عليه الفضاء شرقا وغربا وفعل به مثل هذا وهو لا يصل »

وعرض الجوائز على الامام الطبرى فرفض ، وعرض عليه الفضاء وولايه المظالم فرفض وأشار عليه صرحه فائلس . لك في هذا ثواب ويحيى سه قد درست فهرهم فائلا « كب أطل أنى لو رعب في ذلك نهيموني عه » .

ولما أبطأ عليه البقه من مدينة آمل حيث كان أبوه يمد اليه الشيء ، بعد الشيء ، أثر أن يفتنى كمي فميضه فببعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز آبادى على أن يمد له النظر في الأحكام والمطالب شرقا وغربا فامنع ، فوكل به ، فكتب اليه « ألم يكفك أن هلك حتى تهلكنى معك » فبكى القائم بأمر الله وقال هكذا فلبكن العلماء ، اما أردنا أن يقال انه كان في عصرنا من وكل به وأكره على الفضاء فامسح وقد أعطيناه .

صنع العلماء ذلك — وأمثاله كثيره في التاريخ الاسلامى — حشه أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطعى ، بل بلغ الجرح بالعض أن يردوا شهادته الرجل اذا خرج لهدوم الأمير اسمساكا بحرمة الفضاء كى لا تثب الدعوى بشهادته من يحاف الأمراء .



هؤلاء العلماء الأفداد قد شأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسمائه أبو حيه العمان ، يحصلون آثارهم فى وجه التاريخ معاهرين ، كما حملوا رؤوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حيه

فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمسبب الذى لا يغفر أن تعصى
رعبه ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! ..

فلم تكن عدلا لهذا الجبروت الا ذلك الاستعلاء . ولا كفتا لهذا الطاغية
العظيم الا ذلك الامام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعا ونافعا للعلماء ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن
حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما داق ابن حنبل من ارهاق فى محنة
خلق القرآن .

هالك وضع نفسه رابع الأئمة حبت وضع نفسه أول الأئمة .

لم يبل ابن حنبل أن يقول ان القرآن مخلوق .. ودعا نائب المأمون اله
العلماء كما طلب المأمون سألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال هو
كلام الله لا أريد على هدا . فوجه به الى المأمون بطرسوس ثم الى الرقة ،
وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى حليفه المعصم بأن
يسمل الناس على القول بحل القرآن ، فرد ابن حنبل الى بغداد مصفدا
ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين شهرا وفى رجليه أربعة أصفاد .. وأخيرا
حمل الى المعصم والى جواره فاصيه ووزيره والمحرض الأكبر فى فسه حل
القرآن أحمد بن أبى داؤد وطائفة من العلماء لياظروه أياما ثلاثة ، فلما كان
اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعصم يقول
للجلاد : تد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعصم اليه يقول
ابى والله عليك لتشفق .. ونحس ابن حنبل ناخس بالسيف ، وقال أتريد أن
تعلب هؤلاء كلهم .. !

وقال فائل يا أمر المؤمنين دمه فى عقى أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون

يا أمر المؤمنين أنت صائم . وأنت فى الشمس قائم !

كانوا يحشون صامه وقيامه ، ويحافون الشمس ، ولا يحافون جهنم

التى يوعدون !

ثم قال المعصم . ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد . أوجع

قطع الله يدك ا فجعلوا يوحعون . وعاد يهول . أجبى . ويهول للجلادين
أوجعوا .. حى فقد ابن حبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فك ، وقال
له أحد الحاضرين انا كيباك على وجهك . وطرحاك على ظهرك ودسناك ..
وحىء به والدم يرف منه ، وكان صائما وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما
حصر الصلاة فى الظهر والدم يسيل منه . قالوا كيف تصلى كذلك قال
« صلى عمر وحرجه يشغب دما » .

تعلم ابن حبل على أبى حيفة ، وتعلم آخرون على ابن حبل ، كزمله
السويطى اد حمل من مصر الى بغداد ليعول مثل ما دعى لهوله ابن حبل فأبى
وماب فى أعناده ، وقيل الوائى أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الاسلام فى كل مقام .

سمع عز الدين موسىك من أمراء دولة سى أيوب بمصر عن الامام القاسم
الشاطبى امام الفراءاب ودعاه ليمتل أمامه فرم الشاطبى بالدعوة وبعت الله
برفعة فيها .

فل للأمر بصيحه لا تركس الى فيسه
ه اذا أتى أبواكم لا

ترى هل يذكر الداكرون اسم الشاطبى وهم يسلكون (تمارع
الموسكى) الى أقدم جامعه فى العالم ا فعنى الجامع الأهر ا لكأنا خطب
يد التاريخ من ذلك التمارع تمثالا لكرامه العالم ، وان أطلق عليه اسم
الأمبر .

وفى عهد الأيوبيين أيضا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر
شيخ الاسلام أبامحمد العز بن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء
الدولة بأعبارهم ممالك وتضاف أثمانهم الى بس المال ا فهاحوا وأرادوا
فله ، لولا أن حمه منهم رعاية السماء وحمهم منه عناية السلطان ، فاشراهم
السلطان بماله ودفع اليه الثمن لصرفه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن فينه القاصى الحنفى

فجىء الى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه الا اذا جاء الى حنه ، فلما طاله ^{VIDERY} بلعن الموقى (ولى عهد الخليفة العباسى) توفى وقال ألا لعنة الله على الظالمين .

وقبل لابن طولون انما فصدك بهذا المول فطالبه ابن طولون برد الجوائز الى أجاره بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار الكريب له فكان يحلس فى طاق ويحدث الناس بادن المسووه من ابن طولون .

فلما عرض لابن طولون عليه النى مات فيها وحه اليه يسجنه ، فقال للرسول قل له أنا تسح كبير وأنت علل والملنفى قريب والله الحاحز بسنا . ومات ابن طولون فكان بكار يهول مات البائس .

وكما اسمع الناس حول بكار فى سجنه اجسع آخرون ليملى عليهم السرحسى من حسه فى حب السجن فى أورجند اد يصح الحافان فأسحطه فحسه

وتعالى العلم بالعلماء عن أن سحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج تسح الحصفية بغداد عبد الله بن الحسن الكرخى ، كتب أصحابه الى سيف الدولة فى حلب ليعبه وبكى الشيخ اد علم ودعا الله فائلا . اللهم لا تجعل ررمى الا من حيت عودتنى .

واسجباب اليه ربه فمات قبل أن تصل اليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان على بن الحسن النيسابورى : لم لا تجىء عندى ؟ فقال « أردب أن تكون خبر الملوك اد تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيت أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الحياالى وأخبره الصدر الأعظم بنعيينه للدرس قال له شمس الدين « ان أعطنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطته لا أترك هذا السفر » ! .

الخاتمة

فالتاريخ

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقى
لأمون ، وأنتم في طريقكم لتعشوا ،
والله يعلم أى الطريقين أهدى سبيلا »
(سفر اوطى)

لم تكن حياة أبي حنيفة وإن طالت إلا معركة واحدة سلخ فيها الصكر
الإنساني سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها عاية
ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح ، في كل أطوارها .

والعالم الذي يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ،
والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل إلى عماره الدسا بالنشاط
الفكري والرخاء المادي .

وبعد أن ذاع نظريان أبي حنيفة في الإيمان وفي الحرية وفي الاجتهاد
بالرأي استقل بإمامه ثلثي الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ورفى سلم المجد
إلى أسمى ذرواته ، لينزل في التاريخ منزلة الإمام الأعظم لأهل الإسلام

ولما ختم حياته في سبيل الحرية كان كالذي كشف الغيب فوضع نفسه ،
حيث وضعه الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه
عنوانه .

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسي هو تشييعه لمحمد بن
عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب (المسمى بالنفس الزكية أو
لأخيه إبراهيم ؟ أم أنه لم يجس إلا من أجل القضاء . ؟

إن من المسلم أن محمدا وأحاه إبراهيم فلا في سنة ١٤٥ حس حرح
محمدا بالمدينة على أبي جعفر وبعد أن حرح عليه إبراهيم في البصرة .

وإذا كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفة عفو حبسه بأمان في
سنة ١٥٠ فانه يكون عجيبا أن يشع أبو حنيفة للموتى بعد اد ماتوا بحسن
سين . وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد التأني ، قوي المراس ، كأبي
جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يشع الناس لهم ذلك
التشييع الذي يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما^١

لقد كان أبو حنيفة إذا سئل عن علي ومعاوية وعلى صفين أو خلافات
التشييع والأمويين يقول « أخاف الله أن أقدم على شيء سألتني الله عنه . وإذا
أقامني يوم القيامة بين يديه لا سألتني عن شيء من أمورهم سألتني عما كلفني
والاشتغال بذلك أولى » .

وكان المنصور من الناحية الأخرى واسع الصدر بعيد النظر هي آراء خصومه . وأشياع خصومه سمع أن عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة كاتب محمد بن عبد الله فسأله فيما سمع فقال له عمرو : انه يعرف رأيه في السيف -- وهو أنه لا يرى الاستعانة بالقوة لتأييد أعراضه -- فطلب إليه المنصور أن يحلف فقال (لئن كدبتك تفيه لأخلص لك تفيه) فارتضى منه ذلك . وقتع من زعيم المعتزلة بما كان حريا أن يقع به من زعيم الفقهاء لو تب شئ ضده . أو فامب الشبهة فيه عده .

ولئن قال نابولبون في أعقاب (مسكوبا) « لا عدو بعد البصر » أو أمر مملوكه رستم بسقبا الجريح الروسي من الزاد الامبراطوري، فان المنصور كان يصنع صنعه في بعض من اسنيين تشبعهم لمحمد وابراهيم .

وكان المفضل الضبي (صاحب المفضليات) من أنصار ابراهيم اذ خرج على المنصور . فلما أظهره الله بابراهيم ، وأمكنه من المفضل ، عما المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نجبا ، فصار نجبا في البلاط ، وألقى إليه ولده المهدي يؤديه ويرعاه .

وكان المنصور في جلدا لا تروجه مدلهما الخطوب يحرح عبد التورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف يسم على المقهورين أو على الموتى بعد اد ماتوا وتصربت على وفاتهم السنون ، وبعد أن مكن لدولته قبي مديته . وملا حزنائه بالمال ودواويه بالرجال .

ولم بهم بيان بعداد الا في سنة ١٤٩ وان كان المنصور قد انتقل اليها سنة ١٤٦ . بل فل انه كلف أبا حنيفة بعد ما في سورها من آخر وصرخوا متلا على دكاء أبي حنيفة اسكاره طريقه الحساب بعد ما في الدراع من لساب ومفاس ما في السور من أذرع .

وقبل ان شقاقا تنجر بين المنصور واحدى حليلاه فطلب العدل منها وبين سائرهم فسألها المنصور عن ترصى للحكومة في هذه الخصومة . فالب بأبي حنيفة فأحصر . وجلس تلك من وراء السر قال فليشكلكم أمر المؤمنين . قال أبو جعفر انها تحاصمي ، كم يحل للرجل أن يزوج من

السَّاءَ لَجَمْعِ بِنَهْنُ ؟ قَالَ أَبُو حَنِفَةَ رُبْعٌ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَمْ يَحِلُّ مِنَ
الْأَمَاءِ ؟ قَالَ : مَا تَسَاءَ لَيْسَ لَهُ مِنْ عَدَدٍ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : اسْمَعْنِي يَا هَدَدُ
قَالَ . قَدْ سَمِعْتُ . فَانْطَلَقَ إِمَامُ أَهْلِ الرَّأْيِ يَهْوِلُ . « يَا أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ . أَهْلُ
اللَّهِ لِأَهْلِ الْعَدْلِ . فَمَنْ لَمْ يَعْدِلْ أَوْ خَافَ أَلَّا يَعْدِلَ فَتَنْبَغِي أَلَّا يَجَاوِرَ الْوَاحِدَةَ
عَالِ اللَّهِ تَعَالَى » فَإِنْ حَصَمَ أَلَّا تَتَدَلُّوا فَوَاحِدَةً » فَيَنْبَغِي أَنْ تَنَادِبَ نَادِبُ اللَّهِ
فَسَعِظَ بِمَوَاعِظِهِ . « وَسَكَتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَطَالَ سَكُوتُهُ ، وَخَرَجَ أَبُو حَنِيفَةَ
فَلَمَّا بَلَغَ مَنْزِلَهُ حَاءَهُ عَلَامٌ بِهَذِيَّةٍ مِنَ السَّيِّدَةِ إِلَى أَدَبٍ مِنْ أَجْلِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
دَلَّكَ الْأَدَبُ خَمْسِينَ أَلْفًا ، وَجَارِيَةً ، وَدَابَّةً .

فَمَالَ لِلْعَلَامِ « أَقْرَأَهَا سَلَامِي وَفَلَ لَهَا أَمَّا نَاصِلٌ عَنْ دِيْنِي » وَمَا مَدَّ
يَدَهُ إِلَى تَسَاءٍ حَتَّى حَمَلَ مِنْ بَنِي يَدِيهِ

دَخَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ نَوْمًا وَالْجَوَارِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ وَفِي
رَوَايَةٍ أُخْرَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ صَاحِبَ الْمَغَارِي وَكَانَ الرَّبِيعُ يَنْفُسُ عَلَى أَبِي
حَنِيفَةَ مَكَانَهُ ، فَأَبْدَرَهُ بِهَوْلِهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا أَبُو حَنِيفَةَ يَحَالِفُ جَدَّكَ
فِي الْإِسْتِثْنَاءِ الْمُنْفَصِلِ (فَلَمَّا كَانَ جَدُّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَهْوِلُ . إِذَا حَلَفَ
الْحَالِفُ ثُمَّ اسْتَثْنَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ إِلَى سَهْوٍ فِي قَوْلٍ ، وَأَبْدَأَ فِي قَوْلٍ
آخَرَ ، جَارِ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ الْيَمِينِ ، فِي حَسْرِ رَأْيِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ لَا
يَجُوزُ إِلَّا مُتَّصِلًا بِالْيَمِينِ ، وَالْإِسْتِثْنَاءُ عِنْدَهُ لَا يَصِحُّ إِذَا صَدَرَ الْقَوْلُ بِأَنَّا فِي
الْمَحَلِّسِ) .

فَلَمْ يَحْرَنْ أَبَا حَنِيفَةَ قَوْلُهُ ، بَلْ وَاجَهَ الْعَاصِفَةَ بِالْأَعْصَارِ وَفَذَفَ فِي وَجْهِ
الرَّبِيعِ بَأْيَةً مِنْ آيَاتِهِ . قَالَ . يَا أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ « إِنْ الرَّبِيعُ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ
فِي رِفَافِ جَدِّكَ بَيْعَةٌ ؟ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَيْفَ ؟ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ . « يَحْلِفُونَ لَكَ
تَمْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَازِلِهِمْ غَيِّبَتُونِ فَيُبْطَلُ أَهْمَانُهُمْ » وَبِهِبَ الَّذِي أَثَارَ
التَّائِرَةَ لِأَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ كَانَ يَلْمَسُ السَّعَةَ مِنْ كُلِّ الْأَفْطَارِ .

وَصَحَّكَ أَبُو جَعْفَرٍ وَقَالَ يَا رُبْعُ لَا تَعْرِضْ لِأَبِي حَنِيفَةَ .

بَلَى . وَلَوْ أُبَيِّحَ الْإِسْتِثْنَاءُ الْمُنْفَصِلُ لَمْ سَكْدَ تَمَعُ يَمِينٍ . إِنْ كَانَ النَّاسُ
يَسْتَشْنُونَ بَدَلًا مِنَ الْكُفَّارَاتِ وَيَسْتَشْنُونَ حَتَّى لَا تَطْلُقَ نِسَاؤُهُمْ .

سبيل هذا الخليفة هاب على البائس كل التصحيات فهم لا يسمون مدائن
فحسب وانما يشئون مدنيات ودني كامله ، أين منها الصروح الممرده والآثار .

ولقد كلف أبو جعفر بالبلاء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد
للدنيا وأحاطها بالقطائع وبني الرصافه لولده المهدي وبني الكرخ ، وكلف
المهدي ببناء الرافقة بل ان أبا جعفر هو الذي بنى الدولة العباسيه نفسها .

وانقلب نزع البلاء الى الورراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل
وجعفر « لا تنى أئسى دكرا من البناء فاتخذوا منه ما يبيى لكم دكرا » فاتحد
كل منهما لنفسه فصرا ، وقل ان جعفر - فى عهد الرشيد - أنفق على
عشرين مليون درهم غير الأثاث . ١

ومد أئسى عام قبل المصور تبارل « تنزيه » عن ملكه لشئ « أسا »
ومد نأليه عسر فرنا قبله كان « رومولوس » لا يفل الأعداء ولا يسبى
الساء وانما بأمرهم يهدم فراهم ودساكرهم وأن يهدموا لعمير « روما » .
وكان « سربه » أول من تبارل عن الملك لحر الشعب كما قال سقراط
وصار « رومولوس » فما بعد الها بحر له الرومان سجدا الى الأديان

وكان سلطان أبى جعفر أعظم من سلطان تريه ورومولوس معا فحسب
أن عمر بغداد وفق ما يهوى والويل لمن يهف فى الطريق .

فحبس أبى حصفه انما كان فى سبيل أن يولى لأبى جعفر فضاء بغداد
وأن يصدع بما يؤمر ولا يرد على الدهن أن يكون ذلك السبب احراعا .
لأن بغداد كات قد تم بباؤها . ولأن من السائع أن يرى أبو جعفر أن الولاة
على قضائها لم تك تصلح الا له . ولس تشيد مدينه السلام بحادث عادى
انما هو الحادث الأعظم بدعوه الامام الأعظم وحلى لدى المسبد المطلق
السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب فى نفس الرمان ونفس المكان

ولو كان العضب من أحل محمد وابراهيم لأحدث فى أبى حصفه آثاره
أيام أحدث فيها آثاره . فلم يكن الامام الأعظم نكره فسى خمس سنوات
أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما

بعد هذا المنصور البحت عن محمد وإبراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ، فكف ينال عن أنى حنفة كل ذلك الرمان وليس من طبيعة أبى جعفر أن ينام

كان مالك فى أوج مجده العلمى والدينى فى حوار النبى ، اد فىل انه أفسى بأن سعة الناس للمنصور كانت مكرهة أى غير ملزمة للناس مبالاة منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه ، أو فىل انه سئل عن البغاه ، أيجوز قبالهم ؟ فقال « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العرير » فقيل فان لم يكن مثله ؟ فأجاب « دعهم سنهم الله من طالم نطالم تم ستقم من كلهما » فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبى جعفر على المدينة وس حلد مالك .

ولش راجع أبو جعفر والبه فما صبح لقد كان ذلك خوفا من الله لا خوفا من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يحاف ولم يكن يخفى والذى يخفى هو الذى يحاف ، كالذى يحاف هو الذى يخفى

فلو أخذ المنصور على أبى حنيفة مأخذا لافشه الحساب من فوره جهرة متلما أخذ محمد وإبراهيم حمرة . وحبس أباهما فى وضح النهار .

ولم يك أبو جعفر لبأمن جانب الكوفة . فيدر الامام الأعظم فى مسجدها خمس سواب طويلات سكك فى دروسه السخط المدمر — لو صح ما هولون — وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدي أخويه أبى العباس وإبراهيم الامام وأشياهم فى الكوفة نفسها وفى حراسان وفى سائر البعاع

وإذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعرض على أسناده لحوصه فى ذكر محمد أو إبراهيم فان ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت المفارنه الباريحة للملابسات التى ألمنا بها فى ايجاز .

وأبو حنيفة هو الامام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فدأب فقه خاص وأحاديت ومعقداات حاصه ، تصمنها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن

على وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لفقه الشيعة ، بل لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي ان أفئدة الأمة جمعاء تهوى إليهم ، لقد كان « صاحب الأغاني » حفيدا لمروان آخر خلفاء بني أمية . ومع ذلك كان شيعيا .. !

وليس معقولا أن يكون أبو حنيفة شيعيا نفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الحبيء من أمره ، أو ينعكس أثره على عمله ، في معاركه الجالدة مع الحوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الجلفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هشره كان خصامهما حريا بأن يكشف أسرار غبه . بل ان بسى العباس كانوا مع الشيعة حتى بوقع لأبي العباس في سنة ١٣٢ هـ فهم العليمون حقا بأشياء الحلفاء

فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه سنا مما أخذاه على زعماء أهل البيت في بضعة عشر ربيعا كانت كلها الكال للتبعية .

وإذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته فإن المنصور لا يصلى على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبني أمية كما رفضه لبني العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هواه مع الدولة الممثلة من الشرق من بلاد أجداده ، وبخاصة وقد ناله من أدى العهد المصرم ما كان فمما بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعا الى الهوى ، أو الى الأذى ، أو الى النظام .



انما عافت نفس أبي حنيفة القضاء لأبي جعفر لأنه ليس القاضي المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضي الا ألعابا نعرض على نظاره فبونا من الظلم على أنها العدل ، وما هي في الحق الا ساج العبودية والمهانة والابتذال .

والفضاء المسحر كالفكر المشرى والقلم الأجير أتعس ما فى الأسواق
من سلع وعروض .

والرأى هو العرض . يبيع عرضه من يبيع رأيه داك لشهوات الحس
واللمس وهذا لشهوات الفكر والنفس . بل ان من يبيع رأيه يبيع حسده .
فما الصب أو السار . أو اللسان أو البان ، الا أجزاء من جسم الانسان .

فى ببوع الفكر يعطى المبايعان عقود الاسترقاق بشى مظاهر الاسفلال
والاحرام ويغلو القصة العبد كل الغلواء فى دعوى الاناء وحرية الآراء ،
ويقدر ما يطلب من العطاء يحدث من الضوضاء وكلما دلت النفس استحكم
مركب النفس ، فكبر الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكره
فى هواه أو هوى مولاه

هالك لا تحد الأسماء ولكن ظلال الأشياء ولا تسمع الأصوات ولكن
تسمع الأصدااء وتحد حسابا لما لس فى الحساب المعلوم يحكم فيه
الجهول ، والعلل سحها المعلول ، وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها .
كالمصلحة العامة والنظام وما هى الا نعمة الدنيا وهماهم العيتس وفساد
النفس .

هالك سيد القصة العبد فى شوهه ودمامه واحلال شخصيه كالمثل
الزبل فى أعقاب الرواى هذه الذبذبه الدائمة وفبجه الاصطناع . فأسمى
مسحا سائها ترى دمامه كل الأنظار وهو لا تكاد يراها .

هالك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء

هالك تسيطر الأفكار الحاربه ونزعات السوفه ، وينحالف أهل الرذيلة
على أهل الفضله وأحدك العجب وتساءل لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى
حس أن دوى الفصل فى أبراحهم لا يتواصلون .

هالك النفوس الرديئه تحاول أن تطرد النفوس الجيده . ويعامل رجال
الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والقصة ، والذهب ، والمصلحة

فى تتى صورها وعروضها ، كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية ، وما هى الا رتى مستوره من رغبة ورهبة أو منظورة دان لمعان وربن .

رووا أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه فوقع فضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفنه فضيه أخرى كتب بها الى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشبر عليه بشيء . فلما انصرف اليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره الى يحيى وقال له : لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غدا ان شاء الله . فقال له يحيى . « وتفضل ذلك صدقا ؟ » قال : نعم . قال له « فالآن هيجب غيظى . فانى ظننت اد خالفنى أصحابى أنك توفف مسحيرا لله ، متخيرا فى الأفوال . فأما اذ صر تبغ الهوى وتفضى برصى مخلوق ضعيف فلا خبر فيما تجيء به ولا فى ان رضيه منك ، فاسنعف من ذلك ، والا رفعت فى عزلك »

فرفع يسعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه فاضبا من عاهم « فولير » بهوله من قضاء « كالا » . لا تذكرونى بهؤلاء القضاء الذين نصفهم قرود ونصفهم فضاء . بل قاضيا من توعدهم عمر بهوله « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء ، يوم يلقوه الا من أمر بالعدل وفضى بالحق ولم يفض على هوى ولا على فرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآه بين عينيه »

لس أبو حيفة هذا الفاضى ولا ذلك الفقيه : لعد قال له الأمير يوما لم لم تغشنا ؟ .

فقال . لأنه ليس عندى ما أخافك عليه وان فرنى فسنى وان أوصينى أخرتـى .

والذى يهول هذا للأمير هو الذى يهول للناس : « من كرم علبه نفسه هائب عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لعد عاش حياته فى ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه أما أن يموت مية تلق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاما ليس طويلة فى أقيسة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياه لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يهرف فى الناس أرباح تجارته النافقه آلافا وعشرات آلاف ، أحدا نفسه بالنجرد اليومى من أعراض الدنيا فى رهادة ونسك وتعليم دونهما الزهد كله والنسك كله والتعليم كله ، والذي يسلط على نفسه هذا التجريد اليومى من نعيم الحياة انما يسلط عليها سياط عذاب مستمر لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلى لا النظرى . حرمانا مما فى يده فعلا وهوله . لا مما فى يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما فى يد الناس ، فانما هو يكسب لشخصه اذ يرى نفسه من أدى نفسه . أما من صبر على الامتحان اليومى ، وقدر على التطهر الكلى ، فقد سما بالوجود الانسانى عن مستواه البشرى ، وأضحى ينظر الى الدنيا من عل ، ويدق من قرب أبواب السماء . ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك النفس التى سمب على أنفس الناس جميعا .

وكما جمع العباده والزهاده ، قرن العلم بالعمل . فادا رأى المنكر عبره بيده . يرى الشرطى يسحر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطى فيبطش به ويدفع الناس الشرطى حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفه خالد بن عبد الله القسرى يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بفراة كتب حتى يحشى على الصلاة فيصيح : الصلاة الصلاه . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطى ومع الأمير القسرى وهو شأنه مع ابن هبيرة أمير العراق وهو هو شأنه مع المنصور أمير المؤمنين . لا يحضى أمام السلطان فى أى مكان ، ولا يسمح بالعيب فى دات العلم ولا يسهم فى الظلم كالشيطان الأخرس بالمسكوت .

كان قد فرع من شؤون مدرسته وفتح الباب على مصراعيه لتسي
المدارس التي أظهرت فيه الاسلام ، فسلط على الفكر الاسلامي شعاعا من
النور هو حسبه . وحلف في دنيا الفقه اسماء راسيات كأنها الأعلام ، وفصاه
كالمملوك ، وعلماء أثبت مجدا من المملوك فلم يك باقيا ، الا أن يصرب الصربه
الكبرى فيهيى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها الى الأعماق ، ويخلق بالعلم
وبالفكر في طاق السموات ، ويطر الى الأحوال اللاحقة فكرته الحالده على
ألف حاح ويعلم الناس بالعدوه والعداء مثل ما علمهم بحباته .

وفي كلمه واحده يعلمهم سماته مثل ما علمهم بحبته .

لكنه لا يسوء منه « لسرح » اد أتم رسالته في شرائع أسطره
ومجدها فحجم حياته مسجرا بالكف عن الطعام اعتقادا بأن الزعم الذي لم
يس له عمل في أمه حدير بالاحياء

ولقد كات الأمه أحوح ما تكون الى امامها الأعظم ، ولم تشأ السماء
أن تعطل حاتمته حياته من أكليها اذا لم يدخل الناس في حسانتهم هذا
العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه في اللوح المحفوظ ذلك المصير الأدي
هو الغداء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضه هي في الغالب رجع
الصدى للرأى فأى أدنى واعراض يجمعان على الرجل اذا اجمعت عنده
الحرية والرأى وأى امداد لذلك الساوتش من بعيد ومن قريب يحالقه عند
مماته بعد خمس عام في معركة الحق في مواجعه الناس ومحابهه الخلقه ا
وكلما لهى من أمره عسرا تدفق من قلبه الاشتراى لا الاحراق ، كأن التبدائد
مولد عظيم للهوى في كناه ، أو كأنها السلاح الذى تنق الأرض لمحر الماء
أو ليزداد الثرى بقلبه ثراء !

ابما يعيش هؤلاء البشر في مسوى أعلى من البشر . يلافى عنده
الانسانى المخلوق والربانى الذى يوحى به ، وفي هذه القمم الشواهى يستقبل
المهمود آيات السماء أول من يستقبل كأطراف السحاب في السماء ودرا
الجبال في الأرض أسى ما يلقى شعاع الشمس وأول ما يوهج في الطلام
المحيط .

انهم لا يحسون ما نحسه عذابا ، بل تتوتر أحاسيسهم الى أقصى حدود
الوتر اذا عالجوا الصعاب ، وتبذل الى حد العدم فى محيط العذاب ، فاذا
رأوا الأذى وردوه ، واسنروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ،
فلا تطيب نفسه الا اذا أترعه كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد
ارتوى من نحب الخلود .

انها لنعمه من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوما كأنهم من
أهل السماء وهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوه الحسنة أن الحياة ليست
البهسه ولا الرفاهة . ولكنها كفاح دائم للحر تواق للكمال .

وسجل علماء الاسلام هذه الحقائق بحروف من نور فقضى عليهم بارئهم
أن يشقوا ليعم البشر — فكان حلما اسلاميا حالما وقضى على الأئمة الأربعة
أن يردوا المحنة تلو المحنة فى سسل آرائهم ويسبعوا بامتهم الناس وتحملوا
خطاياهم . سيق الشافعى من أقصى الجزيرة الى أقصاها ، عاشر عشره متهمين
بالشيعة لقوا مصارعهم على عنبه ونجا وحده ، وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو
من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة . وذاق ابن حنبل بعض الموت فى خلق
الفرآن . أما أستاذهم أبو حنيفة فمد مات فى قضية القضايا : قضية الحرية !
أو فضيه الفصاء . أو فضيه تسخير العلماء فى خدمة الحلفاء ! فأظهر أن الزهد
والعلم لسا عاه الحياه وانما العمل هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة
وكان المتل الحق لما يهدى اليه الوحي الذى أثاروا اليه من « أن الله سبحانه
أوحى الى نبي من أسائه أن فل فلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا فقد
تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك الى فقد اكسبت به العز . ولكن ماذا عملت
فبما لى عليك ؟ فقال : يارب وأى شىء لك على ؟ قال هل واليب فى ولبا
أو عايد فى عدوا »

انما تكون العبادة الحق بالجهاد للحق فى الخطوط الأولى للنار لا فى
الرهينه ولا فى الاعزال . روى عن الامام أحمد وغيره أثرا « أن الله سبحانه
وتعالى أوحى الى ملك من الملائكة . أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب
كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فانه لم ينمعر وجهه فى قط ! » .

بلى بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العبادة ! هذا يحيى بن عمر يرجع من الفيروان فى تونس الى قرطبه فى الأندلس ليرد داتها كان عليه وهو يقول : رد دائق على أهله أفضل من عباده سبعين سنة !

انها ضريبة الرضاء النفسانى يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكدر ويكدر ليرك آثاره فيس يحط به من العالمين .

وإذا كان أبو حنيفة قد جاب السياسة فى حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ، فقد جانبها وهو يحتسب هذه الحياه ، لأن العالم الحق لا يفسن بما يفتن به الناس ولا تلقى بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون ان رجل الدولة ، ليمدق نفسه فى المهالك يمه أن يفور السور وتعلو به الفدور ، لبسنخرج ما نشاء من معقبات ونائج .

فإذا هاجم البطش المفكر فى عمر داره ، أو فدح الحطب وعمت البلوى أو هددت الحرية أو الفصله ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمى حماه . انه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وانما عدا القدوة

ان هؤلاء الفقهاء يحملون من النعاب ما لا يحمل الساسه ولا الرعاء ، لما يسسفه ، الناس من أنهم ورثة الأساء ، فلا جرم اذا السسوا البجاه عندهم والأمل فى روح الله لديهم .

لما والى الملك اسماعيل الافرنج أيام الحرب الصليبيه وسلم لهم صيذاء وغيرها من الحصون ليجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعله ، فغضب عليه وعزله واعقله ثم بعث اليه يعده ويمبه ، فقال له الرسول « تعاد البك ماصبك وزياده ، وما عليك الا أن تكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ الا أن قال « والله ما أرساه أن يقبل يدي ، يا قوم أتم فى واد وأنا فى واد + »

سبق أبو حنيفة فغضب الأمثال للعلماء كما سبقهم فى ميدان الاجتهاد ، فواجه النوارل فى الفكر بالسكر ، والنوارل فى العمل بالعمل .

اخارت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء

السلطان ، وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن . واتخذ مكانه في هذا الثيب الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء .

هنالك تتراءى لك الأعماق التى ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، حلايه للبصر ، وتتجلى لك الممم العالیه التى ارتفعت اليها هذه الحساسة عد ما خنمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويرأى لك فيما بين البدايه والنهايه حياه هى العمل ، ورسالة هى الخلق والابداع ، ليست هى تطبيقات كل يوم ، تلك النطبيقات الدارجة ، والفتاوى المردة ، أو فى خدمه السلطان .

انما كان وظيفه أبى حنبله وطبعه الشارع نفسه ، لا وظيفه الذى يفد الشرائع والمصاء تنفذ والشرع خلق والمشرع يضع النظام والقاصى من حرسه وسدنه .

كان وطبعه الامام الأعظم تصل بالقرآن وبالتحديث وبالعمل لاسننراط الأصول والحلول ودفعها فى الغداه الى القضاء والعلماء والحكام والحلفاء والناس كافة يتناولون بها حمبعا تتوون الدنيا والدين ، ويمضى بها القضاء فى كل قضيه وكل دوله ، وكل جيل ، وكل مكان .

كان رسالته اشياء المداهب واشياء الرجال ، والوثيق بين العلم والحضاره .

كان هو نفسه الانبعاث التاريخى الذى حلد به الفقه الاسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من بعض منه ، كراسى القضاء . على ما فى وظيفة القضاء من اشراق وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفه المصاء فى خدمة السلاطين واحد من الأئمة الأربعة الذى تقاسم مذاهبهم جمهور المسلمين

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال « ان العلماء يحشرون مع الأنبياء وان القضاء يحشرون مع السلاطين » .

أجل وكما قال أبو حنيفة « ان لم يكن أولياء الله تعالى في الدنيا
والآخرة العلماء فلبس لله ولي »

وإذا كان ذلك شأن العلماء فكيف نأثمهم العلماء ، بل كيف بأحد رجل
في الاسلام ما قيل عن أرسطو « معلم العلماء »

فأين أين أين الأمراء من الأساء وأمن رجال الفضاء من
الفقهاء ؟

أين أبو حنيفة فاضى الفصاء ، أو فاضى الكوفة ، أو بغداد أو الرصافة ،
لو قدر وكان ، من الامام الأعظم أبي حنيفة العمان ؟

لهذا دال دوله بنى العباس ، ولم يذهب مذهب أبي حنيفة ونسى
الناس أبا جعفر وأولاده وأحفاده لكن اسم أبي حنيفة ما يزال يذكر كلما
صلى الناس أو صاموا بل كلما واجهوا أمرا من أمور الشرع في شأن من
شئون الدنيا أو الدين



أحسن أبو حنيفة بالموت فسجد فصعد روحه وهو ساحد في رحب
سه ١٥٠ كأنما كان يساق ملك الموت الى لقاء الله في الصلاة .

جاءته الدعوه الى لقاء الله وهو بنى الله يصلى ، وبين يدي البارح
وهو سحن ، وس بنى الفكر الاسابى وهو يلقي العذاب من حرائه ١

وأخرج من مكان حسه فحمله حمسه أنفس فأتوا به الى مكان غسله
فغسله الحسن بن عماره فاضى بغداد وكان من أصحاب الحديث ورهادهم
فلما فرغ من غسله قال « رحمك الله لم تفر من ثلاثين سه ولم تتوسد
يميك بالليل مند أربعين سه كب أفهها وأعدنا وأجمعنا لحصال الحر
وفرب اد فرب الى حر وسه وأتعب من بعدك »

وما فرعوا من غسله الا وفد اجمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصهم
إلا الله تعالى ، حتى حرج من باب حراسان ، كأنما نودى لهم بموته ،

فاجتمعوا وحرر من صلى عليه فصل بلعوا حمسس ألقا ، وقيل أكثر وأعيدت الصلاة عليه سب مرات وفيل ان المصور جاء وصلى على قبره ، ولم يكن دفعه الا بعد العصر لكثرة الرحام

ومكت الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوما ولما بلغ المصور وصيه بأن يدفن بالحيرران لأنها أرض طيبه، عر معصونه قال « من بعدرني فبك حنا وميا ! » .

وقال الحسن بن عماره على القبر « كبت لينا حلطا من مصى . وما ترك بعدك حلطا . ان حلطوك في العلم الذي علمهم لم يسكنهم أن يحلفوك في الورع الا بوفيق » .

وأتى بأ موته مكه ، فرشه اللده المباركه على لسان فسهها ابن جريح فاسرحهم وتوجع تم قال « أي علم ذهب ! »

ولما وقف تلمذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال « رحمك الله مات ابراهيم السجعي وحماد بن أبي سليمان وحلطا حلطا ، ومب أب ولم ترك على وجه الأرض حلطا » وبكى دكاء شديدا

وفي منتصف القرن الخامس للهجره (سنة ٤٥٩) سى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المصور الحوارزمي (مسعودي مملكه عصد الدوله السارسلان محمد وابنه السلطان عصد الدوله ملك شاه السلاجوقي) على قبر الامام مشهدا وفيه وسى عده مدرسه كبره للحصيه ، ونفى قبره مرارا للناس في طريقهم للحج وعودهم منه ودفع الى حواره جماعه من بحه العلماء ، منهم الدامعاني تسبح العرافس وماصى بغداد

ولما دخل الشافعي بغداد قصد الى مقابر الحزران وصلى على قبر الامام الأعظم ركعس ولم يرفع يديه — فسئل لماذا حرح عن فواعده ؟ فقال رضى الله عنه « أدنا من هذا الامام أن أظهر خلافه بحضرته »

وكان نجىء الى قبره كل يوم ويهول ابى لأتبرك بأبى حنفه .

بلى ، وأيه بركه أصاب الشافعي وأصابها الاسلام ، أما الشافعي فقد

تلقى فقه أبى حنيفة مبوياً مؤصلاً مفعداً ، كما يتلقى الجوهري الصناع كنزاً من اللآلئ والأعلاق . وأما الاسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره الا لمن جاء بعد النبي عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبه المخلصين .

فالفقه الاسلامي في المعاملات أو العبادات أعلى كنور الحضارة الاسلامية مكانة وأبعدها أثراً في الأمة جيلاً بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث في منابعه الأولى . ولش كان للغة العربية وآدابها — وهي لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذي تفاخر به كل اللغات : فان للفقه منها مكان الصدارة .

هو الذي مكن للحضارة الاسلامية في بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا ، وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الاسلامي ، وسيطرت مبادئه في نظام الأسرة والملكية والحرية في الرأي والعقيدة والأصول العامة للشريعة .

ولش عزا الاسلام هذه الأمم بالسلاح ، فقد اسمر فيها بالشريعة .

لقد غلب السلاجقة المسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي ولكنهم أسلموا . وغلب المغول المسلمين في القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضاً . ان الاسلام ينصر وان هزم المسلمون !

وحت وجد الاسلام وجد الفقه الاسلامي ووجد الفقهاء العالميون في عر حزيه العرب ممن سحلوه وخلدوه . يسابهنون في حلباته ذلك السباق المترامي في حدود الوجود الزماني والمكاني ، حتى اذا أفل باب الاجتهاد في عصور البطلد لم يسك لهم صوب ولم تهدأ لهم حركة ولم يرح انتاجهم يثير الاعجاب .

ولو عجز الفقه الاسلامي عن أن يسجيب لحاجات الأمة في هذه الأقطار المرامية لخيف أن تعتمد الى اطراحه لنعيش . وادن لبخمت الحضارة الاسلامية نفسها في كل مكان !

فأى فصل على الأمة يلقي به ربه ويلقى به التاريخ رحل مكن للفقهاء
الاسلامى أن يكون عصرياً فى كل عصر . واقليمياً فى كل اقليم ، فمكن للدين
نفسه ووطد أركانه

لا عجب ان قال بعضهم ان النبى قد بشر به . فهو ان صح أو لم يصح
صرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد . جدير بتفسير المفسرين
لحديث (لو كان العلم عند الثريا لساوله رجال من أبناء فارس) وغيره ،
تفسيراً ينظمه فى سلك المأمولين للإصلاح . وجدير بما قال بعض أئمة الزهد
(يجب على أهل الاسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم
السلام والفقهاء) .

لهذا كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال
للمسلمين (افندوا بالدين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار
وتمسكوا بعهد ابن أم عبد) وكان عمر مؤمناً ممن عناهم النبى بقوله (اتقوا
مراصة المؤمنين فإنه ينظر بؤر الله) .

فلقد جعل النبى عماراً وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان
الأمة كأبى بكر وعمر .

وإذا كان أبو بكر قصى على الردة ، وكان عمر أنشأ الامبراطورية
الاسلامية فان رسوليهِ الى العراق — عماراً وابن أم عبد — قد أديا رسالتهما
بعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفاروق ورسولا الفاروق من خلال السنين
بما سيؤديه هذا الاقليم العظيم للعالم الاسلامى فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع
فى أرجائه الأسلوب الجديد ويحمى الشريعة الاسلامية من أن تصيبها آفة
القصور عن مطالب العصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الاسلام من الردة عند الصيحة
الأولى على هدى من أبى بكر ، ان أباً حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة
الأولى اذ نادت بذلك الحوادث وهو على هدى من عمر وعهد من ابن
مسعود .

ولهذا نظر ابن مسعود بؤر الله يوم ضرب الأمشال فى الاجتهاد عند

أساطين مسجد الكوفة ليثول مجلسه بعد قرن كامل الى أبى حيفة الذى نهج بهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذى أوصى به الرسول .

نحات من السماء جاء بأبى حيفة فى أوانه ، كما جاء بابن الوليد فى إبانة ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده وفى عهده (.. انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

فى سنة ١٥٠ مات أبو حيفة وولد الشافعى ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الامام الا اذا جنبها هذا الامام .

كان نابليون يقول عن نفسه (كل شىء يسهى على بعد ستة أقدام تحب الثرى) ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا انه لا يصدق على المفكرين . فأولئك يبدأ كل شىء بالسبة لهم عند ذلك . انهم يذرون أجسادهم تحت الثرى ويبعثون أفكارهم الى الأفلاك ، وأسماءهم الى الأزل ، لتصير حديثا فى فم التاريخ وطنينا فى سمع الزمن . أو كما قال هيجو . أيها العظماء : هل تريدون المجد ؟ .. موتوا !

استقبل أبو حيفة وهو سجين فى السبعين من عمره ، حياه الحلود كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، فى السبعين من عمره ، محكوما عليه بالاعدام ، فنظر الى قضاته وقال (.. سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى لموت ، وأتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا) .

الفهارس

فهرسب المراجع المهمة

- ١ — مناقب الامام الأعظم الموفق بن أحمد المكي
- ٢ — مناقب الامام الأعظم ابن البزار الكردي
- ٣ — عقود الجمان في مناقب الحافظ محمد بن يوسف بن علي
الامام الأعظم أبي حنيفة ابن يوسف الدمشقي الصالحى
النعمان
- مخطوط بدار الكتب المصرية تحف ن ١٠٧
- ٤ — الحيران الحسان في مناقب
أبي حنيفة النعمان ابن حجر
- ٥ — الانقاء في فضائل الأئمة
الثلاثة الفقهاء للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الر
- ٦ — تاريخ بغداد أبو بكر الخطيب
- ٧ — الرد على أبي بكر الخطيب الملك أبي المظفر عيسى بن عبد الملك
العادل سف الدين أبي بكر بن
أيوب
- ٨ — تأنيب الخطيب على ما سافه
في أبي حنيفة من الأكاديب محمد راهد بن الحسن الكوثرى
- ٩ — احقاق الحق بابطال الباطل
في مغيث الخلو وأفسوم
المسالك في بحث رواية مالك
عن أبي حنيفة ورواية أبي
حنيفة عن مالك محمد راهد بن الحسن الكوثرى
- ١٠ — حياة الامام أبي حنيفة الأساد سيد عصفى

- ١١ - الفكر السامى فى تاريخ الفقه
الاسلامى
الحجوى
- ١٢ - وفياب الأعيان .
ابن حلكان
- ١٣ - الفوائد البهية فى تراجم
الحنفية
اللكنوى
- ١٤ - طبقات الفقهاء
أبو اسحق الشيرازى
- ١٥ - طبقات الشافعية الكبرى
السبكى
- ١٦ - الديباج المذهب فى معرفة
أعيان علماء المذهب
ابن فرحون - المالكى
- ١٧ - نظرة تاريخية فى حدوث
المذاهب الأربعة
أحمد تيمور ناشا
- ١٨ - فجر الاسلام
أحمد أمين بك
- ١٩ - صحى الاسلام
أحمد أمين بك
- ٢٠ - تاريخ التشريع الاسلامى
الخضرى بك
- ٢١ - تاريخ التشريع الاسلامى
الأساتده عبد اللطيف السبكى
ومحمد على السائس ومحمد
يوسف البريرى
- ٢٢ - تاريخ الفقه الاسلامى
دكتور على حسن عبد القادر
- ٢٣ - الموافقات فى أصول الشريعة
الشاطبى
- ٢٣ - اعلام الموقعين
ابن القيم
- ٢٥ - مجموعة رسائل «فقه حسمى»
مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب
المصرية
مفتى راده
- ٢٦ - مجموعة رسائل «فقه حسمى»
مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب
المصرية
عبد العنى النابلسى

- ٢٧ — رفع الملام عن الأئمة الثلاثة
الأعلام (دار الكتب المصرية) ابن تيمية
- ٢٨ — رسالة في مدى استعمال
حقوق الزوجية دكتور السعيد مصطفى السعيد
- ٢٩ — علم أصول الفقه
الأساذ عبد الوهاب خلاف
- ٣٠ — الاسلام وأصول الحكم
الأسناد على عبد الرارق
- ٣١ — السياسة الشرعية
الأسناد عبد الوهاب خلاف
- ٣٢ — السياسة الشرعية
الأسناد محمد البنا
- ٣٣ — الفقه على المذاهب الأربعة
طبعة وزارة الأوقاف الشيخ عبد الرحمن الحزيرى
- ٣٤ — رد المختار على الدر المختار
ابن عابدين
- ٣٥ — المجموع شرح المهدب
محيى الدين بن شرف النووى
- ٣٦ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة الأولى الأساذ أحمد بك ابراهيم
- ٣٧ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة الثانية دكتور محمد كامل العمراوى
- ٣٨ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة الخامسة الأساذ محمد أحمد أبو رهرة
- ٣٩ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة السادسة الأساذ عبد الوهاب خلاف
- ٤٠ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة السابعة الأسناد عبد الوهاب خلاف
- ٤١ — The moslem Creed Wensinck Cambridge 1932
- ٤٢ — Le Dogme de l'Islam. Godziher - Paris 1920
- ٤٣ — شرح الأحكام الشرعية محمد زيد الأبيانى بك
- ٤٤ — الخراج أبو يوسف
- ٤٥ — الفهرست .. ابن النديم

٤٦ — تاريخ الطبرى	الطبرى
٤٧ — تاريخ الدولة العباسيه	محمد الحصرى بك
٤٨ — تاريخ الاسلام	حسن ابراهيم حسن
٤٩ — الطبقات الكبرى	ابن سعد
٥٠ — فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب	محمد لطفى جمعة
٥١ — الامامة والساسة	ابن قتيبة
٥٢ — الكتاب والوزراء	الجهشياري
٥٣ — العقد الفريد	لابن عبد ربه
٥٤ — دائره المعارف الاسلاميه	
٥٥ — دائره معارف البستاني	
٥٦ — الأمالى	أبو على القالى
٥٧ — المقدمة	ابن خلدون
٥٨ — Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929	
٥٩ — الحيوان	الجاحظ
٦٠ — مناقب الامام الشافعى	محمد بن عمر الرازى
٦١ — الفصاء فى الاسلام	ابن عربوس

فهرست

صفحة

٣	المقدمة
٧	الباب الأول — الرجل
٢٩	الباب الثاني — التاجر
٤٥	الباب الثالث — فى المسجد
٦٥	الباب الرابع — المفكر
٨٥	الباب الخامس — التلاميذ
١١١	الباب السادس — فى العراق
١٢٧	الباب السابع — فى الكوفة
١٣٧	الباب الثامن — فى الفقه
١٥٩	الباب التاسع — امام أهل الرأى
١٨٣	الباب العاشر — فى القضاء
٢٠٧	الخاتمة — فى التأريخ
٢٢٨	فهرسب المراجع

